أنطونيو غالا

غرناطة بني نصر

أبو عبدو البغل
مدونة أبو عبدو

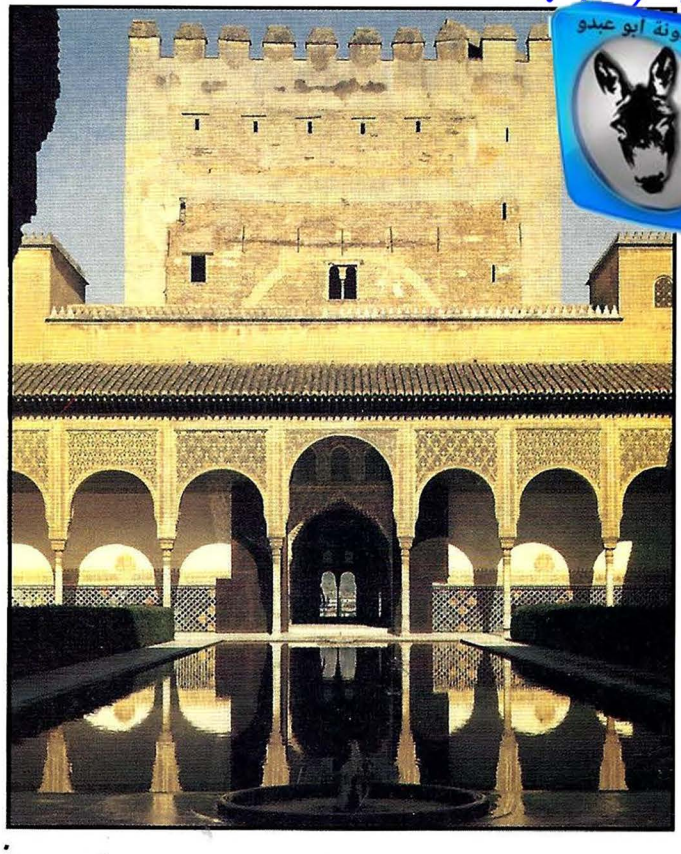

ترجمة: رفعت عطفة

غرْناطةُ بَني نَصْر

• أنطونيو غالا
• غرناطةُ بَني نَصْر
• ترجمة: رفعت عطفة

• جميع الحقوق محفوظة Copyright©

• الطبعة الأولى 2009
• موافقة وزارة الإعلام رقم 103696
• الناشـــــــــر: ورد للطباعـــة والنشـــر والتوزيـــع
سوريـــة - دمشق☎ 5141441
• الاستشارة الأدبية: حيدر حيدر
• الإشـــراف الفني: د. مجد حيدر
• التوزيــــــــــع: دار ورد☎ 5141441 ص. ب 30249

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or transmitted in any form or by any means, electronic or mechanical, including photocopying, recording, or any information storage and retrieval system, without permission in writing from the publisher.

أنطونيو غالا

غرْناطةُ بَني نَصْر

ترجمة: رفعت عطفة

العنوان الأصلي للكتاب:

Granada de los Nazaries

القسم الأوّل

الثمرة المتوّجة

مدخل

حين يصفني من يراني اليومَ بالجميلة أبتسمُ. ربّما ظنّوا أنّ ابتسامتي ابتسامةُ خيلاء: على العكس إنّها ابتسامة حزن. فقبل ستمئة أو سبعمئة سنة كنتُ جميلةً فعلاً. مراهقتي دامت طويلاً؛ في ذلك الوقت جاءني النضج. المدينةُ كالمرأة: شعورُها بأنّها محبوبة يُجمّلها؛ شعورُها بالتوتر في سبيل قضيّةٍ حميمةٍ يمنحُها الكمال. مامن حبٍّ يحلّ محلّ آخر، إنه يليه لكنّه لا يحلّ محلّه. والمدينة حين تكون قد عاشت عدّة حيواتٍ مختلفة، تلتفت إلى الخلفِ وتقارن بينها. تصابُ بالتشوّش أحياناً، لكنّها دائماً تنتهي إلى اختيار الزمن الذي عاشت فيه محاطةً بأبناء مُفضّلين وقام على الحبّ المفضّل. إذ هل تنتمي المدينة إلى ناسها أم العكس: هم من ينتمون إليها؟ لماذا يتشابه أبنائي فيما بينهم على مرّ العصور؟ بالتأكيد أنا السببُ: هم يصنعونني وأنا أصنعهم، وفوقي وفوق أبنائي تُبقي علينا الشمسُ المشعة والسماءُ العالية والثلجُ القريب والجوّ الساطِعُ متماثلين على امتداد الأزمنة، السعود والمحن، والرغبة اللجوجة بالحياة.

مُحقّون همُ الذين يروننني اليومَ جميلةً؛ ومع ذلك هناك لحظات ـ يحدث لي هذا عادة في أماسي الصيف الطويلة، حين تنزف الشمسُ وتقاوم الموتَ بيأس ـ أشعرُ فيها بالحنين إلى ما كنتُه. أنظرُ إلى نفسي في مرايا البركِ وبحر الينابيع ـ دائماً أحببتُ أن أنظر إلى نفسي في الماء، أن أرى نفسي أرتعش فيه. أُدرِكُ نفسي في اهتزازاته، فلا أدري أيُّها أكثر حقيقة: حقيقتي أم ظلّي ـ، فلا أعرف

نفسي. أجلسُ على قمّةِ هذه الرابية أو تلك، أتركُ يديَّ الفاترتين في حضني وأبدأ أُفكر كيف وصلت إلى ما أنا عليه الآن. حتى أنّني أُصغي إلى أبنائي يسرحون بفرحهم الأزلي وأقولُ لنفسي: «حسن، حسن. كلّ شيء كما يجب أن يكون» وأنتفضُ. لأنّني أُدرك أنّ لكلّ عمرٍ نبضه وضحكته وطريقته في ترك الأمل يتشابك بين الأصابع. وأُدرك أنّه ما من أحدٍ يمكن أن يُعرَّف بعدد تجاعيده، ولا بتدهور حاله؛ وأنّنا في النهاية لا نعرف بيقينٍ ما الذي ينهار وما الذي ينهضُ.

لاحظتُ ذلك على امتداد حياتي: هناك مدن حكم عليها مسبقاً بأن تُساهِمَ بثقافتِها: أثينا، روما، قرطبة. وأخرى ببطولتها وفيها تموت: نومانثيا وقرطاجة. هناك أُخرى تجارية بشكل عام وتُساهِم بفنّها: باريس، فلورنسا. وأخرى ترمز إلى تغيير مواقف بلدٍ أو حضارة بكاملها: مدريد ونيويورك. وبعضها تملك مهمة المساهمة بذاتها: البندقية أو إشبيلية؛ عليها أن تُتِمَّ قدرها الصعب بالاستمرار بالحفاظ على جمالها دون أن تشيخ أو ترتاح، دون أن يظهر عليها جهدها المضني. أنا التي أملك بعضاً من كلّ هذه المجموعات، لاأنتمي إلى أيّ منها كلّياً. قدري هو قدرُ المدن الناهضة ليعيش فيها الناسُ كما يجب أن يعيشوا: بالعمل والمتعة، وسط طبيعة محظوظة، يزيّنونها ويرتقون بها إلى الكمال كما في المكاشفة بالحب. أي أنّني كنتُ دائماً وما أزال مدينة البشر، بناني البشرُ لأنفسهم وعلى قياسهم وقدّ رغباتهم. بهم تمتعتُ وبهم أتمتع. أعلم أنّ تاريخي مثل تاريخ نجم يبقى نورُهُ حاضراً ملايينَ السنين بعد انطفائه. أعرفُ أنّ قدري قَدَرُ نيل الضبّ، يستمرّ في الحركةِ بما يشبه الحياة حتى بعد قطعه. أعلمُ أنّ تاريخي الذي أرويه لنفسي مثل هذه الأزهار، وُجِدت كي تُغمَضَ حين تغيبُ الشمس، وتُغمِضُ أيضاً حين تُقطَفُ وتُوضَعُ في الكأس، على أملِ أن تُفَتِّحَها شمسُ الصباح. أعلم كلّ هذا، لكنّني لا أستطيع أن أمنع عينيّ من أن تلتفتا ـ في بعض الساعات، أو بل وفي بعض الأيام ـ إلى بعض الأزمنة الأفضل كما لو أنّها لم تنقضِ تماماً.

وأسأل نفسي، لماذا هي أفضل؟ فلا أكاد أعرف بماذا أجيبُ. ذلك أنّني مدينة لم تكن تملكُ آنذاك صلاحيةً قانونيةً. فالقانون الإسلامي ـ وهو الذي كان يحكمني ـ لا يعترف بوجود أيّ رابطٍ بين المؤمن والأمّة أو مجتَمَعِ المؤمنين. كانت المدينة منظّمة، لكن ما من عنصر من عناصرها أو مؤسسة من مؤسساتها ـ كم كانت كثيرة ومتنوعة ـ تصدر عن السكان، كما كان يحدث في المدن المسيحية، بل عن السلطان. كان حكمُ السلطان مطلقاً ووحيداً: حتى ولو لم يكن للعاهل قوّة تشريعية ويجب التمييز بين شخصه والسلطة النظرية التي يتولاّها، لم يكن هناك أجهزة مُراقبة ولا مستشارين. فوقه لايوجد غير قانون الوحي الإلهي، الذي يقتصر عملُ الأمّة على تطبيقه أو تأويله. علماء اللاهوت ـ العلماء، أي العارفون بالقانون ـ كانوا يتحوّلون إلى ممثلين للأمّة، حين تواجهُ الإفراط في السلطة. وكانت الأمّة تعيش متجمّعةً في أحياء ـ كم أرتاح للكلام عنها ـ لها واقع أكثر بروزاً من المدينة ذاتها، ففيها كان يتعايش المواطنون المتجمّعون على قاعدة تضامن محدّد: طبقة اجتماعية، أو عرق، أو مهنة، أو فنّ. مجموعات يتجسّدُ فيها التلاحمُ الاجتماعي الواضح للعيان والذي يُسمى بالعصبية.

ثمّة تونسيّ من أصول أندلسية عمل، رغم كراهيته للمدن، سفيراً لي في إشبيلية، أمام بِدرو الأوّل وكان يُحبّني. يدعى ابن خلدون. كانت حياته متناقضة انعكست بهدوء في كتاباته. أراد أن يتفرّغ للكتابة فأحاطت به الحروبُ والقتل والأوبئة التي قضت على أسرته وشعبه فبرهنت له عن قلّة فعالية الدراسة. أراد أن يُصبح مفكّراً خالصاً فأصبح رجلَ دولة. أراد أن يُصبح رجلاً صالحاً فاضطُرّ للدخول في دسائس كثيرة. أخيراً صار قدرياً. كان يعتقد أنّه ما من ملك يمكنه أن يؤجّل سقوط إمبراطوريته بعد الجيل الرابع. فكّر أفضلَ من معاصريه وكان منسجماً ومتناقضاً في آنٍ معاً، كما هو حال الرجال الذين يفكّرون ويشعرون... الخضوع للسلطات يُفْقِدُ الشعبَ فضائلَهُ الحربية: القبيلة التي تدفع الضرائب تُذَلّ؛ وكلّ تقدّم

يأتي معه بالفساد والاستبداد. هذا ما كان يُفكّر به؛ ومع ذلك دافع عن السلطة ودفع الضرائب وعن فكرة التقدّم. وأنا دائماً كنتُ أُفضّل الرجال غير المندهشين.

بالنسبة إلى ابن خلدون هناك ثلاثة أنواع من البشر ـ ومن المجتمعات السياسية التي ينشئونها: بدو يتمتعون بحرية وحكم ذاتي مطلقين، لأنّ الأمر يتعلّق برعاة عاطلين ومتوحشين يضعون، ببساطتهم وشجاعتهم، أسسَ الاستقلال والطيبة، لأنّ البشر حين يحتاجون إلى مساعدة خارجية يشرعون في انحطاطهم وينتهون إلى الخضوع لنير الطغاة؛ وحضرٌ وهم الأكثر تحضّراً، لكنّهم الأقل أخلاقاً، نظراً لأنانيتهم وعاداتهم السيّئة وروحهم غير التضامنية؛ وفلاحون ليس لهم تأثير سياسي، لكنّهم يدفعون الضرائب دون أن يتمتعوا بأمانِ أبناء المدن ولا باستقلالية البدو، وبالتالي فهم الأكثر ذلاً.

كَتَبَ القرطبيّ الرائعُ ابنُ رشد أنّ الأندلسَ لم تُحضّر البربرَ وحدهم، بل ومعهم العربَ أيضاً وجعلتهم أفضل. على العكس من ابن خلدون الذي كتب أن الأندلس خنّثتهم وسلبتهم فضيلةَ العصبية، أي التضامن. هل كان ابن خلدون على حقّ؟ كان مهاجراً، بدوياً، مشبعاً بالضغينة ضدّ المدن والريفيين، الذين دمّروا، حسب رأيه، الأندلسَ؛ لكنّه كان في الوقت ذاته أوّل فيلسوفِ تاريخ عرفه العالم. كان على قناعة بأنّ خصائص كلّ شعب من الشعوب ليست وراثية بل مكتسبة بالتربية ومثبتة بالعادة. وتتعلّق أوّلاً وقبل أيّ شيءٍ بظروفه المادية: الطقس الجاف والحار، يخلق بشراً فرحين، خفيفي الروح وغير محترسين، أمّا الطقس البارد والرطب فيخلق بشراً كئيبين وحذرين، كما في فاس ـ يقول ـ التي يخبّئ فيها الفردُ من مؤونة القمح ما يكفي لعدّة سنوات، وبدلَ أن يستهلكها يذهب في كلّ عام إلى السوقِ ويشتري طعامه. وتتعلّق خصائصُ كلّ شعبٍ من الشعوبِ في المقام الثاني بنوع الحياة التي يحياها، هل هي بدوية أم مستقرّة وبالانسجام بين أعضاء القبيلة الواحدة وأخيراً بقانون

المحاكاة أو الاستلطاف، أو قانون الكراهية الذي يقودُ الناس إلى الاقتتال. لأنّه يقول بأنّ هؤلاء دائماً ينظرون بإكبار إلى من أخضعهم وسيطر عليهم ويرونه محاطاً بالكمال - أي أنّهم يعزونه (أي الكمال) إليه كيلا يشعروا بالخجل من خضوعهم إليه - ويتبنون عادات سيّدهم ويحاولون أن يتشبّهوا به. لذلك على الطبقات النبيلة والمحاربة أن تبتعد عن المدن كي تبقى مُتَمَيِّزة ومترفّعة. أمّا بالنسبة إلى الحروب فهي ظواهر طبيعية أحلّها اللهُ، تؤسّسُ للسلطة السياسية وتحافظ عليها. المنتصرون يعيشون حياةً أقلَ تحضّراً، أي أقل تمدّناً ؛ النصر ليس سببه السلاح أو التقدّم فقط، بل التفوّق الأخلاقي، الذي تملكه القبائل البدوية في أعلى درجاته، لأنّها تعيش حياة قائمةً على الحرمان والقناعة، ومعرّضة لأيّ هجوم وعليها أن تعيش في حالة استنفار دائم، نظراً لأنّها لا تملك الأسوار التي تحميها، كما لا توكل حمايةَ نفسها إلى الآخرين، وهي قوية بما يكفي كي تحمي نفسها. وبالتالي يجب أن تتطوّر الرفاقية والانسجام بين أعضاء القبيلة، وهذه هي بالضبط العصبية: النبالة المشتركة التي تُميّز أعضاء هذه المجموعات المغلقة، المختلفة تماماً عن مجموعات المدن.

ومع ذلك آمنتُ دائماً بأنّ المدنَ في العالم الإسلامي كانت مهمّة. وتعود أهميّتها إلى أصول الإسلام، الذي قام على يد مَدِينيّ، يُدعى محمّد، وذلك كي يُصلح الدين في مدينته، التي سُمّيت مكّة. هاجر بعد الفشل الأوّل إلى مدينة أخرى، المدينة، حيث لم تشدّ من عزيمته إلّا إلى فكرة تحويل مدينته إلى الدين الجديد وفتحها. وهي ستنتصب مناراً وهدياً وهدفاً لكلّ المسلمين، وقد نُظّمت زعامتها في تلك الأزمنة الأولى ومنحت إلى أفرادٍ من هذه من المدينة المقدّسة أو تلك، دون الاعتماد على زعماء القبائل البدوية الكبيرة. لم يتوقّف الإسلامُ خلال توسّعه عن تأسيس مدن جديدة يعتمد عليها ويُدخِل من خلالها بلاداً أخرى في الإسلام. فقط في المدينة يمكن القيام بالواجبات الدينية بشكل كامل ومرضٍ: صلاة الجمعة، فاجتماع

وتعزيز الجماعة يتطلّب مسجداً ومئذنة ومنبراً تُقدَّم من فوقه العظات، والوضوء كي يكون تامّاً يتطلّب ماءً جارياً وأرضاً نظيفةً؛ والحمّام ليس مؤسّسة مستقلّة تماماً عن المسجد، وبقاء المرأة في البيت لا يمكن أن يتمّ في البرّية بل في المدينة. والقضاء الشرعي مقرّه المدينة؛ فيها يؤكّد على هيمنته الدينية؛ فأموال الحبس، والغنائم تقوم بالضرورة في المدينة، حيث توجدُ بمعظمها...

وعملاً بفكره كان ابن خلدون يُعارِض مفهوم الأرستقراطية عند الأندلسيين، حيث يؤكّد أنّ التضامن قد انتفى وكانت السبب والنتيجة في آن معاً في سقوط سلطان العرب والسلالة التي أسّسته. الشيء الوحيد الذي احتفظوا به هو شجرة العائلة وتصوّروا أنّهم *«بمولدهم ومنصبهم في الدولة يمكنهم أن يفتحوا الممالكَ ويَحكموا الناس»*. مقابلَ ابن رشد الذي كان يؤكّد أن العائلة ـ عائلته مثلاً ـ تُصبح نبيلةً حين يمرّ عليها زمن طويل في المدينة هناك ابن خلدون الذي كان يتساءل ما الذي تجنيه العائلة من هذا الزمن الطويل، إذا كانت قد فقدت روابط التلاحم الاجتماعي التي تضمنُ الاحترامَ والطاعة. هذا التلاحمُ والفضيلةَ التي يولّدها ـ يؤكّد ـ يوجد كاملاً في مؤسّس السلطة السياسية، لكنّه يضعف عند أبنائه ويتلاشى عند أحفاد أحفاده، في الجيل الثالث. لأنّ حفيدَ الحفيد يصل إلى الاعتقاد بتفوّقه الشخصي، بدل التفوّق المتبادل الناتج عن التضامن. وإذا ما فكّرنا أنّ الجيل بالنسبة إلى ابن خلدون يدوم أربعين سنة سنفْهَم لماذا أتوقّفُ بحزنٍ أمام هذه الأفكار. يجب ألاّ ننسى أنّ مؤسّس السلالة النصرية أنشأها فيَّ قبل أواسط القرن الثالث عشر بقليل، وقبل نهاية القرن الرابع عشر بقليل كتب ابنُ خلدون ما كتبه.

السلطة ـ قال آنذاك وكم منحته من الحقّ بعد ذلك ـ، القائمة على التفوّق العسكري والأخلاقي، تتصدّع لأسباب مختلفة ومتداخلة: الانتشار الواسع للإمبراطورية (الذي لا يعني فقط التوسع المادي، بل إمكانية ممارسة السلطة) والاختلاف الحضاري بين الفاتح والمحتَل والنزاعات الحاصلة بين الحاكم والقبائل (أو السلالات، كما حدث

في حالتي) لأنّ المنحدرين من المؤسّس، حين ينسون أصلَ سموّهم، يُسلّمون المناصبَ العامّةَ ليس للأكفأ بل للأكثر إذعاناً، للغرباءِ عن القبائل الأولى، وبذلك تضعف السلطة العسكرية حين تنتقل إلى أيدي المرتزقة، الذين ليسوا أكثر من مساهمين في الفساد العام. لذلك ـ يُضيف ابن خلدون ـ لم يكن باستطاعة الأمراء الأندلسيين (ولم يكن يعني إلّا الأمويين) أنْ يعتمدوا على الروح القومية والفريدة للعرب، لأنّه كان قد مضى على انغماسهم في الرفاهية ثلاثةُ قرون. ترى ألم يكن يُفكّر حين كتب هذا ببني نصر أكثر من الأمويين؟ حين تزداد رفاهية أمّة ما، خاصّة حين لا تكون غنيّة، فإنّ على السلطان أن يزيد من مناصب القادة وأصحاب المناصب الرفيعة كي يعوّضهم عن خسائر الثروة، والضرائب لا يمكن أن تزداد إلى ما لا نهاية، ولكي يُقلّصَ النفقات سيقلص الجيوش، مع كلّ الانعكاسات السلبية لهذا على الإمبراطورية. «إذا ما بدأ التدهور فما من شيء يوقفه». ربّما فهمتم الآن لماذا أفكّرُ بابن خلدون حين أُفكّر بالتاريخ. بعده صمت المغربُ وبقيت كلماتُهُ ترتعش مثل وعيدٍ في الهواء. في مرحلة ازدهاري وأوجه بدا وكأنّه يتنبّأ بمساري ويبكي ليليَ الحالِك.

منذ البداية، كان عصر عِزّيَ مهدَّداً بنهايته. هكذا التقطته أسطورةُ بيتِ ديكِ الريح. كان الديكُ يتوّج قصراً قديماً شُيّدَ بعد فترة وجيزة من وصول المسلمين إلى الأندلس. وضعوا في أعلى برج من أبراجه دوّارة هواء برونزية، تُمثّلُ محارِباً على جواده ومعه درقته ورمحه. لكن هل كان يدور بحسب إرادة الريح، أو يُنبّه إلى الجهة التي سيأتي منها جيشٌ معادٍ؟ لقد وُضِع ذلك التمثال هناك لينكّر وقتذاك ـ وفي كلّ الأزمنة اللاحقة ـ الأهالي بأنّهم مُحاطون بالأعداء والأطماع. أو كما كان يقول حبيبي ومحبوبي واشنطن إيرفينغ: «إنّ خلاصهم يتعلّق فقط بأن يعيشوا متأهبين للدفاع وجاهزين للخروج إلى ميدان المعركة». إن أسطورة دوّارة الريح المنبّهة هذه تُعبّر عن حالة التأهّب الدائم التي كانت تسير فيها حياتي، حين كنتُ عاصمة آخر مملكة إسلامية في إسبانيا. كنتُ مثل الآلهة الوثنية ذات وجهين،

وجه ينظر إلى ماضي أهلي المجيد، وآخر ينظر إلى من سيصبحون ـ وحدث هذا قائماً ـ مدمِّريَّ ومُحتلِّيَّ. ربما كان كلّ الجمال الذي رآه هؤلاء فيَّ وأراه أنا الآن من بعيد، قائماً على هذا التأهّب، على البقاء بين ما لم يفت بعدُ وما فات : على هذا الذي ماعاد يوجدُ متسعٌ له من المكان ولا من الزمان ولا من الهدوء للإبداع، لكنّه يوجد لإعادة الإبداع والتمتع اللاحق بالميراث الموروث؛ بنعومة الانحدار، الذي يرقّ إلى حدّ أنه يَنْثَلِم؛ هذا العيش والبناء لليوم وللغد الافتراضي غير الأكيد، المتجاهِل للمستقبل الطويل الذي لن يوجد؛ هذا الشرر المرتعش ـ تنبّأ به ابن خلدون ـ الذي يُحدِثه الفتيل الموشك على الانطفاء، على طريقة المصباح الذي وهو على وشك الانطفاء ويُطلق شرراً مباغتاً، يجعل الآخرين يعتقدون باشتعال جديد. خلال الاحتضار الطويل هناك دائماً تحسّن يسبق الموت.

علاقات أبنائي بجيرانهم ـ النصارى من أبناء شبه الجزيرة أو المسلمين الأفارقة ـ كانت معقّدة. مملكتي وأنا كنّا آخر أثر وآخر ملاذ للإسلام المهدَّدِ باستمرار من النصرانية. أفريقيا وأنا المفصولتين من ناحية أخرى عن الطرق البحرية والمحرومتين، من ناحيةٍ أخرى، من مساهمات المشرق الثقافية المباشرة، كان علينا أن نتعانق وننظر إلى بعضنا كإسلاميتين ونعيش داخل ذاتنا. بالنسبة إليّ كان من الضروري أن أبني بنفسي ـ فقد كنتُ أجدُني مختلفة عن أبناء ديني الأفارقة وشبيهة جدّاً بأعدائي ـ المرحلةَ اللاحقةَ ـ لا أدري إن كانت زاهية لكنّها كانت شخصية ـ من الثقافة الإسبانية الإسلامية. وبما أنّه لم يحمِني المراكشيون دائماً بشكلٍ كافٍ، فقد اضطرَّ مؤسِّس سلالة بني نَصر أن يَخْضَعَ ويتبعَ قشتالةَ، وهو ما جنّبني الطردَ والنزوحَ منذ اللحظة الأولى. ثمّ إن دعم المسلمين الأفارقة لم يكن يوماً نزيهاً، لأنّ قصدَهم السّري كان، إلى هذا الحدّ أو ذاك، إعادة بناء إمبراطورية المرابطين والموحدين وامتلاكي. أي أنّني كنت محاصرة من الشمال والجنوب وأعيش حياةً مصطنعةً وسعيدة بطريقة مبالغة كالتي يعيشها كائن مهدّد

بمرض قاتل لا يقتله (وهل الأمل شيء آخر غير هذا؟) ما لم يستسلم لليأس العقيم.

في القرن الخامس عشر، الأخير في هذا التاريخ الحزين، تماماً في الوقت الذي ضعفت فيه سلطة بني مرين في مراكش؛ صرتُ أفريقيةً أكثر من أيّ زمن مضى، حين أصبحتُ وحدي في مواجهة قشتالةَ، وأصبح سقوطي مجرّد مسألة وقت. عادة ما يرى مؤرّخيّ تناقضاً ظاهرياً عصيّاً على الفهم في هذا التطوّر. لا شيء أبعد من ذلك: سلالات أرستقراطية مختلفة انضوت تحت سيف محمّد الأوّل، مؤسّس السلالة، وقَبِلوا معاهدة الخضوع الإقطاعي لقشتالة. أخلافهم وجدوا أنفسهم مضطرين لمواجهة أطماع أسرٍ أخرى من خلال أقامة دولة إسلامية، كان عليها أن تملك قوّة عسكرية وموارد مالية مهمّة تموّلها. كانت مساعدتها تأتي من اللاجئين الكثيرين الذين راحوا يقيمون فيّ مع زحفِ ما أسيء تسميته بحرب الاسترداد، معتمدين على العصبية، ومشدّدين، كردّ فعلٍ، على المشاعر الإسلامية وعارضين تقاليدهم المشتركة وهو ما راح يبرز ويؤكّد على الطبيعة الأفريقية المتزايدة في أيّامي الأخيرة. التناقض ليس في هذا بل في مكان آخر. لأنّه يبدو أنّ هذه الدولة الإسلامية قد توطّدت في أواسط القرن الرابع عشر، حين كان ابن خلدون يرصد ذلك، لكنّها لم تكن، وكما لاحظ، وطيدةً. فقد كانت تعتمد على الخارج كي تغطي حاجاتها من الغذاء، والضغط القشتالي يتطلّب الدفاع عن الجبهة بشكل متواصل. كلّ ذلك كان مكلفاً جدّاً ويتطلّب نظاماً ضرائبيّاً باهظاً، بعيداً جدّاً عن تقاليد الشريعة الإسلامية، إذ لا يرد في القرآن ولا في السنّة ـ الحديث النبوي ـ ذكرٌ لأيّة ضريبة أخرى غير الصدقة، لكن لا جيش، ولا تنظيمات ولا معيشة ولا إمكانية لدفع الجزية لقشتالة دون مال (الجزية التي كانت تحصد نصف دخلي في البداية ثم ربعه أو خمسه) من هنا استطاع السلطان أن يقنع الفقهاء، المعفيين من الضريبة بوجوب أن يدفع بقيةُ أبنائي نفقاتِ الحرب. لذلك لم يكن يوجد شيء أقل شعبيّة من الحرب، وحدها بعض الأسر

والعلماء والفقهاء دافعوا عنها وأجازوا الضرائب. كانت هذه الضرائب أقل شعبيةً بعد الحرب، لذلك وحين زادت أكثر من المعتاد أيّام السلطان ما قبل الأخير حدث استسلام المدن والقرى، التي أرادت أن تنتهي من الحرب والضرائب في آنٍ معاً.

في هذا الوضع الذي وجَدتُ فيه نفسي مشدودة إلى هذا الجانبُ وذاك، قاتلتُ الأرستقراطيةُ للحفاظ على مستويات حياتها من خلال التحكم بالسلطة. وبما أنّه لم يكن هناك قواعد صارمة لتولي العرش فقد حدثت سلسلة من المؤامرات والعصيان والتمرّد التي لم يكن بنو سراج وآخرون غيرهم ممن يبحثون معهم عن مصالحهم الخاصّة، غريبين عنها. هذا هو أصل الحروب الأهلية التي أدمتني في القرن الخامس عشر وعجّلت بسقوطي بعد أن أنهكتني. ربّما كان من الممكن تأجيل الكارثة الأخيرة لولا أن السلطانَ ما قبل الأخير، أبا الحسن مولاي حسن بالنسبة للنصارى ـ فقد هدوءه، وسمح لنفاد الصبر أن يجرفه. لكن للتهرُّبِ من النزاعات السابقة ولإرضاء ورفعِ معنوياتِ شعبٍ منهكٍ قبل انتهاء الهدنة الأخيرة بقليل في 1481، انتزع الزهراء من المسيحيين. كانت لحظة غير مناسبة: فحروب اعتلاء العرش قد انتهت عندهم وهذا ما أجبر فرناندو وإيزابيل تقريباً على اتخاذ قرار القضاء عليّ. فقد تلقت راياتهما مباركةَ بابا خائفٍ من أن يؤخذ مثل جوزة بين إسلام الشرق وإسلام الغرب في بحر متوسّطٍ لم يعد لاتينياً. (أراغون وقشتالة كانتا قد بالغتا دائماً بسلطتي وقوّتي للحصول على المزيد من المال من البابوية وعلى أعظم الفوائد من حروبها الصليبية).

هذان الملكان الكاثوليكيّان هما اللذان جعلا في العقد الأخير من حياتي من دينهما مسألةَ حياة. أرادا أن يجعلا من مملكتيهما، بكلّ ما فيهما من أعراق وأنماط وأقوام وطبيعة وطبائع مختلفة، وحدةً ويشيداها فوق شيء مشترك، غيرٌ قابل للجدل. لم يعثرا إلّا على الدين كشيء مقابل للإسلام، لكنّه شيء شخصيّ وغير محتمل أبداً إلى حدّ أنّه اضطُرَّ أن يعتمدَ على محاكم التفتيش. منذ تلك

منظر بانورامي لـ «غرناطة»، ويبدو واضحاً قصر الحمراء.

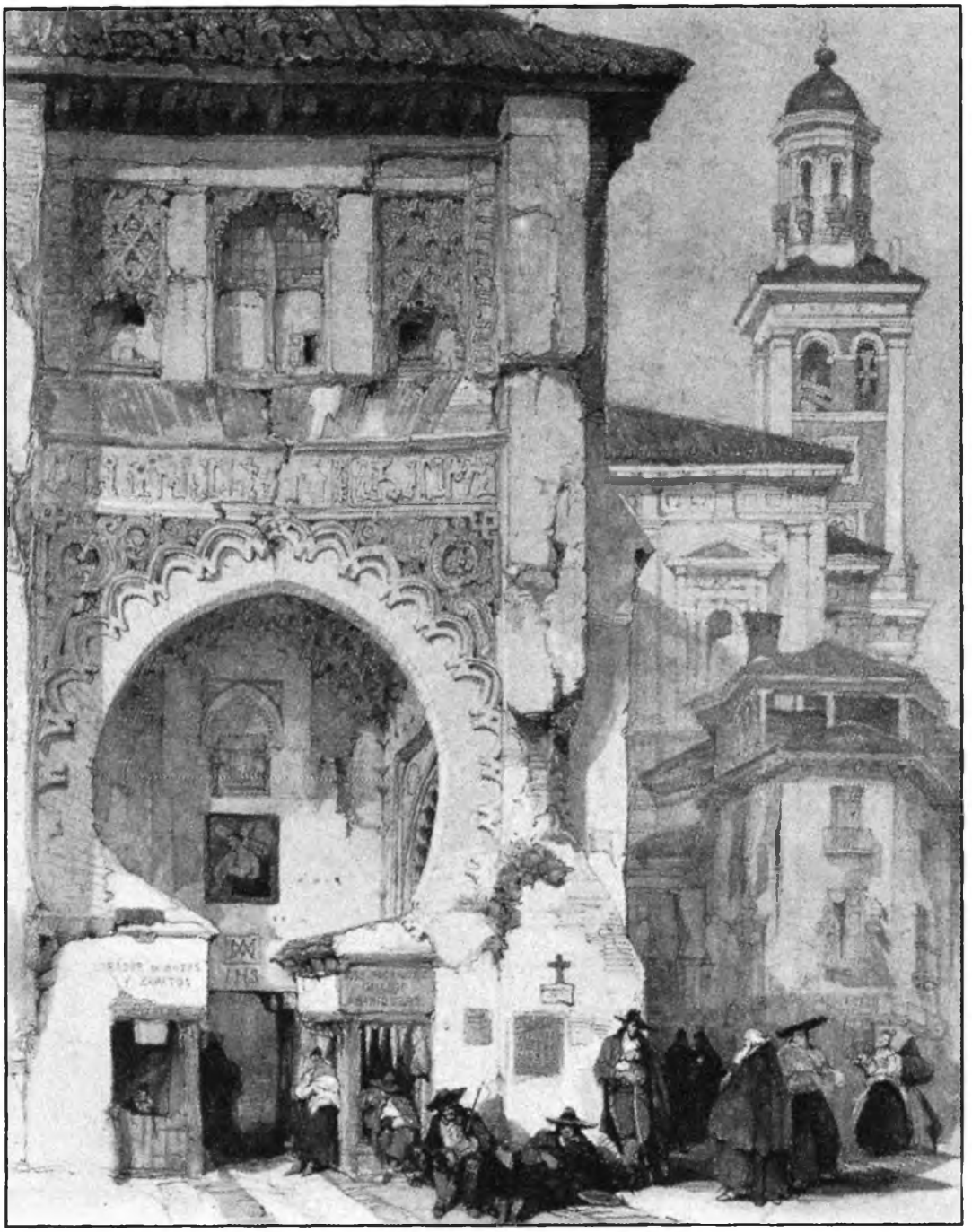

خان الفحم، حسب لوحة حفر لروبرت.

اللحظة سوف يُعطى للدين دوراً لم يكن له. في بدايات الإسلام في شبه الجزيرة وفي عصر أكثر الأمويين ازدهاراً لم يكن الدينُ يُفرِّقُ: كان هناك مفاهيم أقوى تجمعُ أو تحمل على المواجهة: المواقف، الثقافة، المنافسة الاقتصادية. لم تكن الحروب مسألةً دينية؛ الأندلسيون النصارى قاتلوا الشمالَ إلى جانب المسلمين؛ وكان النصارى يتعلّمون العربية، حتى أنّ ألبارو القرطبيَ فكّر بترجمةِ الكتابِ المقدّس إليها، ليس من أجل تنصيرِ المسلمين بل من أجل أن تُصبِحَ قراءتُه ممكنة ومفهومة من أبناء دينه. ما الذي حدث بعد ذلك؟

تبدّل كلُّ شيءٍ مع معركة الزلاقة بقيادة المرابطي يوسف بن تاشفين ـ المتشدّد وغير المتفهّم والجلف مثل أيّ متشدّد ـ الذي اضطُرّ الأندلسيون للاستعانة به ليحميهم من ألفونسو(*) السادس. لقد دار بابُ ما سُمّيَ بحرب الاسترداد فوق مفاصل أخرى، لم تخطر ببالٍ حتى ذلك الوقت. الحرب من أجل الجغرافيا، التي كان الشماليون يُحاولون استعادتها للتخفيف من فقرهم، تحوّلت إلى حربٍ دينية، أكثر قسوة وجبروتاً. عند ذلك طُرِحت مسألة ما إذا كان الإسلامُ هو المسيطر حصراً على شبه الجزيرة أم النصرانية. ومع ذلك لم يكن هذا ولا بشكلٍ من الأشكال شعاراً أندلسياً؛ بل أفريقياً. لم يكن هناك من شيء مشترك بين الأندلسيين والمسلمين الأفارقة غير الدين، وكان عليهم أن يلجؤوا إليه طلباً لمساعدتهم. وحدث للأندلسيين مع المرابطيّ يوسف بن تاشفين ما حدث لهم مع الملكين الكاثوليكيين في نهاية تاريخي: نظراً لغياب بيت الثقافة المشترك، أو بيت أيّ رابطة أخرى أكثر وضوحاً وإنسانية، تمّت إشادةُ بيت أصغر، وأسوأ أساساً: بيت الدين. لكن ورغم كلّ المصائب وحتى النهاية، حتى آخر حشرجة في روحي النصرية، ووسط أعمال السلب والقنوط والأمل كان المسلمون واليهود والنصارى يتطلّعون، كلّ حسبَ معتقده، إلى عالم روحي ـ وتنفّسوا من خلاله ـ ربّما لم يكن

(*) يختلف التصوير الصوتي لهذا الاسم فهو أحياناً ألفنش وأخرى ألذفونس وقد اخترنا الاسم المعاصر له. م.

متماثلاً، لكنّه مفهومٌ من الجميع. حين تنغلق هذه المرحلة من حياتي تنغلقُ أجملُ إمكانيات التعايش.

ومذ ذاك كثيراً ما صغت السؤال ذاته الذي وضعه أحدُ عشّاقي في روايته المخطوط القرمزي على فم أو ريشة آخر ملوكيّ أبي عبد الله الصغير. إذا كان الدين هبة من الله، فهو يمنحه إلينا لمواساتنا: إذن كيف يمكن أن يُساء استخدامه حتى يتحوّل إلى مصدر لأعظم الشرور؟ الإنسانُ، وإن نسيَ، كائنٌ ضعيف وسريع الفناء، يعيشُ قليلاً ثمّ يموت؛ كائن يمرّ في كون غير مبالٍ. الديانات تحاول أن تُعزّزه، تمنحه القوّة والثقل مثل الحجارة التي يضعها بعض الفلاحين في جيوبهم كي يمنعوا الريح من الإطاحة بهم. من أين جاء إذن هذا الدأب، الكريم ظاهرياً، الذي يدفع بعضهم ضدّ بعض، لأنّ طريقتهم في عبادة الله مختلفة؟ ترى ألم توجد لتتعايش؟ كم من التناقض في سلوك الإنسان! ليس في سلوكه وحسب بل وفي جوهره ذاته. اللهم ما لم تكمن تحت هذه التناقضات فكرة ملحة، لكن ما هي؟

الإسلام بدايةً محترِم: واليهودية والمسيحية ليستا بالنسبة للمسلمين ديانتين غريبتين؛ فالخلاص ممكن أيضاً عبرهما ولا إكراه في الدين. ألم يكن ابن عربي من قال :

لقد صار قلبي قابلاً كلّ صورةٍ
فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيتٌ لأوثانٍ وكعبةُ طائفٍ
وألواح توراةٍ ومصحفُ قرآنِ؟

ألم يُضف :

أدين بدين الحبّ أنّى توجّهت
ركائبُه فالحبُّ ديني وإيماني؟

أم أنّ الذين يَسْمون أكثر، ويتقدّمون أكثر وحدهم من يفهم التعاليم؟ لماذا لا نحاكيهم؟ ترى أليست المسألة في أنّ العامّة ـ الملوك العامّة ـ لا يحكمون ولا يعملون في الواقع بالتعاليم الدينية.

إن عداوة الإسلام لليهود ترتكز على أنّهم حطّوا من قدر النبي عيسى؛ لأنّ ما يطمح إليه الإسلام هو تجديد دين إبراهيم، الذي منه ينبثق الكتاب الذي يوحّد بين الديانات الثلاثة. وأكثر من ذلك وحسب الرسول فإنّ الجهاد الأكبر هو الجهاد الذي يتمّ داخل الدين الواحد؛ والجهاد الأصغر هو الجهاد ضدّ المهاجمين الخارجيين. وأكثر من ذلك إذا ما استسلم هؤلاء قبل أن يُهزَموا فإنّهم يتمتّعون بالأمان، أي الحماية والعفو. لقد حافظوا على الكُنس والكنائس، وسمحوا بممارسة العبادات فيها. الضريبة الوحيدة الشخصية التي فرضها الأندلسيون على النصارى واليهود كانت بدل الخدمة العسكرية: فهم لم يكونوا مُجبَرين عليها - النساء والأطفال والرهبان والعجزة لم يكونوا بدورهم مُجبرين على دفعها -. ألم يُحسِّن الإسلام حياة الغالبية؟ ألم تُوزِّع الإقطاعاتُ السابقة ويُحسن استثمارها؟ ألم يُحرِّر العبيدَ لأنهم دخلوا الدين وما من مسلم يمكن أن يكون عبداً أو لأنَّهم عُتقوا، وهو ما لم يكن مسموحاً سابقاً؟ وقبول الإسلام ألم يكن مقتصراً على القبولِ به كقانون اجتماعي؟ الواجب هو السلوك الخارجي الذي يُحدِّده القرآن؛ ودرجة ترسُّخ هذا السلوك في الداخل ليس موضوع بحث. (وهذا عكس ما يحدث في العمارة: فالعمارة الإسلامية يتمّ تصوّرها من الداخل إلى الخارج؛ مظهرها غير مهمّ، فالخارج يتمّ تأمله من النوافذ ذات المشربيات التي تُحافظ على الحميمية التامّة. النصارى على العكس يبنون عمارتهم كي يُشاهدها من يمرّ في الشارع ويعملون على أن يحسدهم عليها). ومع ذلك ونتيجة هذا السلوك الظاهري كان النصارى يتهمون المسلمين بالنفاق، وإذا كان الأمر كذلك فهم أكثر نفاقاً حين يُطالبون الجميعَ بكمالٍ مُحال. إنّه شيء شبيه بما يحدث للمتصوّفة الذين يرتقون عبر الطرق الروحية: في الإسلام هم فقط المطالبون بإلهام ربّاني ملزم؛ بينما النصارى الجميع مدعوون إلى ذلك منذُ العماد الذي هو طقس أوّليّ، حتى ولو لم يستمرّوا في ذلك. لهذا السبب - لهذه الأسباب - كان حجم التحوّل إلى الإسلام أكبر من التحوّل إلى الطرف الآخر. لم

يكن التحوّل نتيجة تحريض: كان المسلمون يحضرون دائماً وبشيء من الفضول الأعياد النصرانية، وتسحرهم زيارة الأديرة في أعياد القديسين، لم يستخدموا العنف قطّ كعتلة لتحويل الناس، حتى ولو لسبب تافه: فمقابل كلّ مسيحي يدخل الإسلام يفقدون ضريبة.

كان الملكُ فِرناندو، قديس قشتالة، أوّلَ من أخطأ حين عارضَ تقسيم الإقطاعات وقرّر منحَ الأراضي المترامية المحتلّة للنبلاء، طُعْماً، كي يساعدوه في احتلاله. وراحت إقطاعات الرهبان أو الدنيويين الغنية تشكّل قوّة كبرى، دون أن تشكّل العامّةُ أو التجّارُ في المدن قوّة موازية بشكلٍ كاف. بِدرو الأوّل هو الذي انتبه إلى ذلك وقام بردّ الفعل تجاهه؛ لكنّه كان دخيلاً على قشتالة: طبعاً كان مُعرَّباً. على العكس من أخيه الذي أسّسَ طموحاته على النبلاء المتضرّرين؛ فقد اعتمد على السادة الذين كانت سيطرتهم تتعرض للخطر. فتخرّب الخلاص الذي كان قد بُدِئ به: للمسلمين كما للنصارى. لأنّ فقرَ قشتالة مُعدٍ؛ فحين هبط الرعاةُ إلى أندلسيَ مُرْتَجِلين بحماية الأخويات الدينية، جلبوا معهم جوعهم وبؤسَهم ودمّروا ثروةَ الخلافة. قشتالة لا تُنتِجُ: تستهلكُ؛ لا تعملُ: تُحاربُ. تلك كانت مهنتها. ومع العسكريتارية التي راحت تهبط منها لم يهبط إفقار الاقتصاد وحسب بل ومعه إفقار الثقافة وتنظيمِنا الاجتماعيّ الأكثر عدالة. فقد لامس التطلعُ التكاملي للإسلام، الذي يتفاهم فيه السكّان ويتكاملوا باعتدال، نهايتَهُ: انهزمت العدالة أمام تمادي أصحاب الامتياز.

راحَ هذا الأثر المدمّرُ يزدادُ حدّةً مع الزمن. وراحت قشتالةُ تفرغ من سكانها: جميعهم كانوا يرغبون باللجوء إلى الجنوب؛ شلّوا زراعتهم المتخلّفة، وانتشرت عمليات نهب القطعان الكبيرة في الهضبة؛ وتمّ قبول تجار أجانب يشترون الصوفَ، وهو الشيءَ الوحيد الذي كانت تُنتِجه قشتالةُ إضافةً إلى بردها. أمام هذا الإفلاس لجؤوا إلى جيوب اليهود، الأندلسيين في غالبيتهم. ولم

يعتمد القشتاليون من أجل الاستمرار في الأكل والاستهلاك، إلاّ على مصدرين للدخل: الحملات على إسلام الأندلس وارتكاب المجازر ضدّ اليهود. يستخدمُ سيّئُو الذمّةِ أسلوبَ قتلِ مدينيهم كي يُصفّوا حساباتهم. تلك الحالة كانت مواتية للتستّر بغطاء ديني: كلّما ازدادت الحالة الدينية تعصّباً كلّما أعمت القلوبَ أكثر وبالتالي أصبحت عمليةً أكثر. لكن هل قاتل القشتاليون من أجل إيمانهم أم من أجل بقائهم؟ ألا يُقاتِلُ من أجل المال من يملك هذا المالَ؟ ومع ذلك ولأنهّم غير معتادين على ممارسة صنعة أو مهنة فنية - في الأولى برع المسلمون وفي الثانية اليهود -، لم تعد عليهم الأرضُ التي احتلوها بفائدة، ما داموا لم يفلحوها، ولا المناصب التي شغلوها ما داموا لم يعرفوا كيف يستخدمونها ولا كيف يديرونها. هل هو مالكٌ حقيقيٌّ من يملكُ ساعةً مائيةً أو إسطرلاباً أو بوصلةً ويجهل استخدامها، أو من يملكُ بستاناً لا يفلحه أو يتمتّع بأزهاره؟ شعب قشتالة العظيم لم يعِشْ إلاّ على غنائم الحرب ونهبِ المُسلمين واليهود؛ وكان من أجل مصالحه مستعدّاً دائماً أن يستجيب لأيّ صوت يقوده ضدّي وضدّ أحيائيّ اليهود. كان ملوكها على الطرف المقابل قد تمرّسوا على استخدام تلك الحجج القاتلة بثقة وأمان: ليست حججاً دينية، تنظر إلى الحياة الأخرى، بل اقتصادية، تنظر إلى هذه الحياة، رغم تظاهرهم بالورع والتقوى.

ساهم الملكان الأخيران، إيزابيل وفرناندو في أمرين جديدين: جمعا في شخصيهما أراغون التي كانت تعيشُ متطلّعةً إلى الخارج وقشتالةَ الجائعة وتحصّنهما ضدّ الإقطاعيين بعد أن ألهبا الشعب المتسوّلَ حماساً وأغرقاه بالوعود وسيطرا عليه. كلاهما حصّن الآخرَ ودعمه: كي يؤسّسا ملكية قوية، يجب أن تبقى القوّة في يدٍ واحدة. حسب المعلومات المتوافرة لدي فإنّ أوّل من انتبه إلى مقاصدهما كان الكاردينال مِندوثا الذي أخضع أسرته إلى هذه القيادة الحصرية؛ ليس لصالح الوطن، الذي كان بالنسبة إليهما مفهوماً لا وجود له، بل للمنفعة الذاتية حصراً: فقد غطّى آل مِندوثا

إدارات الكنيسة والمملكة والجيوش والمدن، لكن ليس باسمهم الخاص بل باسم من كان يُغَيِّبُهم. المكسب، إذا لم تكن الكرامة، بقي على حاله.

بكم من الوضوح رأيتُ أنَّ الشعب البسيطَ والمحتاج لم يكن يؤمن صادقاً بإلهه، ولا السادة الكبار بشعبهم ولا الملوك بأتباعهم الصغار أو الكبار، مهما كان حجمهم. كان الملوك يكذبون حين يدّعون راكعين: «ليست لنا، يا ربّ، بل لك السلطةُ والمجدُ». كلّ إنسان كان يبحث عن منفعته، يتمتّع بها ويُخفيها أحياناً تحت ثوب السخاء القشيب ويسميه الربّ، الملكَ أو الوطن، وأحياناً أخرى يتركه عارياً يتخبّط مثل ذئب وحيد. لكي يتخلّى الإنسانُ عن الطمع العنيف بحجرٍ، طعامٍ، أو زوجٍ، عليه أن يلتقي مع رجالٍ آخرين تحت سلطة مشتركة تُلَبّيّ هذه الحاجات الثلاثة ثمّ يدعوه للعيش في مدينة عادلة، حيث يُغني التعايشُ مع الآخرين حياةَ كلّ فردٍ، أيّاً كان الإله الذي يعبده واللغةُ التي يُعَبِّر بها ولون بشرته. هذا ما حاول أن يفعله الإسلام في شبه الجزيرة أولاً وفي داخلي أنا، مدينة الثمرة المتوّجة خيراً. لكن داخل هذا الإسلام كانت توجدُ أنانياتٌ أيضاً.

من الأعلى

قرطبة الأمراء والخلفاء، المستقيمة والأنيقةُ، شُيِّدت فوق مخطّط قرطبة الرومانية. إشبيلية الدقيقة بنيت فوق الآثار القوطية الغربية. وأنا أَسَّسوني إسلاميةً خالصة. في القديم وفي قرونِ إسلام شبهِ الجزيرةِ الأولى كانت إلبيريس (البيرة) على سفح جبال إلبيراً (العقاب، أي النسر، الميت أو الغافي الذي يوحي به جانبها) هي المركز الحضري لمملكتي؛ ثمَّ وبعد انحطاطها لعبتُ أنا دورَ العاصمة تحت إمرةِ بني نصر، وكان لي توسّعي الذي ما زالت تشهد عليه اليومَ بعضُ الأوابدِ. مسلمةً وُلِدتُ، كانت المدينةُ قلبي والمسجدُ الكبير قلبَ قلبي. كانت بالنسبة إليَّ ميدانَ الإغريق ومنتدى الرومان

وميدان المدن المسيحية، يحيط بها السوقُ الرئيسيّ بقيسرياته وأسواقِ حبوبه وأسواقه الأخرى، المتصل بعضُها ببعض. من هناك كانت تتفرَّعُ الشوارع باتجاه أبواب الأسوار؛ وكانت تلك الشوارع تحتوي على شبكةٍ من الأحياء والدروب والأزقّة والزنقات المسقوفة التي لا يُحصى عددها: متاهة حقيقيّة يحصل فيها الإنسانُ على العزلة والصمت. وحولي كان سوري الحصين والأحياء ومناطق السكن الواقعة خارج الأسوار التي تنتهي دائماً بأن يحدق بعضُها ببعض. مدينة الحمراء، مسكن السلاطين والإداريين والقناصلة، الشامخة تسيطر على كلّ شيء، توازي حصونَ المدن المتوسطية. خارج الأسوار هناك المسجّى للصلوات الكبيرة والمزارة للعروض العسكرية واستعراض القوات ومبارزات الفرسان ورياضات الخيل وسلام المقابر المدنسة أحياناً... وحولي، غير بعيدة عنّي بل متداخلة بي هناك بساتينُ مرجِ الخير والغطاء.

الذين كانوا ينظرون إليّ من الأعلى، من تلّ الشمسِ، أو من أحد القصور السامقة، كانوا يرون ما يجعلهم يُقارِنونني بدمشق وأتفوّق عليها. فحزامي الأخضر والغني يفوق غوطتها وكان الرحالةُ يقفون مشدوهين أمام موقعي الممتاز: كلّ شيء جنان ودغل، كلّ شيء بساتين. ونهر دارة(*) يصل إليّ بعد أن يمرّ بروابي الفواكه والكروم، وقد وشّت ضفتيه البيوتُ الصغيرةُ المحاطةُ بالبساتين المشغولة، التي تكادُ تختفي بين الأدغال. على رواب كنتُ أنهض ـ وما زلت أنهض، لكن كم هي مختلفة الطريقة ـ وتنهضُ بيوت انتجاع كثيرة وجميلة، وأكواخ مفتوحة على الخارج وشرفاتٍ مستعدةً لامتصاص مشهد جمالي وخصوبتي. كان يحيط بسياجي سور مُن الثراء. أتذكّر جناني: جنّة الحفرة، جنّة بحيرة الوادي، جنّة الجرف، ضفّة هشام، جنّة العرين، جنّة قداح بن سحنون... جميعها اختفت لكن ليس بحروب ذلك الوقت، بل بالبلاهة والهجران اللاحِقَيْن.

(*) ويسمى أيضاً حدرة. م.

إلى الأعلى من الحمراء وجنّة العريف وعلى سفوح التلال، في رابية حبول وسفح الجبل الغربي الذي يمتدّ فوقه شمالاً تل البيازين، تمتدّ أنضرُ البساتين خارج السور القديم على الجانب الآخر من الجدار الذي كان يهبط من البروج الحمراء: فدّان عصام، وجنّة المنجرة الكبرى والصغرى، وجنة الربض والفخّار، وتلك التي لم أعد أستطيع أو ربّما لا أبغي تذكّرها. إلى الأسفل وعلى ضفّة شنيل اليمنى، حُش المؤمّل، الذي زُرِع في القرن الحادي عشر، حيث كانت تتنزّه الشاعرة حفصة، الناعمة الريشة والعادات، مع حبيبها. ومزارع حيّ اللومة(*) ومدرج نجدٍ التي كانت تفوح منها رائحة القرنفل بين تل سبيكة الحمراء والنهر. وبعد الجسر الموجود على هذا النهر وعلى ضفّته اليسرى، عزبة قصر شنيل، الفاخرة ببركها الكبيرة الهادئة، القريبة من بساتين السلاطين والتي لا تفوقها عزبة أخرى: جنان الفارس والقاضي، والغار التي كانت ترويها ساقية أرمليا الكبرى، والجوف وسيدي يوسف وحامد ودار الغازي ودار نبلة. وعلى الجانب الآخر، وعبر باب فحص اللوز - أي ربوة اللوز - من حيث تهبّ ريح الشمال وفي أعلى البيازين جنان عين الدمع التي كانت تُغطي التلّ بالنباتات والروائح الزكية. وأمام كلّ هذا العطاء تظهر السبيكةُ عاريةً لأسباب عسكرية دفاعية، وتبرز القصور الحمراء على خلفية جبال الثلوج الدائمة وتعوّض عن عريها بحدائقها الداخلية الممتعة، وإلى الأعلى قليلاً في أدغال جنّة العريف الوارفة، حيث صار الماءُ عمارةً والقصور العديدة التي تبرز فوقها الأبراج تُلمَحُ بين الدغل. عند حافّة هذه الجنّة العالية الغوطة الخضراء والخصيبة دائماً مفتوحة حتى جبل همدان، وخلفه تتلاشى جبال لوشة؛ مزركشة بالطواحين والضياع والمنيات والقرى، التي كانت تتجاوز الثلاثمئة، وكان لخمسين منها مساجدها الخاصّة بها...

(*) لم أعثر في المصادر العربية على ما يمكن أن ينطبق على هذا الاسم، وأعتقد أنّ المقصود هي قرية رومة، التي كانت تحتوي على بساتين وحصن. م.

منذ الأمير السوري أبي الفِداء وحتى القاضي المملوكي العمري، ومنذ ابن بطوطة الرحالة الذي لا يكلّ وحتى بِدرو مارتير دِ أنجلِريا، الذي كان يعرف بلده إيطاليا جيّداً، منذ جِرونيمو منذر الجرماني وحتى نافاجييرو سفير فينيسيا، جميعهم حين رأوني أدركوا لماذا أثرتُ طمعَ وحبَّ وجشعَ من لم يكونوا ملاَكي. لماذا، منذ قرون وأنا أسأل نفسي هذا السؤال، بعد أن أصبحتُ تحت سلطتهم، أهملوا النواعيرَ، والترع، السلاسل التي كانت تحمل الماء من نهريَّ، من نبع الفقر إلى البيوت والأحياء والقصور. وكان الملك مؤسّس الأسرة قد بنى الساقية الملكية التي يعود إلى مجراها المتعرّج الفضلُ بازدهار الحمراء وجنّة العريف. بعدها جميع خلفائه كانوا تابعين لخيط أريادنا هذا، الذي هو خيط الماء. وأسأل نفسي: لماذا. أعلى الأماكن بين نهر دارة وشنيل ومنحدرات التلال عادت إلى وضعها السابق من الجفاف والعطش، والقصور التي كانت تفوق مرتفعات جنّة العريف ـ قصر الزوجة، بيت الدجاج بين أخرى ـ هُجِرت وصارت خراباً كما هو الحال بالنسبة للجزء الشرقي من مدينة الحمراء الفريدة، التي صارت تقتصر على مجموعة صغيرة من القصور. الجنان التي كان يطفح بها سفح السبيكة وحدائق قصر شنيل وعين الدمع وسفوح التلال التي تحيط بنهر دارة قبل أن يُقبّلني، هي اليوم أرض بعلية صفراء، «الخرائب والأطلال» التي رأى غونغورا أنّها تمعن النظر بمدينتها. أولادي المفضّلين ـ إمّا ماتوا، أو هاجروا أو سُلِبوا ـ ما عادوا يشتغلون أراضيَّ بعناية. النصارى الدخلاء كانوا يريدون الملكية، لكنّهم لم يشتغلوها ولم يفهموها، كما لم يعرفوا من الحبّ الذي كانت تزرع وتسقى به شيئاً. وهكذا كان أن فسد جمالي وذبلت نضارتي. ماعدتُ ولا حتى ظلّ ما كنتُه...

اليوم أفهم أكثر من أيّ وقت مضى الحزنَ الذي كان يشعر به من يُغادرُني، من كانوا يقولون لي وداعاً ليس من الأعلى بل من غصّة الأحزان، من ذلك المكان المسمّى وادي *جَوْر الوداع*، أي قسوة

الوداع (زفرة المسلم). كانوا يخرجون منّي للحجّ إلى مكّة أو للدراسة في المشرق، أو إلى المنفى، أو إلى الموت. لا يدرون ما إذا كانوا سيعودون أم لا، لا كيف سيعودون ولا متى. وينظرون إليّ بعيون مغرورقة بالدمع، تحت السلاسل القاسية شبه المرمرية لبداية جبل البشرات قبل الوصول إلى وادي القرن السعيد. هناك ومن تلك النقطة الأخيرة، التي لا أظهرُ بعدها، أبدو مقرفصةً عند حافَة الجبال، حتى أبراج الحمراء الشامخة ذاتها تركع أمام أعالٍ أسمى والمدينتان ما تزالان مشوّشتين في الوداع : مدينة الحمراء ومدينة غرناطة... أنا أيضاً شعرتُ بهذا الحزن حين كنتُ أودّع ما كنتُه.

المسجد الكبير

كان مسجدي الأكبر، الذي على المؤمنين أن يؤمّوه لصلاة الظهر، كبيراً وحميماً في آنٍ معاً. كانت أروقته الأحد عشر المرتكزة أسقفها المنشورية على أعمدة من المرمر، تمثّل مسجِد محمّد الأوّل: حصير متواضع يستند إلى جذوع من نخيل (المسلمون لا ينسون أبداً أصلهم البدويّ: حتى قاعات القصور الأنيقة تُنكّرُ بصورة الواحة، بمرايا مائها في الفناءات ومجراتها المنزلة في السقوف). في الرواق، فناء المدخل توجد الميضأة. منها ينبع ماء اعتُبِرَ دائماً عجيباً وشافياً، يقولون إنّ بئره عين من عيون البحر، تصل مياهه إلى مستواي بفضل الهوات والكهوف والمسارب الطبيعية والمغائر العميقة التي تلغم أرضي.

من مئذنته الجليلة والمتوّجة كان صوتُ المؤذّنِ يدعو إلى الصلاة: «اللهُ اكبر، اللهُ أكبر، أشهدُ أن لا إله إلّا الله، أشهد أنّ محمّداً رسول الله، لا إله إلّا الله. حيَّ على الصلاة، حيّ على الفلاح». كان الصوتُ العظيمُ يشقّ الهواءَ الباردَ والبرّاقَ مثل صقيعِ الشتاء، وهواءَ الصيفِ الحارَ والذهبي، فيهرع الناس الذين كانوا ينتظرونه

مسرعين. كان الصوتُ يهبطُ من المئذنة الكبيرة كثيفاً وشفّافاً فتردّ عليه أصواتٌ أخرى من المآذن الأخرى. يقولون إنّني ملكتُ ألفاً وثلاثمئة وثلاثين مئذنةً، ويقول آخرون ألفاً وأربعمئة. لم أملك وقتاً قط لعدّها. حين بدأتُ أفعلُ ذلك جعلتنيَ رشاقةُ هذه ولونُ تلك الورديّ أو القرميدي وزليج تلك الذي يُعميني أو روعة وإبهار وأناقة تلك أخطئ العدَّ. حتى قبل أن يبني محمّد الثالث ـ الذي أصبح ضريراً ـ مسجدَ مدينة الحمراء الذي كان يمنع ذهبه وفضّته من ينظر إليه عن قرب من رؤيته، كان كلّ شيء مرصّعاً بمآذن المساجد الصغيرة والكبيرة، الفاخرة والمتواضعة، المزينة أو المُجيّرة بإتقان شديد. كان الربُّ يتنزه فيّ، ولا أدري لماذا ما عاد يتنزّه...

في الجامع الكبير، مئات المصابيح الفضية، ومئات الشمعدانات تزيد من النور الذي تسمح النوافذ بتسرّبه. سجاجيد فاخرة كانت تُغطّي مرمر وقرميدَ الأرضية. وكان الزجاج الملون يجعلُ الألوان التي تزيّن الجدران تتراقص متضاعفةً. من المدخل، كان الورع يقودُ الناسَ مثل يدٍ خفيّةٍ إلى القبلة. المسجد والقبلةُ أكثر الكلمات معنى بالنسبة للمسلمين. فالمسجد ليس مجرّد مكانٍ للصلاة، بل بيت للحياة. أنّى يُصلّي الإنسانُ فثمّة وجه الله؛ البدوي بين كثبان الصحراء يسجد أمام الله ونظراً لعلاقة الخشوع التي لا تحتاج إلى وسطاء فالمكان معبد بحدّ ذاته. لكنّ هذا البدوي يجب أن يركع باحثاً عن الجهة، أي متجّهاً بالمعنى الصارم للكلمة إلى القبلة: النقطة العلاّمة التي تلتقي عليها نظرات وصلوات المسلمين جميعاً. خلال الصلوات الخمس اليومية ينصهر الجميع بعضهم ببعض أمام الله ويختلطون في هذه النقطة. القبلة إذن هي اتجاه مكّة، أو بالأحرى الكعبة التي يدلّ عليها في كلّ مسجدٍ المحرابُ، مشكاة النور المحفورة في الجدار. هذا الالتفات وهذا التركيز باتجاه المركز الروحي يميّز العالم الإسلامي. عدد من الأعمال اليومية تؤكّد على أهمية الكعبة الشعائرية، البناء المكعّب الموجود وسط المسجد الكبير في مكّة. كنتُ أسمعُ المعلّمين يحكونه في مدارس القرآن حين

كانوا يتحدّثون إلى الأطفال ذوي العيون السوداء البرّاقة المذهولة: هذه الحجرة المربّعة التي يبلغ عرضها عشرة أمتار وطولها اثنا عشر متراً وارتفاعها خمسة عشر متراً، المغطاة بستارة من القماش الفاخر المطرّز بالآيات القرآنية. إلى هذه النقطة بالضبط تتّجه آمالُ وصلوات العالم. إنّه المكان المقدّس بلا منازع، الذي يصل إليه الحجّاج من كلّ الأصقاع وكلّ الأزمنة، إنّه المكان الذي يتمّ حوله الطواف، الطقس المطهِّر الذي يتألف من سبع دورات حول الكعبة، الثلاث الأولى تتمّ بخطوات خفيفة، وبعكس عقارب الساعة، مع التوقّف في كلّ مرّة لتقبيل أو لمس الحجر الأسود، الموجود على بُعد أربعين متراً عن الأرض في الزاوية الشرقية. لكن ليست المساجدُ والمحاريب وحدها تتوجّه نحو القبلة بل ومعها جميع المُصلين يولّون وجوههم إليها وكذلك المُحتضَر وإليها توجّه القبور أيضاً، وحين يذبح القصّاب حيواناً عليه أن يوجّه وجهه إليها أيضاً، والذي يقوم بحاجاته في الهواء الطلق عليه ألاّ يوجّه وجهه أو قفاه إليها...

في المحراب كانت تُدوّي الكلمةُ التي يتلقاها المؤمنون في قلوبهم. بجانبه المنبر، المصنوع من الخشب الثمين المرصّع بالصدف والعاج، ومنه كان يوجّه الإمامُ الصلوات ويقرأ الكتابَ أو يلقي العِظةَ. العظة التي لم يكن من الضروري أن تكون دائماً دينيةً ـ فالمسجد أكثر بكثيرٍ من مكان للصلاة ـ لأنّ الإسلام يدمجُ الدينَ بالحياة، يدخله فيها أو بالعكس ويعتبر أنّ الله ملك الملوك الحقيقيّ. من هنا كان أن قامت سيرُ الشعوب في المساجد. ففي مسجدي الكبير كانت تجد صداها بيعة سلاطيني العادية ومباركة الرايات ساعة القيام بحملات الهجوم أو الدفاع، وقراءة البلاغات الرسمية التي تتطلّب الإبلاغ بها، قراءة البلاغات المهمّة والأخبار التي تهمّ الأمّة كاملة، وكذلك تعيين الحكّام وإقرار الضرائب أو إلغاؤها... كلّ ما كان يؤثّرُ على الأمّةِ كان يجب أن يُعلن من المسجد. وهذا ما يُضفي عليه جوَّ بيت الأسرة، الأسرة الكبيرة المكوّنة من كلّ المؤمنين الذين يجب أن يضعوا مصلحة الجماعةِ

ومصيرها فوق المصير والمصلحة الشخصيين. ومن المآذن كانوا يدعون ضدّ ظلم الأقوياء كما نادوا ضدّ غلمةِ أبي الحسن المفرطة وضدّ شحّ زوجته ثريّا؛ كذلك نادوا لسوء حظّي ضدّ أبي عبد الله الصغير وعمّه الزغل خلال الحروب الأهلية التي مزّقتني.

لم يكن يوجد في مسجدي الكبير مقصورة تفصل منطقة الإمام والأمير عن بقيّة المسجدِ بحاجز من الخشب أو الحديد، حيث كان يتجمّع المؤمنون لحمايتهما أيّام الثورات. وذلك كان السببُ في اغتيال أحد سلاطينيَ المُفضَّلين، يوسف الأوّل، في آخر سجدة من صلاة عيد الفطر. حدث له ما حدث للخليفة عمر حين كان يُصلّي في مسجدِ المدينةِ، أو عبد العزيز حين كان يُصلّي في إشبيليةَ. ومع ذلك فإنّ ابن خلدون الذي كان يُعارض تماماً مظاهر التمايز الاجتماعي، عزا إقامة المقصورات إلى أيّام الخيلاء التي تُدرك فيها الإمبراطوريةُ أوج قوّتها، فيسود الرفاه ومعه الشواهد التي تساهم بالتفاخر بالسيادة.

في هذا الفضاء الصوفي حيث يختلط النورُ الخارجي ـ الزاهي عند الظهيرة والأشهب عند الفجر والضارب إلى الصفرة عند الغروب ـ أو ظلمةُ الليل بلهب الشمعدانات المرتعشة، مضفياً على الأشكال مظاهر غامضة ومماثلة. في هذا الفضاء ذاته كان يتمدّد السلطانُ نفسه على سجادة الصلاةِ خاشعاً أمام القوّة الحقيقية، زاهداً من حاشيته وثرواته. في هذا الفضاء كان باستطاعة أيّ شخصٍ أن يصبح إماماً يؤمّ الناسَ بالصلاة، ولم تكن المعادن الثمينة تفيد في شيء غير أنها تحسّن من التذلّل أمام خالقها؛ ولا تعني أكثرُ المقرنصات تعقيداً وأكثر التوريقات توشيةً أكثر من أنّها خربشة أمام مجده؛ وترضى نفوس مؤمني الأمّة في الماضي وفي الحاضر وفي المستقبل.

كان الجميع يتهيّؤون ظهيرةَ أيّام الجمعة للصلاة جماعةً. وكان أغنى الناس وأفقرهم ومن لم يكون لا هذا ولا ذاك يهرعون من الأحياء والأرباض بأفضل ملابسهم إلى المسجد الكبير. يخرجون قبل وقت كافٍ من بدء النداء للصلاة من بيوتهم، كي يرى بعضهم

بعضاً، ويتبادلوا الآراء ويتحدّثوا بأخبار وأحداث الأسبوع. يأتون ممسكين بأيدي أبنائهم، كي يعلموهم الخطوات الأولى من الدين البسيط والنقيّ: سنّة الصدقة، فريضة الصلاة والوضوء والحجّ إلى سرّةِ العالم: مكّة. وكان كلّ واحد يعلّم ما يعنيه له الإسلامُ على طريقته ـ ويُقر به أمام نفسه ـ : نكران الذات، الخشوع لله وفعل هذا الخشوع. الإسلام هو اسم دعوة النبيّ؛ من هنا جاء المعنى المزدوج للكلمة، إيثاراً خاشعاً وفناءً بين يدي الله وديانةً إلزامية؛ من هنا كان أنّ كلا المعنيين يختلطان بودّية. بعدها يشرعون بتعليمهم ما راحوا يتعلّمونه هم أنفسهم، وهو أنّ الإسلام لم يتمّ تصوّره على أنّه خضوع سلبيّ لله، ولا إيماناً لا يترجم إلى أفعال، بل انتظاماً في مشيئة الله التي يُعبّر عنها بشكل محدّد وإيجابي من خلال الالتزام بتطبيق مقاصده على المؤمن نفسه وعلى كلّ مخلوقاته. مثل مكعّب الفسيفساء الذي يأخذ مكانه بتواضع، صغيراً يكاد لا يرى، لكنّه يُشكّل جزءاً من كلّ، من تصميم، من مشهدٍ، من تقاسيم وجهٍ، ربّما لا يُدرك ذلك نظراً لصغره، لكنهّ يقبل دون نقاش ويشارك مساهماً بنفسه. تلك هي العلاقة التي تقوم بين خضوع المؤمن وجهده في تجسيد المشيئة الإلهية والشريعة في مجريات الحياة اليومية.

كانت الأسر تقترب ملتحمة حتى ينفرط عقدها بالقربِ من المسجد فيذهب الرجالُ مع الرجال والنساءُ مع النساء. قليلات منهنّ من كنّ يذهبن محجّباتِ الوجه وأقلّ منهنّ من لم يكنّ يتفاخرن بثروتهنّ من الخلاخل والأساور والمجوهرات والأوشحة والملابس الرقيقة والثمينة. إذا كنّ يعتنين بأنفسهنّ ويتزيّن للذهاب إلى السوق فقد كان من الأحرى بهنّ أن يتزيّنّ أكثر للذهاب إلى صلاة الجمعة، التي يحضرها عادة جميع من لهم أهميّة في المدينة. كانوا يدخلون صحن الميضأة أفواجاً، ليلتقوا هناك بحشدٍ يبحث عن مكان يترك فيه أحذيته، التي يخلعها مسبقاً ويحملها في أيديه. كانت النساء يُغطين شعورهنّ ووجوههنّ وأكتافهنّ وطيفهنّ احتراماً للمناسبة وللمعبد في آنٍ معاً. وما إن يتركن نعالهنّ وبابوجاتهنّ أو صنادلهنّ حتى يقتربن صفوفاً من مواسير يتدفّق منها الماءُ للطهارة. لم

يكونوا دائماً يحافظون هناك على الرصانة والصمت. فأبنائي الغرناطيون يهوون النقاش والكلام بحرارة ويدافعون بحماس عمّا يعتقدون أنّه حقّهم. ولهذا كانوا يمضون في الدخول إلى المسجد، منفصلين حسب الجنس وضمن الإناث تنفصل الوصيفاتُ ويتوجهون جميعاً بوجوههم إلى الجدار الجنوبي، بانتظار أن يؤمَّ الأميرُ، إذا كان في المدينة، الصلاةَ، ويكون الدليل والمثال في الورع والتقوى. صوته الذي تُضخّمه القببُ كان يهبط عبر الأعمدةِ كي ينتشر بين الشعب وكانت الكلمات الشعائرية تنطق بصوت خافت أو مرتفع حسب ما هو متفق عليه. وكانت الحشود تكرّر السلام نحو اليمين ونحو اليسار وحسب حركات الصلاة؛ يفتحون أيديهم نحو الأعلى، يركعون. ليس عبثاً أن النبيَّ قال الجميع عند الله سواسية وأن الأمّة هي الوحيدة التي تدخل بينه وبين المؤمن. وهذا لأنّ كلَّ مؤمنٍ يشكّل جزءاً جوهرياً منها، وهي ليست إلّا الكلّ، وقوتها المشتركة يجب أن تتشرب مثل الرائحة اليوميَّ من حياة كلّ فردٍ، مهما كانت هذه الحياة: بدءاً من حياة المهني الرتيبة، التي تكرّر مرّة بعد أخرى ويوماً بعد يوم الحركات ذاتها، وحتى أبّهة الأعيان الذين يشربون في كأس من ذهب. لا إله إلّا الله: تلك هي الحقيقة العليا، إثبات الإيمان الذي يرتكز إليه كلّ ما هو عابر، الثروة الزائلة، الحرب والسلام: «لا إله إلّا الله...».

وبعد انتهاء الصلاة، كان يعودُ كلّ واحد في اللحظة التي يأخذ فيها حذاءه ليستعيد شخصيته ذاتها، صغيرةً كانت أم عظيمة، بارزة أم متواضعة. يبتعد الصنائعيون وصغار التجار، يبتعد الفلاحون الموجودون في المدينة عرضاً ونساؤهم جميعاً، كي يفسحوا الطريقَ أوّلاً للسادة الكبار: للسلطان وموكِب وزرائه، ثمّ لأمناء السرّ والمستشارين والنبلاء المعروفين إلى هذا الحد أو ذاك، ثم للأثرياء. كان الناس يعودون، تحت السماوات المتلبدة أو الصافية، الفيروزية أو اللؤلؤية، إلى ما كانوا عليه، مختلفين من جديد بعضهم عن بعض، ليشغلوا المكان الذي لهم في الجماعة. بعضهم كان يستغلّ العيدَ، فيتأخّر على ضفّة نهر دارة، وآخرون يعبرون الجسرَ

الجديد؛ يهيمون في أزقّة الضفة المقابلة: جميعهم يطلقون نظرةً طويلة، إلى هذا الحدّ أو ذاك، إلى الحمراء (التي كانت تطلّ بأبراجها الحمراء منتصبةً مختالة، برّاقة وجسورة على خلفية السماء)، إلى المجرى الذي كان الشعب يتناثر بجانبه... والنهر، دون أن يُفكّر به أحد يتحوّل بدوره إلى رمزٍ آخر من رموز الجماعة: ماء يجري في مجرى مشترك للجميع، بين مواقع مختلفة ومظاهر متباينة، بين الشرود والتجاهل.

كان التجّار الذين يشغلون أقرب المحلات إلى المسجد قد نظّفوا محيطَه بعناية فائقة في ذلك الصباح. سُحبت الدواب ونظّفت الأرض بدلاء الماء وفركت المصاطبُ ولُمّع بلاط وحجارة الأرض. والآن يذهب كثير من الرجال والنساء الذين حضروا الصلاةَ إلى الأسواق القريبة، التي يعرض فيها فلاّحو المرج (الغوطة) فواكه الموسم، مستعدين لبيعها أو مبادلتها بمنتجات المدينة التي يفتقرون إليها. في الصيف كانت الحشود تتأخّر تحت التظليلات التي تُغطي الشوارع المجاورة للقيسيرية(*) والسقاطين وتمنحها بظلها لون الزعفران، مؤخرين بخطواتهم البطيئة عودتهم إلى أحيائهم ودروبهم، بينما يُعلّقون على ملابس هذا الشخص المعروف أو ذاك، على هذه الزوجة الجديدة أو تلك الأرملة الحديثة، على أحداثَ هذه الأسرة أو تلك، أو يُحاولون أن يظهروا مستجدّاتهم المفضلة بأكثر الطرق الممكنة تماسكاً.

الحمامات

كثيرون من الذاهبين إلى الجامع الأكبر كانوا في ذلك الصباح في الحمامات، سواء منها حمامات أحيائهم أو في الحمامات العامّة القريبة من المسجد. لا يكاد يوجد الآن شاهدٌ واحد من بين كلّ

(*) قيسرية أو قيصرية ويغلب استخدام السين بدل الصاد دائماً.

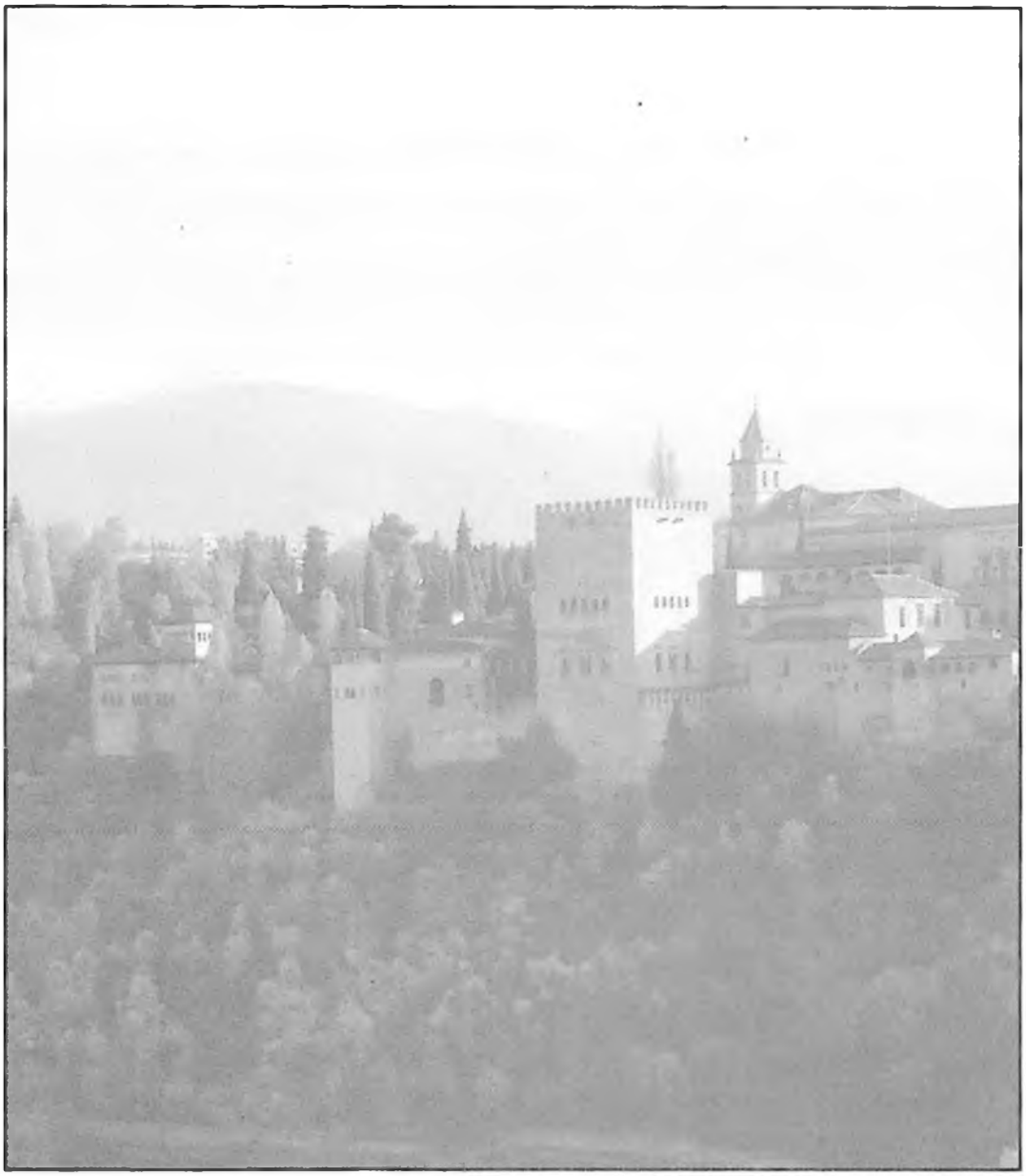

صورة عامة، قصر الحمراء.

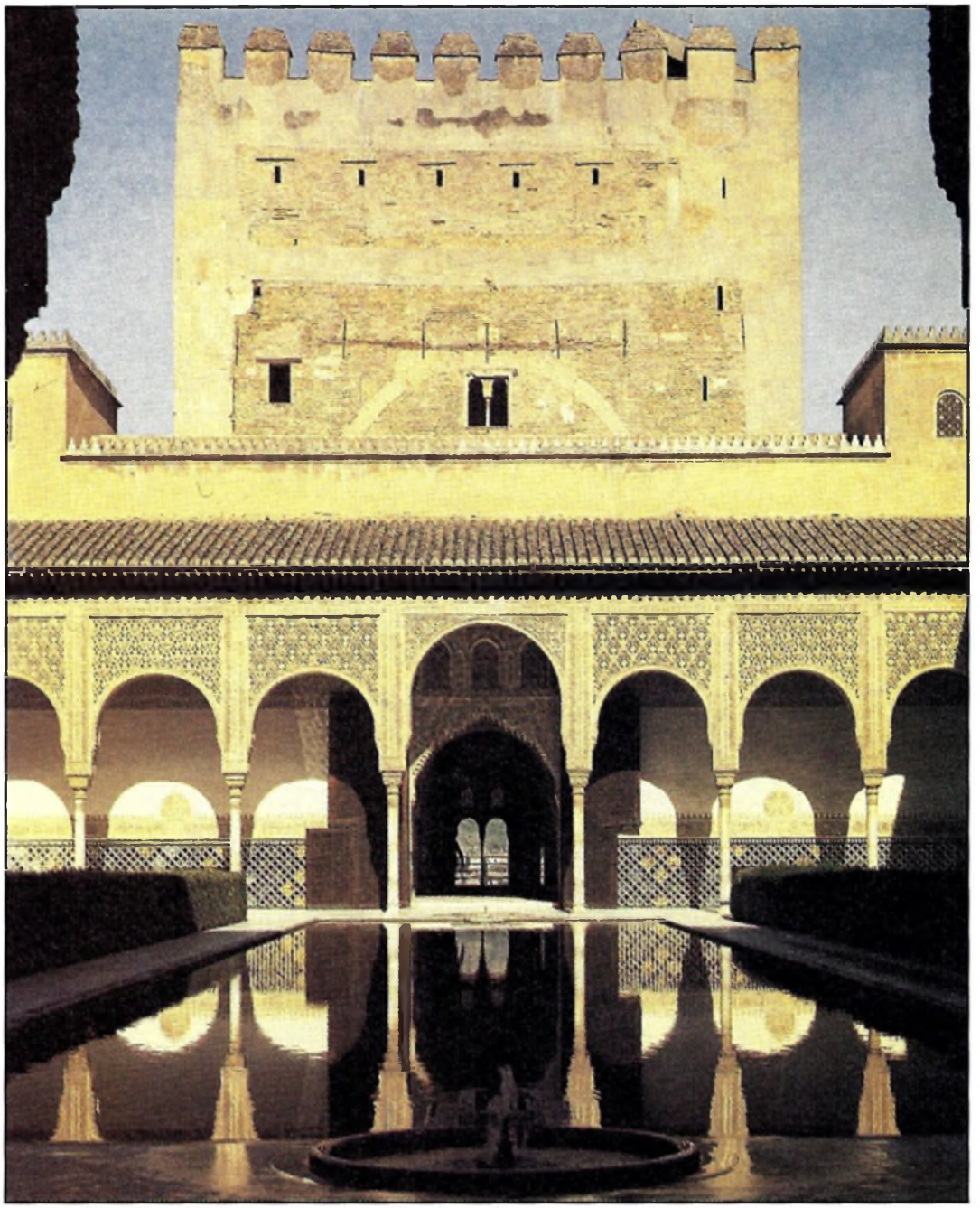

صحن الريحان في قصر الحمراء.

الحمامات التي كانت تُزيِّنني. لم يبق أيّ من تلك التي كانت موجودة بجوار الجامع الكبير. هدَموها كي يشيدوا مقبرة الكاتدرائية الأولى، التي حلّت محلّ الجامع وهدموا هذا وذاك لتوسيع الشوارع التي بدت للنصارى مزعجة وضيّقةً، كما لو أنّ الشوارع هي أكثر من ممرّات بينما هي أفضل، كلّما كانت أكثر ألفة في هذا الجزء من البيت العام، الأكثر صخباً وازدحاماً، الذي هو مدينة الجميع. أتذكّر أنّ حمّام أبي العزّ، في زقاق يخرج من ساحة المدرسة الصغيرة ويصبّ بجانب لوشة أهلِ جنوة وآخر كان مفضّلاً جدّاً عندي بين حي الجماعة والسقاطين والذي كنّا نُسمّيه حمّام الحذّائين، لأنّه لم يكن بعيداً عن حوانيت هؤلاء. كلاهما كان كبيراً وجميلاً ونظيفاً ورغم أنّه كان لديّ حمامات أكبر وأفخم منهما، فقد شعرت دائماً بأنّني أُفَضّلهما، فهما لم يميّزا قط بين الطبقات ولا بين الأسماء. وهذا تفضيل خاص طبعاً ضمن التفضيل العام، الذي شعرت به دائماً تجاه الحمامات. ربّما كانت أكثر ما أشتاق إليه. لم أفهم قط لماذا هذه العدوانية عند النصارى تجاه طريقتنا باحترام الجسد والنظافة والطبيعية. «حتى في كانون الأوّل يستحمّون» كانوا يقولون كما لو أنّ مهمّة الماء الوحيدة هي تبريد الجسم من حرارة الصيف. الماء بالنسبة إلينا نحن الذين نتحدّر من مئات الأجيال المتعطشة للماء، كان متعدّد الأشكال وعجيباً مثل الحياة. كيف سيفهمون أنّ الحماسَ للنظافة، الذي يجري في دمائنا، جعل الفقراء منا ينفقون آخر فلس لديهم على الصابون الذي يغسلون به ثيابهم، قبلَ الخبز. لقد كتب المقري بأنّ الأندلسيين في ذلك الوقت كانوا أكثر خلق الله كلّهم اهتماماً بنظافة ملابسهم وثيابهم وكل ما يلامسهم، وأنّهم كانوا يخجلون من الظهور بملابس غير نظيفة تماماً تلفتُ إليهم الانتباه بشكل كريه.

ليس مستغرباً أن يكون الحمّام، وهو تبني المسلمين لحمامات روما، قد عرف ازدهاراً ملحوظاً في أراضي شبه جزيرة إيبيريا العربية. فبينما كان الأثرياء يتمتّعون بحمامات خاصّة زاهية، مترعة بالفخامة والأبّهة (كان أهل غرناطة يمتدحون الحمامات

الموجودة في قصور الحمراء، ليس حمامات السلطان وحسب بل وحمامات أعضاء السلطة الإدارية والقضائية العليا)، كان الناس متوسّطو ومتواضعو الحال يذهبون إلى الحمامات العامّة، الموجودة في البلدات كما في القرى، التي كانت ـ لستُ بحاجة لتكراره ـ أعزّ شيء عندي. كان الحوريون هم الذين يستأجرون المحلات، التي هي بشكل عام أملاكاً جُبِسَ عليها وتشبه كلّ ما كان موجوداً منها في الغرب الإسلامي. وإن كان عليَّ أن أُوَضِّح دون أن أُتَّهَم بالصلف، أنّ حماماتي امتازت بأناقتها وراحتها، لأنّ البذخ ليس دائماً الطريق إلى الجمال والفعالية. وكان يقوم على خدمتها عدد كبير كفاية من الأشخاص: المدلكون، خدم الحمام الذين يقومون بأعمال مختلفة ولا يرتدون إلّا ما يغطي عورتهم؛ وفي المدخل بائع البيلون لغسل الشعر، ومؤجّر الأدثرة والمناشف، وفي كلّ حمام حلاقون يدفعون لمن يُسمح لهم بممارسة مهنتهم. كلّ شيء منظّم بدقّة بحيث يمنع ـ أو على الأقل يُعيق ـ السرقات أو الفسق المحتمل.

كان الحمام ينفتح على ردهة ليست كبيرة جدّاً ـ أعني أنها كانت صغيرة كفايةً ـ كيلا يتلهّى الحضور هناك فيعيقون الدخول والخروج؛ تقود إلى قاعةٍ يخلعون فيها ملابسهم في حجرات صغيرة يُعلّقونها بعدها في خزانة الثياب. ومن هناك يعبرون إلى القاعة الباردة، حيث تتلألأ بركة تزدان في أحسن حالاتها بتماثيل قديمة ذات مصدر روماني، جيء بها من إيتاليكا أو ماردة. ومن القاعة الباردة يدخلون إلى القاعة الدافئة، كحالة وسط بين تلك والحارّة، وكانت القاعة الحارّة تتألّف من حجرة أولى حيث يترك المستحمون العاملينَ يُصوبنونهم ويدلكونهم في غرفتين مجهّزتين بمصطبتين ـ مقعدين من حجر ـ ومن حجرة ثانية، فيها قِدر يُخرجون منه الماءَ الساخِن جدّاً في دلاء من الخشب تُسمّى القُف. وكانت النارُ تُغذّى بالروث الجاف، الذي شأنه شأن قشر اللوز، مادّة شديدة الاحتراق وكان الماء يُنقَل إلى الحمّام بوساطة دولابٍ ذي قواديس متصلة بصهريجٍ أو جبٍّ أو بوساطة ناعورة نهرية، حسب موضع الحمّام

(كانت هذه الطرق في جرّ المياه جديرة بمعارف العرب المائية، الذين لديهم شعور حدسي بالاستفادة منه واستخدامه لأنّ الماء بالنسبة إليهم أفضل هبة) وفوق قاعة المراجل كان يوجد عادة قاعة أخرى أصغر تقوم بدور المرحاض.

ولتركيز الحرارة والبخار، كانت الحمامات تخلو من النوافذ. كانت الإضاءة الباهتة والمهدِّئة تتمُّ، مثلها مثل التهوية، في ساعات محدّدة، من خلال نجفات مفتوحة في القبب السميكة حيث تُكفتُ ترع القرميد، كما هو الحال في الغرف الرومانية المدفّأة. وكانت هذه الكوى تتخذُ في معظم الأحيان شكلَ النجوم وتُغطّى بالزجاج الملون الذي يزيّن تحت أشعّة الشمس الجدرانَ وبلاط الأرضيّة بنجومٍ زاهية الألوان.

وكانت هذه الحمّامات، بالإضافة إلى أصلها الروماني، وريثة الحمامات الزيرية، لكنّها محسّنة جداً. فقد أُضيف إليها مثلاً في بعض الحالات رواق يزيّن الصالات: رواق خفيّ أحياناً، هذا ما كان موجوداً في حمّامات الحمراء، والمعروف أنّه كان يعزف فيها عازفون عميان الموسيقى كيلا يتسنّى لهم رؤية أجساد نساء الحريم الجميلة. وقد أُضيف في القرن الرابع عشر سبب آخر للراحة: المشلح، الذي طالما تغنّى به شعراء ملوك الطوائف، الانحطاطيون والمرهفون، وتحوّل إلى مقصورة يتعرّون فيها ويرتاحون، محاطة بدكّة تكاد تكون على مستوى البلاط يضعون عليها فرشاً ليتمكّن المستحمّون من الراحة بعد تعب الحمّام والتدليك. المشلح في حمامات الحمراء الملكية بالقرب من فناء الريحان، مزخرف بالخزف، وملاط الجصّ والخشب وقد تحوّل إلى سرادق حقيقيّ يقوم فناؤه المركزي على أعمدة رشيقة تجمّله وفيه بركتان من المرمر، تجري فيهما المياه الحارة والمياه الباردة رقراقةً وفوّاحة وطليقة. في قاعة الأسرّة الوثيرة والناعمة تظهر الكتابات المنقوشة على جدار إحدى البرك والتي تمتدح بإعجاب فضائلَ السلطان يوسف الأوّل، صاحب تلك الحمّامات.

لم يكن صخب الفتية الهائج سحر الحمّام الأقل ـ أو عيبه الأكبر، حسب الكيفية التي يُنظر فيها إليه ـ فالنور الباهت والأجساد شبه العارية لم تكن تفرض احتراماً زائداً عليهم، ولا على الأثرياء الجدد أو حديثي النعمة، أو التجار الذين يستخدِمون الحمّام مكاناً مثالياً لإنهاء صفقاتهم؛ ولا على الجنود المتبجحين، الذين يُثرثِرون بصوت عالٍ حول معاركهم وبطولاتهم المشكوك بها دائماً... وكانت الأصوات تكتسي هناك درجات وأصداء طيفية: ضجيج عبد يصبّ، من حين لآخر، ماء على أرض الحجرة الحارة أو الباردة لإثارة البخار، الذي كان يزيد من ضبابية جوّ الحلم؛ الأصوات المبلّلة التي تدوّي مثل اصطدام طيور عمياء بالجدران والقبب، متطايرة من حجرة إلى أخرى؛ والضربات الجافّة والزلقة للمدلّك، الذي يشتغل بجسد تاجر ضخم ناجح، أو بجسد أرستقراطيّ مرتخ ورخو مثقل بالنبالة والسنين؛ وانزلاق حذاء الخادم الفلّيني الذي يمرُّ مُقَدّماً المناشفَ أو زبدية الزيت المعطّر الذي يجعل التدليك ناعماً... وكلّما ارتفع سعر الحمّامات كلّما أدركت الأصواتُ نوعاً من الإسفنجية، دون أن يُدرك مضمون الأحاديث، بل فقط وقع موسيقاها الهفهافة...

كما يمكن أن نتصوّر، كانت النساء أكثر من يتمتّع بالحمامات. ولا يسمح بالذهاب إليها إلّا مساءً. كثيراً ما كنّ يتناولن العصرونية فيها، ويتواعدن مع صديقاتهنّ، ويتناولن الناس طويلاً، ويُنفّسن عن الأسر المكبوت في البيت وفي الوقت الذي كنّ يروّحن فيه عن أنفسهنّ، كاشفات عن آلامهنّ وأفراحهنّ، لم يكنّ يهملن إصلاح خارجهنّ. وبالفعل فقد كان طاقم الحمام يدلّكهنّ حسب طلبهنّ، ويزيل الشعر عن أجسادهنّ، يمشط شعورهنّ، يطلي عيونهنّ وخدودهنّ، ويُحَني لهنّ شعورهن أو باطن أقدامهنّ وراحة أكفّهن، ويدهنُ أجسادهنّ بالدهون الكثيفة أو زيوت الزباد أو المسك أو العنبر ويبيعهنّ كلّ أنواع منتجات العناية بالبشرة والتجميل، تلك المنتجات التي اعتادت عليها المرأة الغرناطية في تلك الأيّام. إذن لقد كان الحمّام مركز اجتماعٍ وتغيير جوّ للنساء، حيث يمكن أن يجدن

عبوات من مختلف أنواع العطور وأحمر الوجنتين، والطلاءات والمسوح المقوّية للشعر الطويل والكثيف ـ فخر المرأة المسلمة وجوهر جاذبيتها ـ، مواد تجعيد أو تسبيل الشعر، صباغاته، القندورة وكلّ أنواع الزينة، وللصباغ ـ مثل الكوفية والبدولاق المفضض ـ أو للتبييض ـ مثل قشر البيض والكلس ـ أو لنزع الشعر عن المناطق الحميمة التي لم يكن بعيداً عنها الكلس الحي.

ربّما بسبب هذه العادة من الاهتمام بالجسد ومراعاة حاجاته، حيث أنّ ما كان في البداية سطحياً صار ضرورياً في ما بعد، هو ماجعل المسيحيين يكرهون الحمّامات ويجعلونها سبباً للرخاوة والتخنّث بدل التفكير أنّها كانت عادة قديمة ومطلوبة للنظافة وقاعدة شبه دينية. المسيحيون الذين تميّزوا دائماً بازدراء كلّ ما لم يكونوا يدركونه، أغلقوا الحمامات التي شيّدت أيّام أبنائي النصريين منذ البداية، دون أن يطولها ولا حتى العفو بمرور الزمن. ولم يردّوا حتى على الفارس الموريسكي فرانسيسكو نونيثْ مولاي الذي احتجّ على إجراءات الإغلاق المترتبة عن الأمر العالي الصادر عن فيليبّ الثاني، مبيّناً أن الحمّام كان لا غنى عنه لكلّ الصنائعيين الموريسكيين، كالصبّاغين الذين يستخدمون موادّ كثيراً ما تكون ضارّةً. لكنّ مفهوم الحياة ومتع البشر، ورهافة الفرح واحترام الحميمية كان قد رحل للأبد عن أرضي.

التعليم والمعرفة

حين كنتُ أقول إنّ المسجدَ الكبير كان يقع في قلب مدينتي، لم أكن أقولُ ذلك عبثاً. ففي داخله كانت تقوم سدّة المعرفة الرئيسية، إلى أن أسّس يوسف الأوّل، وهذا شرف لي، مدرستي أو جامعتي. فكما أنّ الخطب ـ العظات ـ لم تكن دائماً تدور حول أمور دينية، كذلك الجامعُ الكبير لم يكن يفيد للصلاة فقط. فقد كانت تتعاقبُ بين

فضاءات أروقته الأنيقة الأماكنُ المعدّة لكراسي المعلّمين (أعني كراسي الأساتذة الكبار، لأنّ كراسي معلمي التعليم الابتدائي كانت أقلّ احتراماً ـ وهو ما لم يكن مقتصراً على ذلك الوقت ـ بينما، على العكس منهم، كان أولئك يلقون احتراماً أكبر من الجمهور).

حتى الخِيَع والتجمعات الزارعية كانت لها مدارسها القرآنية. يُعلّم فيها التعليم الأساسي معلّمٌ يدفع له آباءُ التلاميذ، في أماكن متواضعة ـ تغطّي أرضها الحصر ويخرج من نوافذها صوت التلاميذ الرتيب والصاخب والمتكرّر مُرَدِّداً الدرس ـ، وكان هذا التعليم يوجّه أساساً للقرآن، الذي يشمله تقريباً. كانت الغاية منه أن يملك التلاميذُ خطّاً حسناً، وإملاءً جيّداً ويقرؤوا النصّ القرآني بشكل صحيح وموقّع ويعرفوا تحديد الوقفات والنبرات عند الكلام. ابن خلدون الذي أكثرنا من ذكره يجمع في ملاحظة له حول تعليم المتصوّف الرحالة ابن عربي، معلوماتٍ حول نظام التعليم القائم في الأندلس. كانت تسبق قراءةَ الكتاب المنزّل دراسةُ مقاطع من قصائد ورسائل، يقترب التلميذُ بعدها من الحساب، وعليه أن يتعلّم القواعدَ عن ظهر قلب. وكانت هذه الدراسات المتقدّمة تُسهّلُ دراسةَ القرآن، وتشكّل أساساً منطقياً ومسبقاً للانتقال إلى دراسةٍ أكثر تعقيداً. وبالارتكاز إلى هذا أكّد ابن خلدون أنّه لم يعثر على معلّمين مراكشيين لتعليم كتاب سيبويه مثل الأندلسيين الذين كان تلامذتهم متوسطو الاجتهاد يعرفونه معرفةً تامةً. المسألة أن اللغة والشعرَ كانا مادّتين أساسيتين. ولكي يتعلم الأطفالُ الكتابةَ كانوا ينسخون آياتٍ من القرآن الكريم وهو ما لم يكن يتمّ في المشرقِ، ربّما بسبب الاحترام الزائد للنصوص المقدّسة، التي يجب ألا تتعرّض في كلّ لحظة للمحو على ألواح تلامذة المدارس، وهو ما كانوا يعتبرونه كفراً، حسب فهمهم. لا شكّ أن عدداً أكبر من الخطّاطين المتمرّسين كانوا يتحرّكون في المشرق، لكنّ الغالبية في الأندلس ـ وفي مدارسي بخاصّة ـ كانت تكتبُ أفضل منهم. وبينما كانت الأمّية في أوروبا عامّةً كانت الغالبيةُ العظمى من أبنائي تقرأ وتكتب، وقد بلغ

بهم الاجتهادُ والمسؤولية حدّ أنّه كان هناك معلمو مهنٍ، لا يقبلون، مساهمةً منهم في ثقافة شعبهم، فتيةً غير مثقفين في ورشهم حتى ولو لم يكن للكتابة علاقة بمهنهم.

إذا كان هذا هو ما يحدث في الطبقات الشعبية، فماذا سنقول عن طبقات الأمراء في بلاط الحمراء، التي تمتّعت دائماً ببعض المثالية؟ كان مستوى التعليم هناك عالياً جدّاً. وقد وضع مكتبتها ثاني ملوك الأسرة محمّد الفقيه (كأن نقول العالم) وكان معاصراً للملك القشتالي ألفونسو العاشر، الذي اتخذ الاسم نفسه. وحين تمزّقت دولة تلك الخلافة المشرقة انتهى إليها قسم من الكتب التي كانت تعودُ للحكم الثاني، الخليفة القرطبي (وكان فهرسها مؤلّفاً من أربعة وأربعين سجلاً، وكلّ سجلّ مؤلف من خمسين ورقة). كلّف يوسف الأوّل، وهو أحد سلاطيني المحبوبين، رضوانَ بتربية أولاده، وهو شخصية علي أن أشير إليها لاحقاً. تَعلّم من كان سيصبح اسماعيل الثاني اللغةَ اليونانيةَ، وهو أمر لم يكن معهوداً في غرناطة، من عبّاد وهو معتوق من أصلٍ مسيحي وأحد تلامذة ابن الخطيب، وكان قد كلّفه محمّدٌ الخامس، أحد المفضّلين عندي، بتدريب أبنائه الشباب. ابن الخطيب نفسه يروي أنّه منذ حفظه للقرآن وحتى إتقانه النحوَ وانغماسه في اللغة (ربّما لا يملك المرء اللغة حتى تملكه هي) كل شئ تلقّنَه من أفضل معلمي زمانه، المقيمين منهم أو العابرين بجامعي الكبير أو مدرستي. ولكي نعطي مثلاً واحداً فإنّ جدّ المؤلّف المقري علّمه آداباً، وأنّ الحكيم، وهو من أسرة رنديّة وابن وزير محمّد الثالث العظيم (الذي حلّ ابنُ الخطيب نفسه محلّه كرئيس لديوان أمانة السلطان)، أعطاه دروساً في النظم والأدب.

كان التعليم العالي يتمُّ في البداية في الجامع الكبير. وكان تعليماً خاصّاً أيضاً. إذ لم يكن يساهِمُ السلطانُ أو الدولة في نفقاته أو في إدارته، وكان تدخّله الوحيد يقتصر على ضمان الحرّية، رغم أنّ المالكيين، ورجال الدين المتشدّدين المسيطرين بيننا، حاولوا أن

يجعلوا التعليم عقائدياً ومتشدّداً، وهو ما يريده دائماً القيّمون على الأجهزة لمزيد من المنفعة لهذه الأجهزة. وكان يأتي إلى الجامع أساتذةٌ من المشرق والمغرب. مهما كانت المادّة التي يُدرّسونها، فالتعليم كان شفوياً: يقرأ المعلّم في كتاب الأحاديث أو المادة المنوطة به أوّلاً، يجبر بعدها الطلابَ على الإعادةِ ونسخِ وقراءةِ ما ينسخون، وهو ما كان يتطلّب من ذاكرة المعلمين التي كانت تطول حتى علامات الترقيم، أن تكون عجيبة. من بين مشاهير المعلمين الذين أعدّوا الطلاب الغرناطيين أو القادمين إليّ، سواء في الجامع أو الزوايا، أو المصليات، أو حتى في بعض البيوت الخاصّة، برز منذ البداية محمّد بن أحمد الرغوطي، المرسيّ الأصل، الذي بقي في مرسية حتى بعد احتلال ألفونسو العالم لها وقد حقّق مكانة عظيمة كأستاذ في مدرسةٍ أسّسها الملك مفتوحةٍ أمام طلاب الديانات والثقافات الثلاث. حين قرّر أن يستقرّ فيّ أيّام مؤسّس الأسرة المالكة تمتّع بسمعة لم يجارِهِ فيها أحد.

وكان هذا ممكناً بفضل الدأب على المعرفة الذي تميّزت به جميع الطبقات الاجتماعية الأندلسية، رغم أنّ التعليم لم يكن مجانياً ويُجبر طلاّبَ الأسر غير الميسورة على التضحية والعمل والمنافسة كي يُغطوا نفقات تعليمهم. كانوا هم أنفسهم من يختار الموادّ والمعلّمين، وأكثر ما كان شائعاً هو دراسة فرع واحد على يد أستاذين أو ثلاثة. من هنا كان أنّه من أجل دفع نفقات الدراسات التي يمكن أن تمتدّ من خمسة إلى خمسة عشر عاماً، كان على من لا يملك إمكانيات أن يبحثَ عن حام أو نصيرٍ للآداب والعلوم أو أن يعمل ناسخاً للكتب، أو كاتب رسائل ووثائق، أو أن يعمل هو نفسه أستاذاً في دروس قراءةٍ خاصّة، أو خادماً في مسجدِ الحيّ.

وبما أنّه لا يوجد شرّ لا ينطوي على خير يجب أن نضيف الأسباب الجيّدة المعلنة لرفع توعية التعليم ونشكر أيضاً زحف ما سُمّي بحرب الاسترداد الذي أحرزه فِرناندو الثالث، القديس، وحمو

ابنته في أراغون(*) خايم الأوّل الفاتح، وخلفاؤهما المباشرون. فنتيجة لهذا الزحف لجأ عددٌ كبير من العلماء المسلمين إلى مملكتي بحثاً عن الهدوء والسلام للدراسة وأحدثوا آخر نهضة ثقافية إسبانية ـ إسلامية. من هنا كان أن أصبحتُ في نهاية القرن الثالث عشر والرابع عشر مركزَ ثقافة الغرب الإسلامي، خاصّة في اللغة والأدب والتاريخ.

يجب الاعتراف بأنّ شيئاً مماثلاً ومعاصراً جرى في مصر، عند سقوط بغداد في أيدي المغول. وهو ما جعل القاهرة ترثُ صولجان الثقافة البغدادية، هذا الإرث الذي كان لي شرف المشاركة فيه. صحيح أن مركز إشعاع القاهرة أنار بقوّة منطقة أوسع من المنطقة التي أنارها مركزي: أولاً بفضلِ موقعها الجغرافي، ثانياً بفضل الاختلاف السياسي والعسكري بين إمبراطوريتها الكبيرة ومملكتي، المملكة الصغيرة، التابعة لقشتالة؛ وثالثاً لأنّ الحياةَ كانت أغلى في مملكتي نظراً للمبالغ الكبيرة التي كان يحتاجها تحويلُ مناطقي الجبلية إلى أراضٍ قابلة للزراعة وإلى المبالغ الطائلة التي لا تقلّ عنها التي تُخصَّصُ للحرب كما للجزية، وهو ما كان يقود إلى التسديد الذاتي والخاص لتكاليف التعليم، الذي كان من المحال تسديده من بيت المال العام.

ولذلك يستحقّ يوسف الأوّل أكثر من شكرٍ على تأسيسه للمدرسة في العام 1349. ولم يكن القصد من تأسيس تلك المدرسة مشوّشاً: كان استجابةً لشعوره بضرورة حماية الآداب والعلوم وكذلك لرغبته بتأكيد مكانتي ـ ومكانته ـ في العالم الإسلامي، الذي كان يتابع متابعةَ الأسرة الكبيرة ـ وهو ما لم يكن مرحباً به دائماً أو أبداً تقريباً ـ لما يجري في هذه المملكة أو تلك. في جامعة العلوم الدينية هذه، بالمعنى الواسع للكلمة الذي لهذا المصطلح في العالم الإسلامي والذي يدخل في كلّ شيء، التقى طلابٌ، ليس من المملكة النصرية

(*) وترد في النصوص العربية بالجيم أكثر من الغين: أراجون. م.

وحدها، بل ومن مناطق أخرى كثيرة، وكذلك معلمون من المغرب وبلادٍ أبعد منه بكثير، يشدّهم كرم الملك. معروف أنّ ابن زمرك، أحد شعراء الحمراء، كان أحد أوائل طلاّب هذه المدرسة، وكان أساتذته ينتمون إلى جيل كامل من العلماء المقيمين فيّ في تلك المرحلة. يجب أن نذكر مجموعتين من العلماء: الصوفيون وعلماء البلاغة. وقد برز في الأولى المقري، سلف المؤلّف المشهور بهذا الاسم وسفير السلطان المريني، وابن مرزوق المشهور والمتآمر، الذي لجأ إليّ لأنّه وقع في مأزق في مراكش، وأعطى دروساً في التصوّف وعُيّن خطيباً في جامع الحمراء. ومن بين الأدباء وعلماء البلاغة برز شريف الغرناطي المعروف والأساسي ابن الخطيب، أهم أبناء عصره في عددٍ من الميادين بما فيها السياسية، ذلك أنّه شغل منصبَ كبير الوزراء أو رئيس الوزراء. في ذلك الجيل الأوّل كان هناك معلمون من أصل مسيحي واضح ـ ابن لبّ أو لوبّ وابن بيبش أو فيفش ـ، وآخر من أصل بربري مثل الكاتب المراكشي المحاربي الذي درّس فصولاً فائقة التقدير من الأدب.

كانت مدّة الفصول الدراسية متنوعة، وتتعلّق بالموادّ، وبالوقت الذي يمكثه المعلمون وبإمكانيات الطلاب، كان هؤلاء يُكافَؤون على مواظبتهم ومثابرتهم بمنحهم إجازة، وهي نوع من الوثيقة التي تسمح بتدريس هذه المادّة أو تلك، أو بممارسة هذا العمل أو ذاك أو هذه المجموعة من المواد أو تلك. وكان ممكناً الحصول على عددٍ من الإجازات هكذا جاء الوزير ابن الحكيم، المشار إليه، بعدّة إجازات نتيجةَ دراساته في المشرق، والنحوي الشعبي أبو حيان الغرناطي جمع عدداً كبيراً منها.

كما قلتُ، كان الحضور المطلق في المدرسة للمواد الدينية وتفرعاتها. كانت تُدرَّس فيها دروس القرآن السبعة والسنّة، حسب جمعها في المختارات الكلاسيكية الكبيرة. وكانت تُفضّل كتابات مالك، إمام المدينة، كما كان من المنطقيّ في مملكة مالكية تقليدياً

وبشكلٍ عميق (هنا بالذات وضع القاضي أبو بكر ابن عاصم(*) رسالة ذات أهمية بارزة عن هذا المذهب، وبلغت شهرتها شمال أفريقيا وبقيّة الأندلس). كان القانون الإسلامي يُدرّس من خلال رسالة ابن أبي سعيد القيرواني المشهورة وكان ابن سعيد المؤرّخ الحذر والمتشدّد معجباً بتمكّن الأساتذة الغرناطيين من اللغة رغم أنّهم كانوا يتكلّمون العربية هنا بإمالة، كان وقعها لطيفاً وساحراً جدّاً في أذني. أدخل معلمون من جامعتي إصلاحات بارزة في تعليم النحو، وقد وجدت دراسة الآداب الحسنة مكاناً لها في برنامج الدراسة، الذي ضمّ بين مواد أخرى، الشعر الجاهلي، المتنوّعات، المعاجم اللغوية المتخصّصة والغرائب اللغوية. وقد حظيت قصائد شاعر الكوفة المشرقي، المتنبّي بتقدير فائق عند أبنائي وكان على حقّ حين كتب

وما الدهرُ إلّا من رواةِ قصائدي
إذا قلتُ شعراً أصبح الدهرُ مُنشِدا
فسار به من لا يسيرُ مُشمِّراً
وغنّى به من لا يُغنّي مُغرِّدا
أجزني إذا أنشدتُ شعراً
فإنّما بشعري أتاكَ المادحونَ مُرَدَّدَا
ودَعْ كلَّ صوتٍ غيرِ صوتي
فإنّني أنا الطائرُ المحكيُّ والآخرُ الصدى

أخيراً امتدّ التعليم إلى الحساب، بما يخدم تحديد توزيع الإرث.

إلى جانب المكتبات الرسمية، كان هناك هواة جيّدون وجامعو كتب كثيرون: الزبيدي، رجل الآداب الجيّاني لاذ حين احتلّت مدينتُه بمسلميّ وكوّن بقدرته على نسخ الكتب وطلبه من آخرين نسخها له مكتبة رائعة. بنو أشقيلولة ـ أقرباء السلاطين النصريين كما هو

(*) هو أبو بكر ابن عاصم محمّد الأندلسي (توفي 829 هـ ـ 1426 م) قاض مالكي ولد وتوفّي في غرناطة. له «تحفة الحكّام في نكت العقود والأحكام» أو العاصمية في الفقه.

معروف، لكنّ علاقتهم بهم ساءت ـ وضعوا أيديهم عليها. أجبرهم محمّد الثاني، الفقيه على أن يعيدوا القسم الأعظم منها إلى صاحبها الشرعي، رغم أنّه أخذ هو ما كان قد أعيد: وهذا وإن لم يكن عدلاً إلا أنّه لا يمكن ألاّ أن يكون جديراً بالإعجاب، لأنّ الكتبَ لم تكن في أيّ مكان آخر محلّ نزاع. وكانت مكتبتا الوزير ابن الحكيم الرندي وأبي القاسم الكعبي من المكتبات الخاصّة الشهيرة.

رغم الفرص المتاحة لأبنائي للتعلم هنا وإمكانيّة العودة إلى الكتب والمراجع فقد كانوا يقومون عادةً برحلة تقليدية إلى المشرق، لتوسيع معلوماتهم والتواصل مع كبار العلماء، كما لنشر معارفهم الخاصة وتلميع نجمهم في جو العصر الثقافي الأكثر بهاء. كثيرون هم الرحالةُ الغرناطيون الذين منحوني بهاءً وبثّوا اسمي وتركوا آثارهم حتى على أسماء الأماكن فيّ. (كان المقري على حقّ حين تكلّم عن مكان في ضواحيّ، حيث كان المسافرون يودّعون مرافقيهم ويودّعونني: إنّه المكان المذكور: *جور الوداع*، الذي يظهر في مذكّرات أبنائي المكتوبة في المشرق، المصبوغة بالحنين لمدينتهم وأعزّائهم. الزفرات التي أُطلِقت هناك لم تقتصر على أبي عبد الله الصغير في المكان ذاته، كما يظنُّ كثيرٌ من الناس). جميع رحّاليّ عادوا تقريباً بعد أن وسّعوا معارفَهم الأدبيّةَ والإنسانية. وأقول الجميع تقريباً لأنّ السفر كان صعباً وخطيراً، فإذا تمّ السفر بالبحر لم يكن من النادر أن تضيع سفينة في المتوسّط، وإذا تمّ في البرّ فإنّ طرق شمال أفريقية الطويلة والمزعجة كثيراً ما كانت موبوءة بقطّاع الطرق. لذلك كثيراً ما كان المسافرون يحملون معهم التعاويذ المقدّسة تحسّباً لانعدام الأمان. كان هناك قاضٍ هو أبو الحسن النُباهي يعتقد بخرافة أنّه يؤلّف أبياتاً من الشعر على شكل وحجم نعل النبيّ، وكان يؤكّدُ أنّ من يحملها معه يتمتّع بحماية أكيدة. وكان المسافرون والحجّاج يسلمون أمرهم للخضر، سيّدهم، الذي يهديهم سواء السبيل ويبشّرهم بالأعاجيب، وكان يسكن حيث تلتقي المحيطات ومهمّته تعليم الإنسان المصالحة مع الأقاصي.

ورغم الأخطار فإنّ كثيرين قد نفَّذوا مطامحهم ووصلوا إلى مبتغاهم وعادوا محمَّلين بالمعارف التي كانوا يصبُّونها في قاعات المدارس، أو يعلّموها في دمشق والقاهرة، مُغلِين هناك من اسم غرناطة، بدءاً من النحو وحتى القانون ومن التاريخ وحتى الدراسات الصوفية.

أمّا بالنسبة إلى الغرناطيين الذين لم تكن تسمحُ لهم ظروفهم بالانتقال إلى المشرق، فقد كانوا يُحاوِلون الحصول على إجازاتهم سواء عن طريق المراسلة الذي لا ينضب، أو باستغلال وجود العلماء المشرقيين المتكرِّر في الجامعة. هذا ما حدث مثلاً للابن الثاني لابن الخطيب، الذي لم يحالفه الحظّ مثل الابن الأوّل، بالسفر إلى القاهرة.

إذا كانت حركةُ الأشخاص كبيرةً، فأكبر منها كانت حركة الكتب والنشر. فهناك كتب نالت شهرة أكبر من التي نالتها في بلدانها الأصلية، وأخرى أرسلها مؤلِّفوها الغرناطيون وحقّقت شهرة كبيرة في الخارج. ابن الخطيب نفسه أهدى كتاباً له حول الحبّ الإلهي إلى صومعةِ المتصوّفة الغرباء في القاهرة. وقد لاقى ترحاباً حارّاً سواء للأماليح التي يحكيها أو الموضوعات، التي تتفق كثيراً مع ذوق المشرقيين: وهو ما جعله يهديهم أيضاً نسخة من كتابه الشهير «الإحاطة» بمجلداته الثمانية، الذي ثمّنوه أكثر من المغاربة. وكثير من العلماء المصريين وضعوا بعد قراءتهم له توقيعهم على صفحاته دليلاً على إعجابهم به. وقد وصل الأمر بهذا المؤلّف أن صار له ممثّلٌ في مصر، اعتبره وكيلَ أعماله المالية. شيء مماثل حدث لخليفته ابن زمرك، الذي أرسل قصيدة مديح إلى سلطان مصر، فنسخها ابن خلدون، الذي كان يشغلُ وقتذاك منصباً قضائيّاً رفيعاً في مصر، بخطّ مشرقيّ بعد أن وصلت بخطّ مراكشيّ. وهذا ما يُبرهِنُ، إلى جانب الكثير من الرسائل المنتقلة من هذا الجانب إلى ذاك طلباً للكتب الكلاسيكية أو الحديثة، عن تياراتِ الثقافة والتلهف العميق للمعرفة التي كانت تدور حول البحر المتوسّط الإسلامي، وتُساعد، إلى حدّ ما، على كسر عزلة المسلمين المغاربة.

لكن ماذا كان يحدث بالنسبة لبلدان الإسلام الأفريقية؟ لقد كانت غرناطةُ النصرية ـ وأنا لا أقول هذا تبجّحاً منّي بل اعتزازاً بأبنائي ـ معلّمةَ المغرب كلّه. تونس تحت سلطة بني حفص أصبحت مركز إشعاعٍ ثقافي بفضل الأندلسيين، الذين استقرّوا فيها بعد أن أضاعوا بلدهم، ولأنّها كانت تُشكّل جزءاً من الطريق إلى الشرق، نظراً لأنّ الرحالة العلماء كانوا يمكثون هناك فترةً، يشاركون في المسامرات الأدبية والعلمية، وينثرون بذور معارفهم. والتونسيون من جهتهم كانوا يأتون إلى مملكتي متى استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، كثيرون هم العلماء الذين جاؤوني من هناك، خاصّة من يتحدّر منهم من أصول أندلسية. وأشهر مَثَل على ذلك هو ابن خلدون، ذو الأصول الإشبيلية، لكن أيضاً يجب أن نذكر الأسد ذا الأصول القرطبية والعبدري الشاطبّي.

حكم أبو حمّو موسى الثاني تلمسانَ الموجودة تقريباً في الجزائر، بينما كان يحكمني محمّد الخامس. وكان فيلسوفاً وفنّاناً وشاعراً، إضافة إلى أنّه عسكريّ. وقد أقام معي ومع أبنائي علاقة ودّية، وهو أمر ليس بالمستغرب ذلك أنّه وُلِد في غرناطة عام 1323 حين كان أبوه منفيّاً هنا مع أبنائه الأربعة. هنا حصّل بالتالي تعليمَه الأوّل في وقتٍ كان فيه بهائي ساطعاً. حين ذهب ليُتوّجَ في تلمسان كان في التاسعة والعشرين من عمره، واستمرّت عنده عادات وعبق غرناطة. قامت سياسته كلّها على صداقته لي، لكنّ أبنائي لم يستجيبوا إليها دائماً، وعلى عداوته لمراكش، التي وجد فيها تهديداً له: كان آخر ملك مستقل، وقد عمل من مملكته قمراً ثقافياً تابعاً لكوكبنا.

أمّا بالنسبة إلى مراكش، فقد كانت فاس أدنى منّي. فنظام التعليم فيها كان فقيراً وأدنى من نظامي نظراً لأنّه مجرّد نظام حفظيّ؛ لم يكن رعاياها يشعرون بالهمّة الغرناطية المتأصلة للتعلّم والسفر؛ ولم يهتم ملوك بني مرين، ذوي الأصول البدوية، بالحصول

على أمانة دولةٍ رفيعة المستوى. وحين انتبهوا في القرن الرابع عشر لضرر هذا كلّه، حاولوا معالجته: أسّسوا المدارس، بحثوا عن رجال غرناطيين متمرّسين ليقوموا عليها وعلى أمانة الدولة، وتعاظم تأثيرنا أكثر من أيّ وقت مضى (رغم «جنون الطلاب البربر وعدم تهذيبهم في النقاشات والبحوث»، كما يُشير ابن الخطيب بخبث). لقد علّم أبنائي اللغةَ والتصوّفَ واللاهوتَ في مراكش، فكثير من رجال العلوم، أغرتهم عطايا بني مرين الوفيرة، عبروا المضيقَ ليقوموا بنشاطاتهم؛ أطباء من أطبائي قاموا على رأس مستشفياتهم، وكان سفرائي ومبعوثيّ، حسب الأعراف، رجالاً ذوي ذكاء عالٍ وتأهيل علمي وضعوا على سكّة المعرفة كثيراً من الشباب.

أمّا بالنسبة للعمارة، فقد بدأت مع بداية القرن الرابع عشر تبادلات ناجعة. لقد انتقل الإرث الفنّي الإسباني الإسلامي من خلاليَ إلى تونس وترك الأندلسيون بصماتهم على عمارة وزخرفة البيوت الفاخرة. أرسل سلاطيني أمهر صنائعيّ سواء إلى موسى الأوّل أو ابنه، الأمير الفنّان أبو تاشفين، الذي صار يدفع الجزية لمراكش. وقد أرسلوا مع العمّال موادّ لزخرفة أبنية العاصمة. إنّ زُلَيجَ مسجد مشور، يكشف عن مصدرها الغرناطي ومصلّى سيدي ابن الحسن يتباهى بزخارفه ونقوشه، وأزهاره واضحةِ العلاقة بنقوش مسجد الحمراء الذي بناه محمّد الثالث. إن تلوين التوريق وخاصة بالقِرمزي والأزرق الضارب للخضرة والأصفر الذهبي يُظهر القرابة الدموية، مثلها مثل المضفور الهندسي، العامل المشترك بين صروحي وصروحها. أمّا بالنسبة إلى مراكش فإنّ أبنية ملوك فاس شكّلت مجموعة من الأفنية والأروقة والقاعات، الماء فيها عنصر زخرفي، شبيهة تماماً بقصوري. إنّ الغرناطيين الذين لجؤوا إلى هناك في أيام سلطاني ما قبل الأخير، حملوا معهم أشكال وتقنيات الفنّ النصري الذي مزجوه في فاس بتقاليد الموحّدين وبني مرين الباقية.

أردتُ من هذا كلّه أن أقول إنّ نسمةً أخويةً رقيقةً من الفن والمعرفة كانت تخفق على ضفّتي المتوسّط الإسلاميتين، وإن هذه النسمة كنتُ مصدرها.

التجارة والأسواق

لم يكن الجامع الكبير، بصفته مركزاً يروي المدينةَ بالدم الحي، يشغل مكاناً مهيمناً دينياً ومعرفياً وحسب. فإلى جانبه هناك بالفعل المركز التجاري الحقيقيّ، الأوّل والأهم هو الذي كان يؤثّر على جميع الأسواق والبازارات الأخرى التي تنتشر على امتداد مساحة المدينة. حول ساحة الجامع والشوارع الملاصقة لها كانت تُحلُّ وتتمّ الصفقاتُ التجارية الرئيسية.

كان يوجد بملاصقته قرابة خمسين دكّاناً صغيرة، معظمها حوانيت توابل وعطور، يعطّرُ الجوَّ خليطُ روائحِها الذي لا ينسى. هناك أيّام ما أزالُ أشمُّ فيها تلك الرائحة. وهناك كانت محلات العدول أو الكتاب العموميون وممتهني الشهادة أمام المحاكم. وبالقرب منه القيسريّة التي كانت تُمثّلُ الدائرة الأعلى للأعمال التجارية والصناعات اليدوية الأكثر روعة والأغلى ثمناً.

القيسرية كلمة أصلها هلنستي. وهي من كلمة caesarea مشتقة من البيزنطيةKaisareia التي تعني السوق الإمبراطوري أو القيصري. وبالتالي يتعلّق الأمر بمؤسسة حكومية، بخلاف أسواق الحبوب، التي كثيراً ما كانت خاصّة. كانت ملكية القيسريّة تعودُ للسلطان، الذي يتلقّى ضريبة من المنتفعين من الحوانيت والمحلات؛ وكانت تُشكّل مكاناً محروساً، يعملون فيها في ساعاتٍ مُحدّدة، ويمكن الوصول إليها عبر عشرة أبواب؛ وتُباع فيها أغلى المنتجات، كالحرير، الذي بقي بيعه محصوراً فيها، وكانت تضمّ مئتي دكان تقريباً وتصل مساحتها إلى أربعة آلاف وستمئة متراً مربعاً، موزّعة

على شبكة من الشوارع التي كانت هذه المرة منتظمة ومستقيمة جداً، يقوم عليها قائد أو أمين يُعينَ من الحمراء. بالمقابل كانت تُباع في سوق السقاطين القريب الثيابُ المستعملة ـ من هنا جاء اسمه ـ والبياضات ولوازم الخياطة ومنتجات الحَلْفاء. وكان يُتاجَرُ في القيسريّة، إضافة إلى الحرير والفضّة، بأفضل الأقمشة الصوفية، والقطنية، الكتّان، وشعر الماعز. لكنّ الأكيد هو أنّ البضاعة المميّزة هي الحرير؛ فقط في قيسريات غرناطة ومالقة وألمريّة كان من الممكن أن يُشْتَرى في كُبب، التي يوضع عليها ختم العلامة وتُدفعُ الضريبة المُستحَقّة. بالنسبة للسندات المالية كانت هذه المستودعات الثلاثة الوحيدة التي يُسَجّل فيها كلّ الحرير المجموع، وهذا ما كان يعودُ على الأمراء بواحدٍ من أكبر مداخيل المملكة.

في قيسريّتي، كان يتمّ التعامل بالكثير من المواد الأوّلية كي تُصدّر إلى إيطاليا، لكن أيضاً بأنسجة جميلة، بألوان ورسوم لم تُمحَ من ذاكرتي بعد. كانت مثل مدينة مصغّرة: يفتحها الأمينُ أو صاحب السوق ويغلقها؛ ويجهّز الكلاب التي تحرسها ليلاً، ويهتمّ بعناية دقيقة بنظافتها. وكان المُكلّفون باستلام الحرير وحفظه، بيعِهِ وقبضِ الحقوق يُسمّون، سواء كانوا يملكون حوانيت أم لا، المخلّصين. وكان عندي منهم ستّة؛ وحين أنظرُ اليوم إلى المكان الذي كانت تقوم فيه قيسريتي، يبدو لي حتى الآن أنّني أراها. كانت تُغطّي مساحةً، حدّها من جهة الشرق شارع الصِباغ، درب القطا آنذاك، ومن الشمال الجامع الكبير، ومن الجنوب السقّاطين ومن الغرب ساحة باب الرملة، التي لم تكن بالسعة التي هي عليها اليوم. وكانت تحتوي على قسمين: الشرقي، وتشغله بشكلٍ أساسيّ الجمارك ومكاتب المخلّصين، والقسم الغربي الذي كان يمتدُّ نحو الشمال، مليئاً بالحوانيت الصغيرة جدّاً والمنظّمة. وكان الشارع الرئيسيّ ـ شارع القزّازين، طبعاً ـ يفصلُ بين القسمين، ويمتدّ من مسجد السقاطين ويستمرّ جنوباً ليعبر النهر فوق الجسر الجديد، الذي يُسمّونه اليوم حوش الفحم. وكان لهذا الشارع أبواب تُغلق، توجد أمامها مصاطب حجرية مع سلاسل معدنية لمنع مرور الخيّالة.

كانت الحوانيت الصغيرة قليلة العمق جداً، تفصل بينها حواجز، وتُغلق بألواح تتحرّك أفقياً أكثر مما تُغلق بأبواب: كان القسم العلوي يدور حول السّاكِف ويبقى منحنياً إلى الأسفل حين يكون الحانوت مفتوحاً يستند إلى دعامات أو ركائز من الحديد تؤمّن للبائع كما للبضاعة الحمايةَ من الشمس والمطر، أمّا اللوح السفلي الذي كان يتجاوز قليلاً حائط الواجهة فيستخدم كطاولة عرض. وكانت جميع الحوانيت تُطلى بالمغرة. وأرض الشوارع مبلطة بفسيفساء دقيق، تدلّ قوّته ومقاومته بالتأكيد على أهمية التجار الذين يشغلونه. لم يكن يخلو الأمر من ساحات أو أفنيةٍ صغيرة الأبعاد في المفارق والمعابر، وإن كان ما من أحد يجرؤ اليوم على تسمية تلك الأماكن، التي نادراً ما يستطيع أن يجتمع فيها شخصان، بهذا الاسم.

كما كانت هناك غير بعيدةٍ عن الجامع الكبير ـ ما زلت أتكلّم عن أبعاد ومسافات ذلك الوقت ـ أسواق الحبوب الرئيسية، التي كانت بدورها مخازن للبضائع ونُزلاً لأصحابها وأسواقاً تتم فيها عمليات البيع. وكانت عادة ملكية خاصّة، لكنّها كانت في بعض الظروف تعودُ للأمير أو لأشخاص من الأسرة المالكة. (هكذا كان سوق الحبوب الجديد يعود لعائشة أم أبي عبد الله الصغير). وكانت هذه الأسواق تُميّز وتُسمّى بأسماء جنسياتِ أصحابها ـ سوق الجنويين، أو القطلانيين مثلاً ـ أو باختصاصاتها، ففي سوق زيدة كان يُباع الزيتُ والعسلُ والجبن والفواكه المُجفّفة.

كانت الأسواقُ والحوانيت تنبت مثل الفطر تقريباً، أنّى وجدت مكاناً لها. عليّ أن أعترف أنّه لم تكن توجدُ مساحات حرّة كبيرة ولا تكادُ تُلمَح حتى تغزوها التجارة بسعادة. مراكز تجارية، كي نسميها بطريقة من الطرق، سواء كانت كبيرة أو صغيرة الأهمية، بعضها دائم وبعضها موسميّ وأخرى عرضية، موجودة في الساحات أو مناطق التوسّع بجانب مداخل المدينة أو في الأرباض. وكان يأتي إليها أهل الريف بمحصول مواسمهم وحيواناتهم: ما زلتُ أسمعهم، متحمسين وصاخبين سواء في وصولهم أو عودتهم إلى قراهم. خارج باب البيرة كان يُنَظّم سوق رائع مرّة في الأسبوع: وكانت

تسعد المرءَ رؤيةُ الخضار والبقول والفواكه والأزهار، كلّ ألوان الريف وأطيافها التي لا تتكرّر، كل ما ينعش من عبق روائحها الدائمة...

كان هناك سوق خميس، يُقام في ساحة الحوش وكان مزدحماً، مليئاً بالبهجة وبالأشياء غير المنتظرة وسوق آخر عائلي وصغير: سوق باب الطوّابين، حيث كلّ شيء تفوح منه رائحة الطين النظيف الصحية. على الجانب الداخلي من باب البيرة كان هناك واحد من أهم الأسواق وآخر في باب الرملة وآخران عند باب الخزّافين والحصّارين (القشّاشين): كلّ واحد منها يمدّ أهل الحي بحاجاتهم التي يعرفها ويلبيها... إذا ما فكّرت بسوق باب الرايات الصغير على الجانب الأعلى من البيازين فالحنين يجعل العينين تلفتان. وسوق باب مَورور كان يسمى بحق باب النجارين، فرائحة الصنوبر المقطوع للتو، والسنديان وسلخات الزيتون الذهبية، ونشارة الحور البيضاء كانت تجعل الهواء كثيفاً، أمّا رائحة الأرز فكانت تسيطر على كلّ ما عداها... وكان ما إن تظهر فسحة صغيرة، مهما كانت صغيرة، حتى تنتشر الأسواق كالبقلة الحمقاء: في ساحات المدينة وزواياها والأرباض وبجانب جميع المساجد والمرابط والآبار والأفران. كانت تنمو في كلّ مكان ـ ليس بالحجم بل بالعدد ـ الحوانيت الصغيرة، والمحلات التي لا تُصدّق. في الأحياء أو ببساطة في الشوارع، التي لها اسم مهنة، كانت التجارة تتخصّص أيضاً: التوابل ـ التي تضطرّ كثافة (نفاذة) رائحتها المرء لأن يشق له طريقاً كي يستطيع المرور ـ، الحطّابون، الحلاّقون، السرّاجون ـ صناع أسرجة الخيل وليس صنّاع الكراسي، إذ لم يكن هناك كراسٍ ـ إسكافيون من كلّ الأنواع، اللبّانون والدباغون والخزّافون، والصباغون... برائحة أفضل أو أسوأ وبمرور أسهل أو أصعب، كان الجميع سعداء ومسرورين، الجميع يحاولون أن يجعلوا يومهم مفيداً. كان يشغلها الصنائعيون والصناع الذين يملكون هناك ورشهم وحوانيتهم، وكثيراً ما كانت واحدة في المكان والوقت ذاته، وكثيراً ما كانوا بحماية شيخ الحي، حسب عادة

البربر، التي طالما أثّرت ـ قبل أو بعد، من يدري؟ ـ في سجل القديسين المسيحيين. لقد اعتبروا دائماً أنّ تجميع صناع المهنة الواحدة أكثر احتراماً وأماناً ـ وأسهل للحراسة أيضاً ـ حيث يجمع المحتَسِبُ صنّاعَ المهنة الواحدة ولا يتركهم ينتشرون في كلّ أرجاء المدينة. ولهذا فإنّ رصيف الحلاّقين كان، كما يدلّ اسمه، في منطقة بحذاء نهر دارة، وصناعة الأحذية كانت وسط السقاطين، أما ما يتعلّق بالأغذية فكان يفضّل أن تكون في الشريط الضيّق بين حي السقاطين ذاته والنهر. حيث كانت تنتشر ـ أعترفُ أنّها شكل من أشكال المبالغة ـ متاهة من الأزقّة والزوايا الضيقة وتتسع رغم ذلك بصفة دائمة لسوق البهائم والأسماك واللحوم، بينما منتجات لاتحصى تباع هناك، لكن على بسطات مؤقتة. خارج باب الخرّازين وبجانب الطوّابين تماماً كان كلّ الذين يمارسون تلك الصناعات والورش والدكاكين؛ الدباغون كانوا قريبين من جسر فوق نهر دارة، عند خروج النهر من المنطقة المسوّرة التي كانت تحمل اسمه، وفي الوسط المدبغة بين النهر والقيسرية؛ وكانت ساقية الصباغين تصبّ في الضفة وأخيراً سوق السكاكين في أوسع شوارع حي الغُماريين.

بخلاف هذه الأسواق المزدحمة، كانت الحوانيت الدائمة الموزّعة بحرّية أكبر في كلّ مكان، وتُباع فيها بضائع أعلى قيمة بقليل. وتتكوّم تماماً، كما قلنا، حول الجامع الكبير، شاقّة لها مكاناً حيث لا يوجد مكان؛ وكذلك حول المساجد الأخرى وأبواب الأحياء (حُشان) وبجانب الحمامات العامّة. ربّما كانت هذه هي الأغلى والأكثر وفرةً، مع وجود أخرى متنقلة فوق النهر بجانب الحمام فوق ألواح خشبية، وهذا ما يبرهن على ضيق وندرة مناطق البناء وسط المدينة. معظم هذه الدكاكين كان محلات ضيقة ومنخفضة، لكنّها أكبر من بوكٍ وصوان، وكانت في الوقت ذاته مكان عمل يعمل فيه المهني أيّاً كانت مهنته مع عامله أو صانعه، لأنّه لم يكن هناك عادة غير واحد. كانت أبعاد الدكاكين من الصغر بحيث أنّه كي يأخذ غرضاً ما ويقدّمه للمشتري لم يكن بحاجة لأن ينهض. كان النور

قليلاً وسيئاً، ذلك لأنَ الأحياءَ التي توجد فيها معتمةٌ بحدّ ذاتها نظراً لضيقها الشديد. عن هذه الدكاكين يبدو أنّ المستشار بِرو لوبِتْ دِ أيالا يتحدَّثُ حين يقول في مُقفّى القصر:

كانوا يبنون دكاكينهم مظلمة، ولا يمنحونها إلّا قليلاً من النور.

الساحرات يعرضن مِلبينات وبدل الملبينات

الأقمشة البنفسجية، الحمراء ستظهر

عند عد *النقود سيفتحون.*

كانت هذه الدكاكين الصغيرة مستقلة تماماً عن مساكن من يعملون فيها. ربّما كانوا يتناولون طعام غدائهم فيها بل وينامون القيلولة الضرورية، هذا إذا لم يتمدَّدوا تماماً؛ لكن عند هبوط المساء أو الليل، حين تنسحب الشمسُ إلى جحرها في جبال البيرة، ينسحبون هم إلى بيوتهم. لذلك كانت الشوارع المركزية المخصّصة للتجارة والأسواق الدائمة المكوَّنة مثلها مثل القيسرية من تجمّع حوانيت، تبدو مقفرة تماماً منذ حلول الظلام، توكلُ حراستها عامّةً إلى العسس. بعكس ما كان يحدث عند المسيحيين؛ فالصناعات والمتاجر كانت عندهم تشغل الطوابق السفلية من الأبنية - والبيع يكاد يتمّ من النوافذ - بينما يسكن التاجر وأسرته في الطابق العلوي. فالمسلمون كانوا يتفادون اختلاط بيوتهم، مهما كانت صغيرة، بحركة الشارع وعمليات البيع والشراء والعمل المضنية.

كان هناك أيضاً تجارة الجملة، التي تتمُّ في المخازن. وكانت في العادة حكراً على الباعة السماسرة، الذين يتلقون من المصنّعين أو المستوردين الأشياء المصنّعة، ويبيعونها لحسابهم الخاص. وكان شائعاً جدّاً رؤية مشاهد غريبة في الأزقّة حول الفندق: المواطنون الفضوليون والفلاحون المشدوهون، الذين جاؤوا للقيام بمشترياتهم - كانوا مختلفين بعضهم عن بعض في كلّ شيءٍ تقريباً، بحيث لا يمكن لأحد أن يخلطَ بينهم - يشكلون حلقة ليستمعوا إلى عملية البيع التي ينادي عليها وكلاء المدينة بصوت عالٍ. لم تكن

المزايدة تُمارس، كما يمكن أن نُفكّر، فقط على البضائع العرضية، بل على البضائع الجديدة والتي لم تُدشَّن بعد. كان بائعو الجملة يخزنون بضاعتهم في الفندق، حيث تُخزن الحبوب التي يشتريها سماسرةُ الحبوب من الحقل، وحيث تتمّ المزايدة على القمح، المطحون وغير المطحون. أتذكّر أنّه حين تحوّل الفندق إلى نزلٍ أيضاً صار شعبياً أن يُسمّى خاناً، وهي كلمة مستوردة من بلادِ فارس وتتم في فنائه ليلاً أفراحاً واحتفالاتٍ حول النار، أو حول البركة، غير بعيد عن الإسطبلات حيث ترتاح الخيول هناك كان يحكي المسافرون قصصَ رحلاتهم، وكذلك المحتالون والتجار وجميعهم يصبحون واحداً في الضحك والتصفيق والغناء والتمايل على إيقاع الأغنية...

أما بالنسبة لتنظيم المهن ـ فقد كان لكلّ مهنة أمينها الذي يترأسها ـ فالحسبة كانت تهتمّ بها. وهي عبارة عن سجلّ للمهن والأسواق الذي كان من الممكن أن يُساعدنا في معرفة الشعب أكثر من جميع كتب علم الاجتماع. «لم يكن يُسمح ببيع جبن الزبد الطازج لأنّه ليس أكثر من فضالة الشمندور. ولا يُبع الزعفران مكعباتٍ، لأنّه عادة ما يكون مغشوشاً وسيّئاً، بل فتائل مسترسلة... ولا أن يُستخدم زرق الحمام في تجهيز الجلود المستعملة... ويجبُ أن تصنع المسامير مهما كان حجمها بحيث تكون مقاومة، مستقيمةَ الشكل وسميكة الرأس... ولا يسمح ببيع أحمال الحطب إلا وهي على الأرض لا على ظهر الدابّة... كما لم يكن مسموحاً لأيّ بائع جوّال أن يقف تحت أيّة مظلة، ما لم تكن هذه أعلى من رجلٍ على ظهر حصان، كيلا يتعرّض المارّة لخطر أن تُفقأ عيونهم... وأيّ شخص يجب أن يسحب منه دم، يجب أن يجمع في كأس معروفة الحجم، كي تُعرف كمية الدم التي تُسحب منه...» كما كان يظهر في الحسبة الفارق بين المهن النبيلة والمهن الحقيرة، وأين يجب أن تُفتتح، بدءاً من قناني عطر الجامع الكبير، القابلة للغش، التي كانوا يأتون بها إلى رئيس المحتَسِبين، وتجّار الأنسجة في مركز المدينة، وحتى باعة الحليب وباعة الفاكهة والزبدة والبقول. كلّ ذلك كانت تقوم عليه الحِسبة بل

وعلى الأطعمة الجاهزة التي تُباع في الشوارع، مثل مختلف أنواع النقانق والحلوى والمقالي. وكان الأمين يشرّع القوانين المتعلّقة بالحدّادين، الذين يصنعون الحدائد الثقيلةَ للأبواب والصناديق، وكذلك نعال الحيوانات والأدوات والمسامير والسلاسل، وبصناع الجلود، الذين كانوا يصنعون القراء المبطّنة، والسرّاجين وصنّاع الأحزمة وصنّاع السختيان، والحذّائين، الذين كانوا يواجهون منافسة صنّاع الصنادل التي يصنعون نعلها من الفلين (القرق) التي كان الشعب خلال الطقس الحسن مشغوفاً بها ومنافسة صنّاع نعال الخيش ومصلحي الأحذية، الذين كان لديهم لفيف مزدحم من الزبائن، وصنّاع الحصر الذين كانوا يستخدمون الحلفاء، وسعف النخل أو الخيزران ويصممون أمام أعين الزبائن السلالَ والحصرَ والمكانس والغرابيل... بعض المهن ونظراً لضررها بالصحّة وسوء رائحة موادّها، أو لأنّها تتطلّب مساحات كبيرة من المحال توافرها في المدينة، كانت تجد نفسها مجبرة على التواجد في أسواق خارج السور، وهي الدباغة، ومعاصر الزيت وصناعة الخزف والنسيج بل وتحضير التربة الصابونية. كما كانت الحِسبة تنظم نشاطاً مميّزاً جدّاً لاقى ازدهاراً كبيراً: تكرير قصب السكر في البيوت، باتباع تقنية تنقية عجيبة، لم تبطل حتى اليوم كلّياً. ثم أنّه كان هناك أخيراً المهن التي تُعتبر دنيئة، وتوكل عادة للأسرى: السقّاؤون، والحمّالون وتجار الدواب الذين كانوا يشتغلون ببيع البهائم... كلّ صخب وفورانِ المدينة التي كنتها، لا أدري ما إذا كنتُ أكثر نبضاً مما أنا جميلة، كان يَظهر في الحِسبة.

الأحياء والأسوار

كان معنى كلمة حي ـ حارة ـ في عربيّتي واسعاً جدّاً. لم يطلق هذا الاسم على مناطق واسعة إلى هذا الحد أو ذاك من المدينة وحسب، بل وعلى أماكن غريبة، قرى، ضياع وضياع صغيرة. لقد احتُفِظَ زمناً طويلاً وحتى اليوم بالأسماء التي كانت لأحيائي في

العصر الذي أتكلّم عنه. البوكاروافاسين، العشار، المنصورة، القرشة والشريعة والمورور، وحارة القصبة، حارة زناتة، الكعبة، القرية، والبستان في البيازين، وحارة باب المزدة (باب البرص)، وحارة (ربض) غمارة، وحارة الجامع...

كانت الأحياء تشكّل كامل حياتي. وكامل جسدي: المدينة والأرباض تتشكّل من تجمّع أحياء غير متساوية المساحة، أحياناً لم تكن أكبر من شارع يوجد في طرفيه بابان يُغلقان ليلاً. والربض كان حيّاً أو عدّة أحياء، خارج المركز الرئيسي للمدينة؛ لكنّه اسم أُطلق مع مرور الزمن على أحياء داخل السور أيضاً. هذا وذاك حين كان واسعاً كفايةً شكّل مُدَيْنة منظّمة حول المسجد أو المساجد، له أسواقه وحوانيته ومخازن حبوبه وحماماته، ورباطاته، وآباره، وأفرانه. كان سكّانُ كلّ حيٍّ خلفَ الأسوار يعيشون باستقلالية؛ وفي بعض المناسبات كان الحي الملاصق في أيدي الأعداء. يكفي أن نذكر أنّ أبا عبد الله الصغير وعمّه الزغل سكنا ـ حُكمان ـ على التوالي في البيازين وفي غرناطة حين كنت ممزّقة جدّاً. حتى ولو لم يكن البيازين مثلاً صالحاً، لأنّه كان دائماً حيّاً مشاغباً ـ ومحبوباً لديّ ـ وله دائماً إدارته الخاصّة، وقضاته، وحكّامه الخاصون.

كيف ولماذا كان يجتمعُ الناسُ في حاراتٍ وأرباض؟ كانوا يجتمعون كما في كلّ مدينة، حسب معتقداتهم الدينية: حارات اليهود والمستعربين(*)؛ حسب أصلهم، غمارة أو زناتة، أو حسب تجارتهم وصناعتهم أو أعمالهم: الطرّازون، النسّاجون والصقّارون (البيّازون)، والخزّافون، وحسب المرض: البرص، أو توجّهاتهم؛ وقدمهم، ووضعهم: حي المنحدر ـ العقبة ـ أو فحص اللوز ـ ربوة اللوز ـ حسب الباب أو البناء الأقرب: حي الرملة ـ باب الرملة ـ، أو المكان في الضواحي، حيث كان المسجى أو السارية. بل وكان هناك حارات بأسماء خاصّة، كما هو حال ربضيّ: ربض باديس وأبي العاصي.

(*) ويُطلق عليهم في النصوص التاريخية العربية اسم المُعاهدين.

قلتُ إنّ الأرباض كانت تقعُ عادةً خارجَ السور الأصلي للمركز الحضري. لكن في مراهقتي، أعني في القرنين الثاني عشر والثالث عشر أُضيفت إليّ أعضاء عدّة جديدة: لا أكثر ولا أقل من البيازين والأرباض الجنوبية، ربض نجد، وربض لمّة والفخّاريين. ثمّ رحتُ أنمو في كلّ الاتجاهات باستثناء الشرق، نظراً لوعورة الأرض في هذا الاتجاه. ما إن تمكّن مني مؤسّسُ الأسرة المالكة، محمّد الأوّل، حتى سارع لتعزيز الدفاعات الخارجية لما كان قد بناه الزيريون في القرن الحادي عشر، وتابع ابنه الفقيه هذا العملَ، وفي نهاية القرن الثالث عشر تمّ توسيع السور القديم، بحيث أنّه كان ينطلق في النصف الثاني من القرن الرابع عشر سورٌ مستمر من مدينة الحمراء العالية لينحرف عن وادي السبيكة ويصل إلى الأبراج الحمراء، ثم يمضي على امتداد ما أصبح يعرف باسم حوش الأسرى، نظراً لسجون النصارى الموجودة هناك، ثم يهبط حتى ضفاف نهر شنيل ليلتقي بربض لمة. بعدها كان السور ينفصل عن النهر ويمضي نحو الشمال ويستمرّ بموازاة ذلك الحيّ حتى باب الطوّابين. وبين هذا وباب البيرة كان يتداخلُ هذا الجزء من السور مع سور القرن الحادي عشر ليستمرّ حتى ربض السارية أو الشارع الذي كان يعلوه ويصلُ عبر باب فحص اللوز إلى قمّة تلّ البيّازين. ويهبط أخيراً بشكلٍ عموديّ إلى مجرى نهر دارة ويتابع على الضّفة اليسرى حتى باب الطبول، حيث كان يلتقي مع الحمراء. كما كان هناك سور ثانوي يحمي الجانب الجنوبي من السبيكة، ينتهي أمام جنّة العريف، إلى الأعلى من باب الماء. وكان يُحتفظ داخل هذا النظام من التعزيزات بسور القرن الحادي عشر، الذي كان يحمي الأحياء القديمة، حي الزيريين والقصبة القديمة وحي اليهود. وكان يوجدُ على امتداد هذه الأسوار، حسب المرحلة، أكثر من ستة وعشرين باباً؛ بعضها احتفظ باسمه وبعضها الآخر لم يبق منه غير الذكرى التي تخصّني ولا تُمحى.

كانت أسواري من الدبش. وكان سور البيازين ستارة سميكة من الملاط ـ الآن، آخ، مقشورة ـ محميّة بين مسافة وأخرى بالأبراج

المربّعة. وكان لسور غرناطة، كما يُشاهد من جهة الغرب، حصن وبروج برّانية متصلة بالدرب عبر أقواس مرتفعة، يمرّ من تحتها طريق مسقوف، محصور بين جدار الحصن الخارجي والسور. وهذا وذاك، جميعها تحميني وتزيّنني في آنٍ معاً، بعمارتها الجميلة والنبيلة، ذات الأحجام البسيطة الملتحمة مثلي تماماً بتضاريس الأرض والمشهد.

المقابر

كانت المقابر خارج الأسوار، دون أيّ سياج، بجانب الطرق الريفية، التي تقود إلى أبواب السور الرئيسية. في المدن النصرانية كان الأحياء والأموات يتكدّسون داخل الأسوار ويرقد الموتى حول الأبرشيات. ليس هذا ما كان يحدث في الإسلام. فتأسيس المقبرة يشكّل عملاً ورعاً ومحبّباً عند العلي القدير، فثواب المؤسّس في الحياة الآخرة مثل ثواب من يبني مسجداً أو يحفر بئراً أو يرمّم جسراً، أي، ثواب المحسن في الأمّة. كان ريع المقابر، كما من السهل أن ندرك، يعود إلى الأوقاف أو أموال الحبس. وكان القاضي والمحتسِب مسؤولاً عن العناية بها: كان عليهما أن يهدما ما بُني تجاوزاً في حرمها ويمنعوا ارتكاب الأعمال غير الأخلاقية أو غير اللائقة فيها. وتعود تسمياتها للمكان الذي هي فيه، أو لمؤسّسها أو لأحد الأتقياء الصالحين أو الأشخاص الورعين المقبورين فيها. وكان هؤلاء يُعتبرون شفعاء أو حماة أقرب الأبواب إليها، والناسُ يطلبون أن يُقبروا حولهم للاستفادة من شفاعتهم الروحية.

كانت مقبرتي الرئيسية تقع على مقربةٍ من باب البيرة؛ وهي كبيرة ومنبسطة وأحد جوانبها مزروع بالزيتون العجوز جدّاً ذي اللون الفضّيّ. وكان هناك أخرى للغرباء في الربض بجانب النهر، أمام ربض لمّة. بالإضافة إلى المقابر العامّة، المنتشرة خارج السور، كان هناك أخرى أصغر، بعضها داخل الأسوار وأخرى

بعيدة جدّاً. ووريَ المؤسّسُ وخلفاؤه الأوائل في مقبرة السبيكة، التي كانت تشغل مصطبة في القسم العلوي إلى جنوب سور الحمراء وخارجه، ثم في حدائقها. وقد بُني مصلّى جنائزيّ رائع، هو الروضة ـ التي تعني بالضبط حديقة ومقبرة ـ حيث ارتاح سلاطيني إلى أن نقل سلطاني الأخيرُ أبو عبد الله الصغير رفاتهم إلى مندوجر.

بل وكان هناك مصليات حتى في قلب البرّية، وهي دائماً مربعة الشكل مفتوحة في واحد أو اثنين من جدرانها، مسقوفة إمّا بقبّة أو بسقالة من الخشب، حيث يُوجد أحد النساك أو المحترمين، بدأ يشدّ إليه قبوراً أخرى مدفوعين بقداسته. الشيء ذاته كان يحدث في الصوامع أو الرباطات داخل أو خارج أسواري، حيث كان يرتاح الناسك ذاته أو المرابط الذي شهرها في حياته. وهكذا كانت هذه وتلك تفسح المجال لوجود الزوايا: البناء، أو مجموعة الأبنية المشادة حول القبر، التي تُخصّص لتجمع من المرابطين أو مدرسة قرآنية أو نزلٍ مجانيّ مع مقبرة ملحقة، لمن يريدون أن يرتاحوا هناك بطريقة نهائية.

كانت مقابري متقشّفة. سبق وقلتُ إنّ الجثمان كان يُقبر على جنبه ـ وهو ما كان يسمح بجعل الحفر ضيقة جدّاً والاستفادة من الأرض بشكل أفضل ـ، الرأس باتجاه الزوال والوجه باتجاه مكّة. حجر خشن غير مصقول يدلّ على قبور البسطاء، أمّا من لهم مكانة أعلى فيُعلّمون قبورهم بلوحين مستطيلين من الحجر أو المرمر أو بحصيرين حلزونيين من الخزف المزجّج، أو بشاهدة عليها كتابة مقتضبة. بعد جنازة الشخص المحترم أو العزيز ـ وكان هذا دائماً أكبر دليل على وجود القبر ـ كان الناس يذهبون للصلاة عليه يوم الجمعة. في مناسبات الأعياد الكبيرة، عند الخروج من الجامع، كان الأحياءُ يزورون الموتى، ينتشرون في المدينة بحثاً عن الباب الذي يؤدّي بهم إلى المقبرة التي يبحثون عنها. هل عليّ أن أقول إنّ الأحياء كانوا يتصرّفون بكثير من الجلبة؟ كون المرء ما يزال حيّاً يُعتَبَرُ عيداً، خاصّة إذا ما قورن مع من لم يعد كذلك. كان الشباب

ينظر بعضُهم إلى بعضٍ، والأرملة لا تزدري نظرة رجلٍ ربّما كان أرملاً أيضاً، أو مجرّد راغب. أرامل أخريات أكثر شباباً، ربّما أرامل فتيةٍ سقطوا في الغارات الأخيرة، يمضين وهنّ يحملن على كواهلهنّ أرواحهنّ وأطفالهنّ الأيتام، الذين تركهم الموت بين أذرعهنّ؛ الأمهات البدينات والمتعثرات يسرن وسط مجموع الأسرة، وما يزال يخرج من صدورهنّ الصراخ الذي صرخن به حين أخبروهن بالخبر المشؤوم... كان الزبائن الذين يؤمون أماكن الراحة الأبدية هذه متنوّعين ومختلفين، الذين كانوا ينصبون خياماً كي يتمكّن من كان محزوناً حقّاً من أن يروّح عن نفسه بعيداً عن نظرات الفضوليين والفضول الوقح. ومع ذلك وللفاجعة ليس كلّ من كان يختبئ تحت خيش الخيمة فعل ذلك كي يُخفي تقواه أو ألمه. كثير من الرجال من أعمار مختلفة كانوا يستخدمون مشاعر الموت الناعوظية في إغواء الأرامل أو العذراوات بدعوتهم إلى العصرونيات والمرطبات بل وإلى جرعات النبيذ. وكان هناك من حوّل الذهاب إلى هناك أيّام الجمعة والأعياد إلى مهنة خبيثة. شرذمة من باعة اللقيمات اللذيذة، والهدايا والخبيص كانت تروح وتغدو بين القبور. ومعهم المنجّمون والشحاذون والموسيقيون ورواة قصص الموت التي تقشعرّ لها الأبدان: كانت الحياة ترافق الحياةَ إلى مملكة ما وراء الموت... وخلال ذلك يقوم بعض الأقرباء بتنظيف قبور موتاهم وينثرون الريحان فوقها، بينما آخرون يتمادون معتبرين أن الجوّ الحميم والسري للمقبرة مناسبٌ لنزعتهم التي لم تكن روحيّة على الإطلاق.

ومع ذلك تأخّر التدنيس الحقيقيُ حتى وقع. استُغِلّت حجارةُ القبور للأبنية الدينية الجديدة مع دخولِ النصارى، مثلاً مُنِحَ الرهبان الجيرونيميون آجرّ وحجارة مقبرة باب البيرة الكبيرة؛ وحوّلت المقابر إلى بيادر للمدينة واستخدمت الموادّ المخصّصة لراحة الموتى لبناء العديد من الأبرشيات أو لتعزيز جدران بعض المساكن الملكية. كثير من الشاهدات التي كانت تُمجّد الله وتطلب رحمته لمن

ووري التراب تحتها انتقلت لتصبح أحجاراً مجهولة في المعابد النصرانية. من حسن الحظّ أن الله فعلاً كان أكبر من قلوبنا.

مدينة الأحياء: البيوت والشوارع والساحات

لكن كيف وأين يعيش الأحياءُ؟ لقد كان لفصل وإغلاق الحارات والأرباض بعضها عن بعض، بل وحتى الشوارع، التي كانت تشكّل مفاجأةً كبيرة بالنسبة لمن هو غير معتاد على ذلك، أولويّة الدفاع، مثل ضيق وصعوبة الأزقّة والممرات والجدران والأبواب المضاعفة أو الثلاثية. فإذا كانت الأسوار تقوم بدور الحماية من العدو الخارجيّ، فقد كان من الضروري وضع أخرى أمام العدوّ الداخليّ، الأخطر كلّما كان أقرب. وللتمتع بالهدوء النسبي كان السكان بحاجة لأنْ يلتصقوا بعضهم ببعض ويعيشوا كتفاً إلى كتف، لهذا كان باستطاعة عددٍ من الرجال أن يحموا، في أيّام الثورات الشعبية أو في أزمنة الفوضى، مدخلَ الدرب ـ الدرب من العربية ويعني الزقاق المغلق ـ الذي كانت تنفتح عليه أبواب عددٍ كافٍ من البيوت.

ما قلته على علاقة كبيرة بمفهوم أبنائي عن البيت: حاجز قائم بين راحتهم والمكائد، بين رائحتهم وروائح المدينة ـ التي لم تكن دائماً فوّاحة؛ سقف ضدّ المطر والحر القائظ، ضدّ الجموع والجلبة، واحة للسكينة مقابل صخبِ العمل، جلبةِ البيع والشراء والمساومات؛ توازن في مواجهة فساد القضاةِ ونهبِ الطماعين، وإذا كان الأمر كذلك فهل سيكون من المستغرب ألاّ يُقدِّمَ البيتُ إلى الشارع غير واجهته الخلفية أو الأمامية دون أيّ فتحة على الإطلاق؟ هل سيستغرب أنّ الدخول إليه كان يحتاج إلى عبورِ بابِ المدينة وبابِ الحارة وبابِ الدرب أو الزقاق المغلق وباب المسكن الخاص؟

ولكي يقوم المواطنون بأبرز أعمال الورع والتجارة والدراسة يذهبون إلى المناطق المزدحمة والصاخبة من المدينة؛ لكنّ بيوتهم

كانت مخفية دائماً تقريباً في عمق الأزقة الهادئة، حيث يسمح انعدامُ المرور بنمو العشب الناعم. خلف مشربية النافذة الصغيرة كانت النسوة يراقبن الشارعَ، بينما هنّ يمارسن أعمال الإبرة، ولانشراحهنّ وانشراح أولادهنّ هناك صحون الدار العامّة أو الخاصّة، الأسطحة والعلّيات ـ تلك الزيادات أو الأروقة العلوية المفيدة جدّاً ـ من حيث يلمحون البيتَ الريفي الأبيض، والشرفات الحيّة، والمآذن، والغوطة (المرج) المتألقة، وجبال الأفق الزرقاء، وما هو أقرب من ذلك، ما كان يجري في الشارع دون الحاجة للتورط فيه.

أفكّر وأعود لأُفكّر باستمرار فيما كانت عليه حياتي في ذلك الوقت، وفيما كانت عليه حياة أبنائي. ما إن يصلوا إلى بيوتهم، التي تنفتح على أزقّة ضيّقة جدّاً، صمّمت كي يمر فيها الإنسان فرادى ومثنى، حتى تُصبح متواضعة، محتشمة ورصينة، لكنّها لم تكن مصمّمة للجلوس فيها دون ودّ أو حياء. شوارع ما عاد فيها حوانيت، ما عادت هي الحاضرة فيها بامتياز، لأنّ الحاضر فيها بامتياز هو المسكن، الذي، حتى ولو كان فقيراً، يعني الجنّة للقليلين والحديقةَ لمن هم أقل منهم. أوّل ما وُجد في مدينة النصارى هو الدرب الذي كان يتحوّل إلى شارع مع ازدياد العمران على ضفّتيه. فيَّ راحت البيوت يتوضّع بعضها فوق بعض، وكان تجمّعها هو الذي يُحدّدُ الشارع. نظراً لعدم وجود تنظيم بلديّةٍ توحّد بينها، فقد كان يُستحسَنُ التطورُ الحيُّ: مجموعة من الشرايين الصغيرة تصبُّ في شرايين أخرى وهذه في أوردة (الطرق التي كانت تعبر جسم المدينة وتقود إلى مداخِلها، تمتدّ عبر الأحياء الخارجية وتصبّ في البرّية لتتحوّل من جديد إلى طرق). إنّ المدينة لا تنهض على الورق، فوراً: بل تتشكّل تدريجيّاً؛ إنّها ثمرة الجهد الخاصّ، خصوصية ملكية الأزقة، مع الحدّ الوحيد المتمثل في عدم التسبب بالأذى للجار الآخر (مثل منع فتح أيّة فتحة يُنظر منها مقابل نافذة أو باب الغير، لمنع الكشف المزعج على من يقطنون في المقابل). من هنا جاء عدم تناسق التجمعات السكنية، ومن هنا جاء أيضاً أنّ الشوارع لم تكن

متوازية، وتتبعثر في المنعطفات المشوّقة المغلقة. فقط بعض الشخصيات النافذة كانت تخرقُ بنفوذها هذه الحال العنيدة من الاستقلال العمراني، سواء ببناء قصر، أو بهدم حظائر أو دروب من أجل بناء مسجد جديد(*).

بودَي ألاّ أنسى الحُشّ ـ لا، ليس باستطاعتي أن أنساه ـ كان مثل سوق حبوب، فناء، له باب وحيد، بركة في الوسط وحولها صفوف من الغرف. إذا كان هناك طابق علوي أو اثنان فإنّ أروقتها تنفتح على الفناء. بل كان هناك أحياناً أكثر من واحد تشكّل تتالي أحواش، تُغلَقُ ليلاً بباب واحدٍ. يحضرني الآن حُش مشهور ومزدحم مشترك مع ما يُسمّى اليوم بيت الجيرونيين... وآخر قريب جدّاً من باب البيرة، وحوش المركز الذي كان يصل ميدان توبار بميدان لاس دِسكالثاس (الحافيات)... آهٍ، ولأن عقول الحاضر أقل قدرة على الفهم بودَي ألاّ أنسى مساكني الكهفية، تلك الكهوف التي تثقب جبالي، الدافئة شتاءً والباردة صيفاً، حيث عاش كثير من أبنائي سعداءَ، مسرورين وفخورين بالإطلال من بابها، من موقعها العالي، ورؤيتي مستلقيةً وثيرةً عند أقدامها.

قال ذلك الجرماني، منذر، إنّ شوارعي كانت من الضيقِ «بحيث تتلامس معظمُ البيوت في أعلاها، وبشكل عام لا يستطيع حمارٌ أن يسمح لآخر بالمرور، ما لم يكن في أشهر شوارعها، التي يبلغ عرضها أربع أو خمس أذرع». وإنّه يمكن لمس نافذة من أخرى باليد؛ وإنّه لم يكن بإمكان الفرسان أن يمرّوا على جيادهم والرماح بأيديهم والبيوت كانت مفتوح بعضها على بعض للتمكن من إخراج

(*) هذه النظرة إلى تشكّل المدينة العربية تعود إلى الاستشراق التقليدي، الذي ونظراً لنظرته الفوقية لم يبغ أن ينظر إلى هذه المدن قبل أن تكتظ بالسكان وتصل إلى هذه الحالة من الشوارع الضيقة والتي كانت منظّمة وشوارعها عريضة وساحاتها رحبة إلى حدّ ما، خاصّة المدن التي أنشؤوها بانفسهم كبغداد والقاهرة، وأنّها أصبحت مكتظّة بالبيوت والسكان بسبب الحرص على البناء داخل الأسوار طلباً للأمن والأمان. وتجاهلوا أنّ باريس ذاتها والمدن الأوروبية الأخرى التي تنعم الآن بشوارع عريضة وفسيحة وأبنية ضخمة كانت كذلك، وأن باريس لم تصبح مدينة منظّمة إلا في أواسط القرن التاسع عشر. م.

قاطنيها... كلّ ذلك كان صحيحاً فناباجيرو البندقي اعتبر شارع البيرة رئيسيّاً وعريضاً جدّاً مقارنة مع الشوارع الأخرى. وأنا أقسم أنّ الذي كان يخترقني من الشرق إلى الغرب لم يكن أعرض منه. طبعاً نتوءات الجدران والأقواس الصغيرة والمشربيات البارزة كانت تزيد من هذا الإحساس بالضيق عند القادمين الجدد، والسقوف كانت تربط بين الطوابق الثانية الموجودة على هذا الجانب وذاك من الشارع؛ ونتوءات الواجهات تُخفّفُ من ضغط تجمع البيوت، الذي لا يملك إمكانية للتوسّع والعليات التي تصل إلى الواجهة المقابلة كانت تُغطّي الشوارع أيضاً. ورغم كلّ القرارات التي كان يتخذها المحتَسِب، إلّا أنّهم لم يولوه أهمية، وحتى لو فعلوا، فهناك دائماً استثناءات دينية، كاستثناءات المدارس والرباطات. ثمّ إنّ الأقواس كانت تفيد في تدعيم الجداران التي كانت دائماً في وضعية غير قوية نظراً لبنائها الضعيف، أو في دعم العليات والأطناف المتهدّمة. معروف أنّ الحياةَ متنامية ولا تشبع ما استمرّت. لذلك لو سار رحالة ذلك الزمان في مدينة غربيّة، مثل برشلونة، أو سلمنقة، يستطيع أن يجوبها كلّها دون أن يتعثّر. أمّا أنا فما كان باستطاعته على الإطلاق أن يجوبني بهذه الطريقة: فيَ كان من الضروريّ أن يتعثّر، أن يلجني، يعرفني، يخطئ، ويصحّح خطأه، يصعد، ويهبط، ويدخل في أماكن لا بدّ له أن يخرج من الطريق ذاته كي يتابع طريقه... لذلك كانوا يُحبّونني أكثر، لأنّه بحكم السير والسير من جديد على الطريق ذاته، ومن خلال التعلم ونسيان ما تعلّموه ينتهون إلى معرفتي بشكلٍ أفضل.

وإذا ما بدا ذلك قليلاً، فأنا لم أكن أملك ميادين تقريباً. كان هناك واحد قرب الجامع الكبير، يُدعى رحبة المسجد الكبير، بينه وبين المدرسة. وآخر لم يكن بعيداً يُدعى ميدان أبي العاصي، لأنّ مواطناً بهذا الاسم بنى فيه مسجداً آخر وحمّاماً. وأتذكّر ميدان الحطّابين الصغير، وكان محاطاً بالبيوت الصغيرة والحوانيت، الحميمة كيدٍ مفتوحة، وميدان باب الرملة الذي كان في عصري الذهبي أصغر بكثير، وأكبر ميادين البيازين كان ميدان الماخور

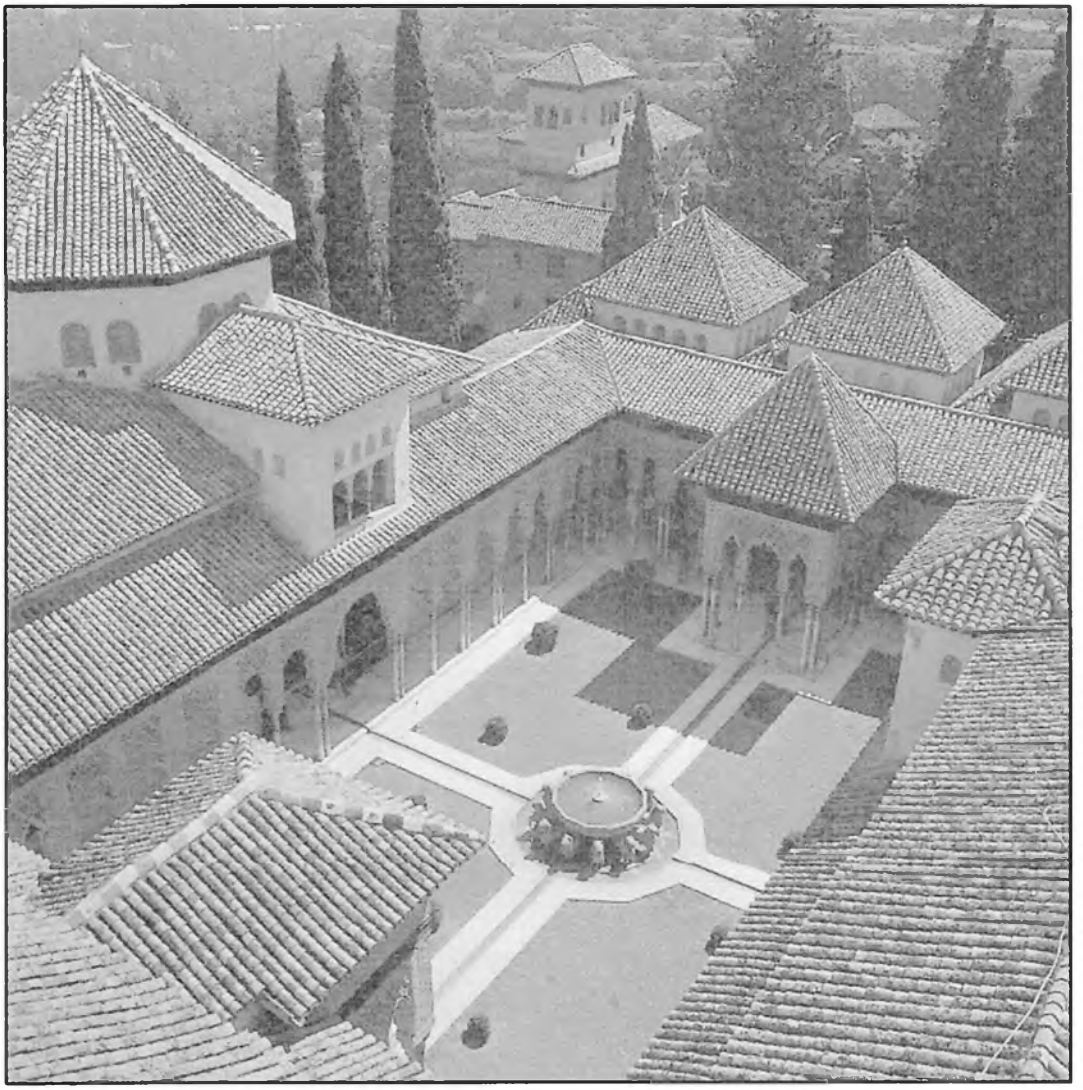

فناء صحن الأسود من الجو، تفصيل من قصر الحمراء.

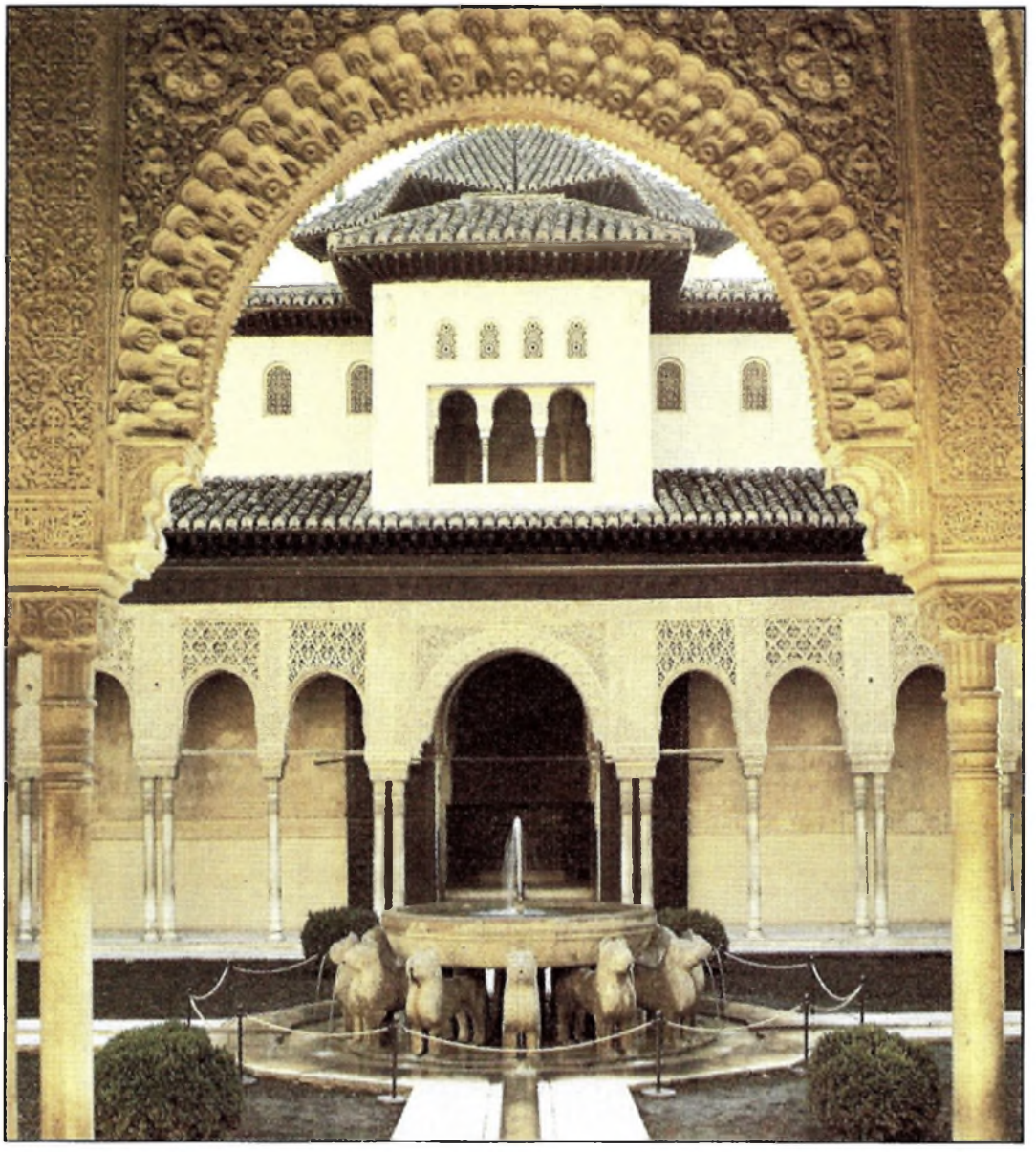

صحن الأسود، تفصيل من قصر الحمراء.

(لكنّ الشجار والقتال الذي وقع بين الزغل وأبي عبد الله الصغير في العام 1486، لم يقع فيه ووقع في الساحة الصغيرة جدّاً، المجاورة لباب الرايات ـ قوس الأوزان ـ ولمسجدِ هذا الحي الرئيسي)... الساحات كانت قليلة جدّاً. ربّما فرجة مباغتة، ربّما زاوية ناتجة عن كسر غريب في صفٍّ من الواجهات؛ ربّما فضاء يلعب دور الموزّع بين عددٍ من المساكن، أو يصعد منه درجان أو ثلاثة أدراج. كانت فناءات المساجد تلعب دور الساحات أو الفضاء الأدنى أمام الأبواب التي توقّف البيع فيها. لذلك صدم تكدّس أبنيتي وصغر مساكني كثيراً ممن دخلوني محتلّين وبدت لهم مثل أعشاش السنونو، هم الذين كانوا يحتاجون إلى خمسة أو ستة أمثالها للأسرة الواحدة. بحيث أنّهم حتى قبل أن يستقرّوا فيّ وسّعوا الساحات، هدّموا الدكاكين، وسوّوا الحمّامات بالأرض، خرّبوا الدروب وحاولوا أن يعيدوا تكوين تقاسيمي، كما لو أنّه لم يبدُ لهم جمالي كافياً بعد كلّ طمعهم بي لجمالي...

لا أدري ما إذا قلتُ إنّ البيوت كانت قليلاً ما تستقبل الهواء أو النور من الشارع. فالجدران الخارجية لم يكن يكسر عريها غير فجوات الدخول، وسكانها لم يكونوا يصبون إلى زينة أو أبّهة، ولا يرغبون مثل النصارى أن يعكسوا من خلالها وضعَهم الاجتماعي. فقط من فحص مصاريع أبواب الدخول ـ خشبها، ترصيعها وحديدها ـ، كان يمكن استنتاج أنّ البيت بيت فقير أو غنيّ؛ لأنّنا نميل لأنّ نغطيّ على الثروة أكثر مما نميل إلى إظهارها، وشيء حسن أن تحمي التسلخات الخارجية كنوزَ الداخل...

الأبواب. ما أشدّ تعلّق النصارى بالخِداع بالأبواب. إذا كانت الأبوابُ كبيرة قليلاً كان مسلميّ يفتحون خوخاتٍ في المصاريع كي يُقلّصوا الفتحة فلا يدخلون إلّا منها، وهي منخفضة وضيّقة، منحنين قليلاً، رغم أنّ هذا قد عُزيَ إلى طبيعتهم الغامضة والمرتابة، أكثر مما عُزي إلى ازدرائهم للتباهي والتظاهر. وكانت هذه الأبواب تؤدّي إلى دهليز ضيقٍ يُدْخَلُ منه عبر أبواب أخرى لا تُقابل الأولى، وذلك لمنع الرؤية من الخارج إلى الفناءِ، لكن دائماً تقريباً بشكلٍ غير

مُباشِر وعبر ممرٍّ ملتوٍ يستر حميمية الداخل أكثر. وإذا ما ظهرت واجهة ما ملفتة للانتباه، فإنما تكون دون شكّ لمؤسَّسة خيرية أو بناء مصلحة عامّة: مُصلّى، مارستان، مستشفى، مدرسة، مخزن حبوب فاخر. المسألة هي أنّ الضخامة كانت دائماً بعيدةً عن الحياة الخاصّة المتواضعة لأبنائي، ربّما كان من الممكن أن تُلمح في الأحياء النائية أو الأرباض خضرةُ بستان أو حديقة؛ فسريتها كانت تجعل الآخرين يتخيّلونها أكثر روعة مما هي في الواقع. إنّ العيش خلف الأبواب موقف جوهريّ؛ إنّه برنامجٌ اتبعه أبنائي دون انقطاع. كيف لم تكن لتفاجئ من اعتادوا أن يرموا بكل ما في البيت من النافذة؟ كيف لم تكن لتلفت انتباه من كانوا يهملون نظافة أكثر زوايا بيوتهم ألفة، ويزخرفون ويزينون واجهاتها. هكذا كانت أحيائي الشعبية: أبواب بسيطة ومسامير خشبية، دون إصلاح الواجهات وتسويتها، إلّا بما تمليه الحاجة، لا شيء مما قد يجمّل الواجهة أو يميّز بيتاً عن آخر، نوافذ قليلة ومتواضعة، لكن بينها متعة مشربياتي. مشربيات بالمعنى الحقيقيّ للكلمة: شرفات، نوافذ خشبية بارزة، مغلقة بشبكٍ دقيق، تجلس فيها المرأةُ للبرودة دون أن تُرى؛ أو تضع إبريق الماء ليبرد... لكنّهم بعد أن استولوا عليّ أزالوا مشربياتي؛ فرضوا قواعد تمنع بناءها وقواعد تأمر بهدمها، وانتهوا إلى إطلاق تسمية مشربية على النافذة المقوّسة التي يقطعها عمودٌ صغيرٌ في وسطها، وهو ما لم يكن موجوداً في شوارعي.

هذه البيوت عادة ما كانت مؤلّفة من طابقين، وإن كان هناك أخرى فيها أكثر من ذلك، ولم يكن من المستغرب، كما في الحال التي رويتها عن البيوت الطافية فوق النهر، التي كانت تمدّ هذه الطوابق بشكلٍ بارز جدّاً لتمنح شوارعي وضفافي مظهراً عجيباً، حالماً وهفهافاً. يُضاف إلى هذا أطنافي التقليدية ذات الدعامات البارزة جدّاً التي كانت تحمي واجهات الكثير من البيوت، بطرفها الخارجي المرتفع أكثر من الداخل في الجدار. أين هي الآن؟ وكانت إذ ذاك من الكثرة بحيث أنّ بعض القوانين منعت أن تبرز لأكثر من ثلث عرض الشارع، ولهذا كان يُحتَفَظ بثلثٍ آخر لإفريز الجدار

المُقابِل وثلث للسماء. وبذلك كلّه فإنّ من العدل القول بأنّ المقرنصات لم تكن تبرز بشكل عام أكثر من ستين سنتيمتراً، وهو ما يُعطي فكرة عن عرض الشارع العاديّ. الشارع الذي كان يعود الرجالُ عبره إلى بيوتهم بعد انتهاء عملهم، عند صلاة المغرب تقريباً؛ وهو شارع يصبح أقلّ صخباً كلّما ابتعد عن المركز، مبلط بالقرميد أو بالحجارة أو بالتراب العاري الذي يسمح بنمو الأعشاب أو شوك اليهود الذي تزرعه السكينة بجانب أفاريز الجدران.

لكن ولكي نقدّر أكثر تلك السكينة من الضروري أن نعرف ماكان يجري في شوارع المركز خلال ساعات النهار. كلّ شيء كان صاخباً، كلّ شيء كان فرحاً، كلّ شيء كان ضوضاء. كانت تزيدُها ضيقاً البسطات الموجودة في الهواء الطلق، المؤقت منها أو المرتجل، البسطات المحمولة، بمظلاتها التي كانت أعلى قليلاً من خيّال راكب. هناك تعيق المرور الخيول المربوطة، الباعة الجوّالون، المبتاعون الذين يَدْفَعون ويُدْفَعون، المتنزّهون البطّالون، المتسوّلون الحقيقيون أو المزيّفون الذين يلجَون عند أبواب المساجد والحمامات، الفلاحون المرتبكون والمذهولون، المهنيون الذين يحاولون بيع مصنوعاتهم، الأطفال الذين يلعبون بين أرجل الكبار، المرضى المزيّفون الذين يتقلّبون على الأرض ليقنعوا الآخرين بأنّهم يعانون من مرضٍ مزمن، العميان مع مرافقيهم من الصبية الذين يطلبون باسم الله، المقرفصون أمام حوانيتهم محاولين أن يلفتوا انتباهَ المارّة، المنادون بعيونهم المغمضة كي يرفعوا صوتهم أكثر، الغشّاشون الذين يحاولون أن يغشّوا المارّة، عارضو القرود الذين يخيفون الحبالى، المتنازعون، المساومون، رواة الشوارع الذين يروون قَصَصَ النبيّ، مغنو الزجل الذين يرافقهم إيقاع نقودهم الصغيرة، المصابون بالقروح والبثور الذين يرفعون شكواهم فوق شكاوى أصحاب العاهات المزيّفين، والمستعربون واليهود والعرب الشرقيون والنصارى والفرنجة والعبيد والقطلانيون والجنويون، كلّ يُعَبِّر بلغته ويرتدي ملابس مختلفة، والجزّارون ومعهم ذبائحهم على ظهورهم، وحمالو البضائع

يحملونها في النقالات، ومن يتعثرون بالبسطات ويسقطون فوق آخرَ كان قد تفادى التعثّر بهم، والذين كانوا يخافون عند مرور حمار أو حصان، الأمهاتُ البدينات الصبورات والصامدات بين اللصوص والانتهازيين، بين النشالين والمحتالين، بين المبصّرين وباعة التعاويذ وأحجبة رأسِ النسر أو أيّ طائر صيد آخر، بين فتّاحي البختِ السعيد وقرّاء الأبراج، بين حواة الأفاعي والممثلين الجوّالين، بين راقصي الحبال والبهلوانيين، بين محرّكي دمى العرائس الذين يلعبون بالهيّا هيّا والتكلّم من البطن، بين باعة الأعشاب الطبية والمهرّجين، بين فاتحي الفأل والسقّائين، وجميعهم يسيرون في أغمار الماء وفوق الثمار المسحوقة والفضلات والروث وبقايا الأطعمة وفوق كلّ ما كان يُنَظّف بدقّة بعد انتهاء ساعات البيع، ووسط جلبة عمّال البرونز الذين يطرقون صينياتٍ ومباخرَ، والنجّارين وهم يطرقون ويصقلون خشبهم، والخبّاز الذي يُغني وهو يعجن، والمحتسب الذي يمضي من جانب إلى آخر مع مساعديه وميزانه معه يزين الخبز واللحمَ، يُسَجّل الأسعارَ ويتأكّد منها ويرسل صبيّاً متواطئاً معه ليتأكّد من تنفيذ القوانين ويراقب العقّارين والعطّارين سيّئي الصيت الذين يبيعونك القطّ على أنّه أرنب، ويمنع باعة الخضار من الجلوس بجانب خضراواتهم وهو ما كان يعيق المرور في الشارع أو زاوية السوق والميدان الصغير ومنعطفه تماماً. كان المحتسِب المسكين يقوم بواجبه على أتمّ وجه وسط المحتالين والدجّالين، بين البيض والزنوج، فارضاً مخالفاته غير الصغيرة وعقوباته التي تصل إلى حدّ الجلد العام وفي حال التكرار إلى الطرد من المدينة، وكان هناك الروائح: رائحة الحشود، ورائحة النهار، رائحة الأطعمة المعدّة في الشارع ذاته والخردل والمردقوش والتوابل التي تتناقض مع الروائح الأخرى وتطغى عليها، والروائح التي كانت تنفثها المطاعم الشعبية حيث يلتهم الناس لُقَيْماتهم أو اللحم المشوي والسمكَ المقليّ والخبز المقلي والنقانق وحلوى الجبن والصفائح ورائحة الياسمين والورد، التي كانت تحلّق في كامل جسدي، ورائحة من كانوا يعيشون على تعطير الآخرين

بالرشّ، ومن يُبخّرون الحضور بالبخور والأخشاب العطرية، وأصوات المؤذّنين الذين كانوا يهبطون بأصواتهم المتزاحمة ونكر الله على الناس الساهين...

كان الرجلُ يهرب من كلّ هذا الذي كان يغزوه ويستأثر به ويُذهِله، ليدخل إلى بيته ويلتقي بنفسه وأهله ويتأكّد من أنّه في صحن داره أو شرفته وخلف أبواب حيّه أو دربه المتكرّرة وقد خلف وراءه الخطر، وتحت السماوات الصامتة كان يستعيد روحَه الناصعة والبهيجة... لم أنخدع قط: كلّما كانت المدينة امتداداً للبيت، كلّما سادتها الحكمة أكثر، وكلّما جهدت كي تكون مسكناً للإنسان يحيط بمسكنه الحميم. لذلك يجب أن تُشادَ على قدّه، كي تقدّم له الافتخار بشعوره ملكاً بطريقة ما، وإمكانية الإيمان والثقة. إذا لم تكن مدينة المرء جميلةً كانت روحه بائسة، وإذا كانت مدينته مفرطة في الكبر، صغر سكانها، وإذا كانت المدينة غير مريحة أو خطيرة صارت روح الناس الذين يسكنونها هيّابة وخطيرة، لأنّ إنساناً متهيّباً يبقى دائماً قاب قوسين أو أدنى من الجريمة. يجبُ أن تكون المدينة مرآة من يعيشون فيها. كما يجب أن يكون المواطنون مرآة مدينتهم وعشّاقها.

السكّان: عددهم، أصولهم، أنسابهم، طبقاتهم الاجتماعية

اختلف عددُ سكّاني على امتداد القرنين والنصف التي حكمتني فيها الأسرة. لقد كتب ابنُ الخطيبِ: «لا يوجد فسحة مقفرة أو خالية حتى الأفق الذي يملك فيه النحل خلاياه». والمسألة أنّه منذ البداية حين ضاعت قرطبة وإشبيلية هاجر كثير من المسلمين الذين كانوا يسكنون أطيان الوادي الكبير. ومع ذلك يجب ألاّ نأخذ بالشهادات النصرانية، المصبوغة بالمبالغة دائماً لدوافع الاعتبارات العسكرية

أو الاعتزاز السياسي أو لأسباب اقتصادية. فذات مرّة أخبر سفراء أراغون في مجمع فيين عام 1316، البابا كليمنت التاسع بأنّ عددَ سكّاني مئتا ألف نسمة. كان هذا إعلاماً مقصوداً: فقد أرادوا أن يزيدوا جعالاتهم الاقتصادية والبراءة البابوية مُخيفين البابا ومضخّمين أهمّية الحملة. أمّا بالنسبة لتقديرات معاصري سقوطي فقد كان ثلاثة أرباع هذا العدد: فالمجد والشهرة التي ستصيبهم ستكون أكبر كلّما زاد عدد سكّان المدينة المحتلّة. الصحيح هو أنّ المملكة عانت في أواسط القرن الرابع عشر بلاء الوباء الأسود، الذي تسبّبَ بوفيّاتٍ كثيرة ولاقى القضاءُ عليه صعوبةً كبيرة، بل وكان من المحال القضاء عليه قضاءً تامّاً. ومع ذلك لو كان عليّ أن أقول إجماليّ سكّاني، لقلت إنّهم كانوا يصلون متوسّطاً إلى خمسين ألف على الأقل، قبل أن تظهر مشاكل التضخم السكاني الذي سبق سقوط مملكتي النهائي.

لكن ما هي الشعوب والأعراق التي كوّنت، منفصلةً أو مندمجةً، فسيفساءَ من كانوا يقطنونني؟ منذ اللحظة النصرية الأولى كان هناك بؤرة مؤلّفة من متحدّرين من عرب سوريين، ومن ومستعربين بقوا رغم طرد الموحّدين لهم (ترك أسلافُهم آثارَهم في الأسماء: فريرا، كابليرا، بوقيرا). كان يطغى في هذه المرحلة البربر، الذين لم تكن غالبية سكّاني تستظرفهم، لكنّهم راحوا بعد ذلك يذوبون بين المسلمين الهاربين من زحف النصارى: وبأمر من فِرناندو القديس رافق الهاربين من بياسة والشرق وقرطبة وإشبيلية إلى هنا فصيلٌ. ثمّ انضمّ إلى سكّاني عددٌ كبير من سكّان جيّان، حين أصبحت المملكة المقدّسة، ومن مرسية، ومنحني هذا طبيعة عربية ومنقذة في آنٍ معاً، وحوّل أراضٍ كانت وعرة وجبلية، لكنّها مناسبة لعزلتهم ودفاعهم، إلى وطنٍ مشترك.

إلى جانب هذه العناصر تقاطعت أقليات أخرى: اليهود والعبيد الذين كانوا يسكنون ألمريةَ بشكلٍ خاصّ، والموجات الأفريقية الجديدة القادمة من الملاحقات السياسية، أو المتطوّعين للقتال من

أجل الدين ولإثراء هذه البوتقة من الأعرق، وكان هناك الهنود المتصوّفون والزنوج السودانيون الذين سكنوا الرباطات.

هل كان واضحاً من أيّ عرق كان المسيطرون؟ يجب استخدام علم الأنساب بكثير من الحذر. وقد بلغ هذا العلم أوجه فيَّ في القرن الرابع عشر ودافع عنه الأرستقراطيون والأدباء العرب، الغيورون على تفوّقهم العرقي والعقلي. وابن الخطيب يُطري في كلّ كتاباته على الأصل العربي للأندلسيين ويتجاهل اختلاطهم وهجانتهم خلال ستمئة سنة. صفاء الأنساب ضاع في جسور الزيجات المختلطة. فكثرة الألقاب التي تعود إلى الأماكن الأندلسية الواضحة، واختفاء الخصائص العرقية الشرقية كانت جليّة جدّاً. رغم تخليد كبرياء السلالات القديمة، أين هم هنا القرشيون، أو الفهريون، أو الأمويون، أو القيسيون، أو الخزرجيون، أو الأنصار، أو اليمنيون الجذاميون أو الغساسنة الأنقياء؟ لم يعودوا موجودين. جميعهم كانوا أولاداً أو أحفاداً لنصارى أسلموا؛ جميعهم كانت لهم أمّ أو جدّة نصرانية، أو كانوا هم أنفسهم نصارى. من كان خالص العرق فيَّ؟ ولا حتى أفضل الخيول. من كلّ من كان فيّ من سكّانٍ لا يصل عدد من حافظ على نقاء دمه العشرة. جميعهم كانوا فيَّ أندلسيين وهذا كافٍ. إنّ لمن الغباء الإصرار على الاعتزاز بالأرستقراطيات والأنساب.

أمّا بالنسبة إلى النصريين، فإنّني أخشى أن يكونوا قد بدؤوا منذ مؤسّس السلالة. إنّ تأسيس السلالة لشيء سيء؛ لأنّه يُبرهن على أنّه كان لها بداية، وأنّها تخيّلت كلّ ما سبقها. إذْ ألم تكن بُطينةُ، أمّ محمّد الخامس الكبير، ومريم، أم اسماعيل الثاني الشحيحة، وبُهر، أمّ يوسف الأوّل، وعلوةُ، أمّ محمّد الرابع، وشمسُ الدولة، أمّ نصر أبي الجيوش، جارياتٍ مسيحيات؟ وكانوا ـ جميعهم متسامحون ومنفتحون ـ من يستحقون فعلاً اسم الأندلسيين.

فنقرأ لابن رشد ـ الذي يعني ابن رويث ـ «أنّ مناخ وطبيعة الأندلس أقرب إلى طبيعة اليونان من طبيعة بابل ويجعلان من ناسهم

هادئين وأذكياء. وكما أنّ صوف أغنام ماشية الأندلس أنعم من أية أصواف أخرى كذلك ناسها ذوو مزاج أكثر اعتدالاً، كما يبدو من لون بشرتهم ونوعية شعرهم. فبشرة الأندلسيين ليست سمراء كبشرة جزيرة العرب وشعرهم ليس زبيبة مثل الأفارقة ولا سابلاً مثل أهل الشمال، بل حريرياً ومتموّجاً»(*). وكذلك ابن خلدون يقول إن امتزاج العناصر المتباينة كان قد انتهى إلى نوع وعرق أندلسيَّيْن بحيث كانوا يتميّزون عن المغاربة بحيوية فريدة في روحهم وقابلية بيّنة للتعلم ورشاقة ظريفة في الأطراف. رغم أنّه كان يعزو ذلك كلّه إلى الغذاء المعتمد كثيراً على الشعير وزيت الزيتون، لأنّه كان من أنصار إعلان أنّ مجد البدوي وفقره أصل للعظمة. وأقرب منه ابن الخطيب رسم صورة واضحة تنطبق على عموم الأندلسيين: قامتهم متوسطة، بشرتهم لا تكاد تكون ذهبية، شعرهم داكن وناعم وتقاسيمهم عادية وناعمة...

لا أدري بماذا سيعترض النصاري والعرب واليهود على هذا، لكنّ الأندلسيين مختلفين عنهم جميعاً. على كلّ حال وكما قال الخليفة عليّ، صهر النبي محمّد، «خلال حياتي وجدت أنّ الناس يشبهون زمانهم الذي يعيشون فيه أكثر من آبائهم»(**)، كلّ البشر، ولمجرّد كونهم بشراً، بينهم قواسم مشتركة كثيرة، بحيث أن الاختلافات تبدو في حدودها الدنيا. والبرهان على ذلك هو أنّه ورغم ما قيل بأنّ أبنائي يشبهون الناس الذين يسكنون شاطئ المتوسّط الأفريقي، وآسيا الداخلية أكثر مما يُشبهون سكان الشاطئ الأوروبي بما في ذلك الجنوبي، فالحقيقة كانت مختلفة: كان في مملكتي زنوج، كما كان فيها علوج ـ نصارى أسلموا ـ، لكن تسعين بالمئة من أبنائي كانوا مماثلين باللون لأهل شبه الجزيرة الآخرين

(*) نعتذر من القارئ الكريم لأننا اضطررنا لترجمة نص ابن رشد عن الإسبانية، نظراً لصعوبة الحصول عليه بالعربية، حيث لا توجد إشارة إلى مصدره، مما جعل البحث عنه في غاية الصعوبة. م.

(**) لم أعثر على قول للإمام عليّ يُشبه هذا القول غير: «لا تُنشئوا أبناءكم على أخلاقكم فقد خُلِقوا لزمانٍ غير زمانكم». م.

من الممالك الأخرى، خاصّة إذا ما قورنوا بأبناء البلاد المختلطة جدّاً مثل الأندلس أو أيّ من القشتاليتين.

ومهما يكن فليس العرق بل السلالة هي التي كان لها نتائجها الاجتماعية. جميع الأرستقراطيين كانوا يرتبطون بأواصر مع أحد الأنساب الست والثلاثين التي استقرّت فيّ حسب العرف، قادمين بشكلٍ مباشر أو غير مباشر من جزيرة العرب. بقيّة السكان كانوا يتحدّرون من أخرى عريقة ومجيدة إلى هذا الحدّ أو ذاك. لكن ما يهمّ هو أنّ اختلاط الأنساب لم يتحقّق فقط بعصب الدم ـ من ذكر إلى ذكر ـ بل حتى ولو بدا غريباً بقرابة الرحم ـ نسب المرأة ـ وهو ما شكّل استمراراً لبنى القرابات الهيسبانية، المغايرة تماماً للشرقية. فالشرف والنبل كانا ينتقلان ويتمّ توارثهما أيضاً عن طريق المرأة، وهو ما يؤكّد بطريقة قاطعة المثال الأعلى الاجتماعي الذكري المعلن على أنّه أعلى قدراً.

حين التقت العصبيةُ، أي تضامن الدم وقوّة الالتحام، في الأنساب صارت، في آنٍ معاً، عاملَ وحدة وعامل صراعات داخلية متواصلة. في الممالك غير الإسلامية، ومع ازدياد أهمية المَلَكِيّة والبلديات والقوانين الشرعية راحوا يتبنون الأنساب؛ لكن ليس في مملكتي. كان زعيم كلّ أسرة يقود هذه الأسرة، من أجل عظمتها، ضدّ الأسر الأخرى، التي عارضتها أو ألقت بظلّها عليها. وكانت المملكة تعاني من نتائج النزاعات والشقاقات بين من كان عليهم أن يتفقوا كي يكبروا بها. وهكذا فإنّ الأنساب التي شكّلت قاعدة البنية الاجتماعية والسياسية كانت أيضاً سبباً للركود وللدمار في المقام الأخير. ذلك وبما أنّ مجتمعي لم يكن إقطاعياً، لم يكن هناك امتيازات فخمة ولا نظام وراثة واضح، ولا علاقات ولاء وتبعية، باستثناء رابطة المملكة مع قشتالة. كانت الأرستقراطية الغرناطية أرستقراطية وظيفية ـ مناصب عسكرية، إدارية أو دينية ـ يحصلون منها على مكاسبهم. وحين كان الأمراء يمنحون هذه المناصب لأعضاء نسبٍ من الأنساب أو الأسر يكون مبدئياً وبالقوّة قد كسب

بما حقَّقه، سواء أكان عدلاً أو ظلماً، استقراراً معتبَراً. لكن هذا الاستقرار الذي يضمن الأوَلية للنَسَب النصري، لم يدم إلا حتى بداية القرن الخامس عشر. كانت التأثيرات حتى ذلك الوقت تتوازن، حتى الأنساب المحلية تتحد ضدّ الأفارقة، الذين كان ولاؤهم لبني مرين أكبر من ولائهم لبني نصر؛ لكن حدث مع موت يوسف الثالث بعد عامين من حكم ابنه الشاب محمّد الثالث، تحالف أنساب حاول التدخل في السياسة، واجهه تحالف آخر، هو تحالف الشرعيين، وبذلك لم يزُل هذا الشقاق إلا مع زوال المملكة. وقد أدى الصراعُ بين الجانبين إلى عملياتِ خلعٍ عن العرش وعودةٍ إليه وملاحقاتٍ وقتل؛ بكلمة واحدة أدى إلى تآكل السلطة وإدارتها المهمّة. إن الصراع بين أرستقراطية من الأرستقراطيات والمملكة ممسوكة ومنقادة مأساوي دائماً. إنّ استخدام قوّة الزعامة، دعم رجال الدين والمفكّرين يتسبّب بتآكل السياسة كلّها. النتيجة كانت في أنّ مسيرة التآكل الداخلي هذه تحوّلت إلى حليف قشتالة الأساسي وإلى السبب الأكثر فعالية بالقضاء على المملكة.

إنّ تكتّل الأنساب الذي قام بانقلاب عام 1419 كان مؤلّفاً من بني سراج ـ ابن السراج، ابن صانع السروج ـ على رأس بني قميسة Comissa، وبني عبد البر، وبني مفرِّخ Mufarrij. والتكتل الشرعي الذي عارض التكتل السابق، وبمعزل عن أية مسألة سلالية كان يتألف من بني الأمين وبني بنيغش Alamines، Benegas. بقي بعض الشخصيات، كشخصية رضوان الرائع، على هامش الجدل وأقرب إلى العرش: وأنا هنا أنحني له إجلالاً. يجب أن أُضيف الثغريين، أي الحدوديين، وهذا ليس تسمية لأيّ نسب، بل هو لقب استخدمه العسكريون الأفارقة مثل المُدافع المتفاني عن جبل الفار في محلّة مالقة؛ كما أنّ الغماريين Gomeres والغزوليين Gazules والزناتيين ـ المحاربين الأفارقة الطوعيين ـ لم يُشاركوا كثيراً في الحروب التي مزّقت أحشائي.

هذا الصراع السابق على الاحتضار ـ أو صراع الاحتضار ـ

بين الأنساب شكّل النهاية فقط. من الضروري القول إنّ تآكل البنى القبلية القديمة كان كبيراً جداً. كان هناك تيّار طبيعي يوقف عملها التدميري، وإن لم يقضِ عليه كلّياً؛ هذا التيار هو الأسرة، الأسرة القليلة أو المركزية، الأسرة أحادية الزوجة عملياً، نظراً لأنّ الميسورين وحدهم كان باستطاعتهم أن يعيلوا أكثر من زوجة. كان يشكّلها الزوجان وأولادهما وربّما هذا العضو أو ذاك من أبناء العائلة. كانت القرابة في الجو الريفيّ تتسع لعدّة أسر، بل وهناك احترام للسلف المشترك أو القريب الوجيه؛ وقد حوفظ فيها على زواج الأقارب، خاصّة ممن يعتبر ذا نفوذ، مثل الزواج من ابنة العم، وهو ما عزّز العصبية من ناحية، وعزّز، من ناحية أخرى، نقل ودوام الثقافة. ومع ذلك كان يهيمن في حالات أخرى الزواج من الغرباء وروابط عصبية أخرى بمعزل عن القرابة. بل إنّ تعدّد الزوجات عند الأرستقراطية إنّما كان يعود إلى الرغبة بالحفاظ على القوّة الاقتصادية والاجتماعية، أكثر مما بالحفاظ على التضامن العصبي، الذي أصبح في غاية الضعف.

لقد كثر الحديث عن الأرستقراطيات، والأحزاب والأنساب، لكنّني إذا أردت أن أكون صريحة عليّ أن أقول إنه يجب الانتباه في مجتمعي إلى جوانب أخرى لتمييز الطبقات الاجتماعية؛ يجب النظر إلى ملكية وسائل الإنتاج والدخل والثروة والاختلاف الناتج عن مكان الإقامة والمهنة. فالفرناطي الثري، أي الوجيه ـ مالك أراضٍ أو تاجرٌ، أو ابن أسرةٍ جيّدة ـ كان يعيش في أحياء الأطراف الأفخم والأكثر وداعة والأقرب إلى الغوطة، حيث كانت تكثر القرى والمنيات والبساتين والحدائق. بقية السكان الحضريين، الكتلة الأكبر عدداً ـ العامّة ـ المضطربة، المستعدّة دائماً للتمرد، المعتادة على مشاهد القسوة، التي كثيراً ما يحتقرها المؤرخون، كانت تتكوّن من المهنيين ـ الداخلين في مؤسسات نقابية ولهم شوارعهم وأحياؤهم الخاصة ـ والمزارعين الذين يزرعون الحقولَ القريبة. الجيش المحترف وجميع من تفرّغوا للآداب والفنون وإلى إدارة الأمور

الدينية تقريباً، كانوا بدورهم أبنائي ويضاف إليهم أبناء البلاط بعماله الكثُر، وهم الكوكبة التي كانت تسكن الحمراء. لكن إذا أولينا الأفكار الأساسية للشريعة الإسلامية، وإن كانت نظرية، سنجد أن الحالة الشرعية الأساسية هي الحرية؛ فالعبودية كانت حالة استثنائية، ومن لم يكن مسلماً كان يُعتبر بعيداً بطريقة ما عن الكلّ الاجتماعي. إنّ مجتمعي كان من حيث المبدأ مجتمعاً بلا طبقات؛ ومع ذلك فالإسلام الكلاسيكي قد خلق طبقات في الواقع إن لم يكن في القانون: فالتحدّر من النبي أو الانتساب إلى نبالة الدم حمل معه خاصيّاتٍ استثنائية وقدّم الكثير من الامتيازات. وبالتالي لم يكن تزوير شجرة النسب يتمّ لمجرّد التبجّح.

الأقليات: النصارى، اليهود، المُدجّنون

يعقوب المنصور، المرابطي المنتصر في معركة ألارك ـ الذي جاء من أفريقيا بذريعة الدفاع عن الدين، لكنّه استقرّ فيها ـ كان يتباهى بأنّه اقتلع النصرانية واليهودية من الأندلس. لم يكن هذا صحيحاً تماماً. فمنهم ينحدر الكفار الذين كانوا يدفعون الجزية التي تحكم أهل الكتاب الذين يقطنونني. هذه الضريبة هي التي خصّصت بالتحديد، كما لو أنّها سخرية، لبناء أملاك المحبّس عليهم في الحمامات القريبة من جامع الحمراء الكبير.

كان المستعربون يتجمّعون في المنطقة الموجودة بين المورور والأبراج الحمراء، حيث حلّ الآن سان ثِثيليو محلّ كنيسة قديمة كانت تتمتّع بامتياز أنّها تقرع أجراسها يوم خميس العهد؛ بينما كانوا في مصر ومراكش يجبرونهم على وضع حزام يميّزهم؛ وهو ما لم يحدث في مملكتي. ومع ذلك لم يكن استمرأر وجود النصارى فيّ يعود فقط للمستعربين. فقد كان حرس المرتدون يشكّل وحدة فرسانٍ تتمتع بثقة واحترامِ الملك (إلى حدّ أنّها رافقت الملك محمّد

الكبير الخامس إلى منفاه في مراكش). نزل فيّ عدد كبير من النبلاء القشتاليين، لخلاف بينهم وبين ملوكهم أو بينهم وبين النبلاء الآخرين، أو كزوار أو مسافرين أو فضوليين، واستُقبلوا دائماً بكرم من الأمراء، الذين كان لديهم مفهوم قديم ومحبب عن حسن الضيافة (الذي لا يمارس اليوم إلّا تشجيعاً للسياحة). والتجار النصارى الإيطاليون والقطلانيون في غالبيتهم تمتعوا بحُسن الاستقبال والحماية وحصلوا بشكل عام على مكاسب جيّدة: البرهان على ذلك هو أنّه كان هناك قناصلة دائمون لحل المشاكل التجارية. لكن إضافة إلى الرهبان المرسيديين الذين كانوا يأتون للتفاوض على حرية السجناء والسفراء الذين كان تدفّقهم دائماً، خاصة في أوقات السلم والهدنة، فمعظم السكان النصارى كانوا من أسرى الغارات البريّة والبحرية أو ميادين القتال.

كان الواقع مختلفاً جدّاً عن كلّ الأساطير التي كُتِبَت عنهم وملأت قسماً لابأس به من أدب القرن السادِس عشر. كانوا هدفاً لسوق مربح. فهناك سوق متخصّص يمكن شراء العبيد فيه (دون أن نذهب بعيداً، ابن خلدون نفسه اتخذ حين جاء إليّ جاريةً نصرانية اسمها هِند زوجةً له)، وكان يُزاوَد عليهم ويُعادُ بيعُهم هنا أو في مدنٍ أخرى. كان العمل المُفضَّل الذي يُخَصّون به هو طحن الدُخَن والحرشَف، وحياكة كُبَب غزل الكتّان، وشغل الحلفاء، وصناعة الصنادل، وتوزيع الحطب وتسخين حمّام السيّد. وقد لعبت أيديهم العاملة دوراً مهمّاً في فنّ العمارة، مثلاً برج القمم المستَّنة يعود بناؤه إلى البنّائين والعرفاء النصارى. في الريف كانوا يحرثون الأرضَ ويشتغلونها، يرعون القطعان، وعلى كاهلهم يقع أمر النواعير والطواحين. ويخضعون إلى مراقبة صارمة: كانت عقوبتهم الحرمان من الطعام، وتصل حتى الجلد؛ يُحبَسون في الليل مقيّدين في كهوف منخفضة السقف، كانت في السابق أهراءات ـ مطمورات ـ التهوية الوحيدة فيها هي فتحات الإنارة. كان هناك مطمورات في أقبية الحمراء، في برج الشمس ـ برج القنديل ـ في برج التكريم؛

وكانت مقسّمة إلى زنزانات تتسع لأحد عشر، أو ثلاثة عشر أو عشرين أسيراً، تُنحَتُ في الصخر الحيّ دون أيّ مدخل غير فتحة ضيّقة. كان عددُ هؤلاء الأسرى مشوّشاً حتى بالنسبة إليَّ؛ فالمؤرّخون النصارى يُبالِغون به لأسباب مختلفة، لكن يُستنتَجُ من خلال المعاهدات التي كانت تُرافِق الهُدَن، أنّه لم يكن كبيراً. ثمَّ إنّ كثيرين منهم كانوا يُعتنقون الإسلام، كي يمضوا على هواهم.

كان تحريرهم يأتي حصيلة مباحثات بين الملوك أو تقوم بها أسرهم أو أصدقاؤهم، أو بمبادرات من الأخويات الدينية المكرّسة لذلك، لكن دائماً عبر هيئات فكّاكي الأسرى أو المُكلَّفين بالفدية. كان الفكّاكون مسلمين متنصرين، أو نصارى أسلموا، تراجمة أو يهوداً يتكلّمون لغتين؛ على كلّ حال كانوا رجالاً طيّبين يُقسمون كي يستطيعوا أن يتباحثوا، وهو ما كان يتطلّب منهم نزاهة تامّة ووضعاً مالياً يجعلهم بمنأى عن أيّ فساد. من الضروري أن نُوضّح أنّه وبينما كان المستعربون الأحرار يلقون معاملة رائعة في التسامح ويَمارسون مهناً يدوية ومناصب دينية باحترام تامّ من أبنائي، كان للعبيد ومن أيّ عِرق حالةٌ استثنائية ويعتبرون على هامش المجتمع المذكور.

اليهود المضطهدون من قبل القوط الغربيين الذين كانوا يكرهونهم قدّموا مساعدتهم الفاعلة للمسلمين منذ اللحظة الأولى لوصولهم. إلى حدّ أنهم وبينما راحوا يتابعون تقدّمهم أوكلوا إليهم حماية المدينة التي سبقتني. إذن كان مسموح لهم أن يمارسوا عباداتهم وإن كانوا محكومين بدفع الجزية. في مرحلةِ الملاحقةِ المرابطية، اعتنق قسم صغير منهم الإسلام، لكن لا شكَ ليس من قلوبهم وتبنّوا جميعاً اللغة العربية تبنّياً كاملاً، وقدّموا فيها أعظم ما أنتجوه. كانوا في القرن العاشر من الكثرة بحيث أطلق المؤرّخ الرازي على المدينة اسم غرناطة اليهود، من هنا جاء اسمي. من المعروف أنّهم لم يشكلوا في زمنِ الزيريين مجرّدَ بؤرة رئيسية بل

إنّهم لعبوا دوراً أساسياً في الحياة السياسية، فابن نغريلة وابنه يوسف كانا الحاكمين الفعليين وفي آنٍ معاً السبب في ردّ الفعل المعادي لليهود، الذي مات فيه أربعة آلاف يهودي، فقد حرّض أبو إسحاق الألبيري أبناء جلدته ضدّهم:

وقفوا المزابل عن خرقة
ملوّنة لدثار الدفين
ولم يستخفّوا باعلامنا
ولم يستطيلوا على الصالحين
ولا جالسوهم وهم هُجنة
ولا واكبوهم مع الأقربين
وإنّي احتللتُ بغرناطةٍ
فكنتُ أراهم بها عابثين
وقد قسموها وأعمالها
فمنهم بكلّ مكانٍ لعين
وهم يقبضون جباياتها
وهم يخضمون وهم يقضمون
وهم يلبسون رفيع الكسا
وأنتم لأوضعها لابسون
ورخّم قردهم داره
وأجرى إليها نمير العيون
فصارت حوائجنا عنده
ونحن على بابه قائمون
فبادر إلى ذبحه قربة
وضحّ به فهو كبش سمين
وفرّق عداهم وخذ مالهم
فانت أحقّ بما يجمعون.

وليس من المستغرب أن يكتب مؤرّخ يهودي قبل ذلك قائلاً: «من لم يرَ ازدهار وثراء يهود غرناطة لم يرَ مجداً».

في مرحلتي النصرية لم يكن حظّهم سيئاً. فقد كانوا يرافقون

بني مرين كأدلاء في غاراتهم على المناطق الحدودية حين كان الأفارقة يأتون لتقديم المساعدة الأخوية للأندلسيين، وشغلوا مناصب عالية في إدارات الدولة، متمتعين بالثروة والتأثير إلى جانب بعض الملاحقات المحلية الناتجة عن طمع الآخر بثرواتهم أكثر من طمعهم هم، فقد فرض اسماعيل الأوّل عليهم أن يحملوا كعلامة مميّزة قبّعةً صفراء أو شرّابة من اللون ذاته، وهو لون اليهود في الإسلام، وجرساً صغيراً في عنق الرجل أو هِمياناً عند المرأة. وكان منعهم من ركوب الخيل وارتداء الحرير مصدره اعتبار ذلك من خصائص النبالة الإسلامية. بلغت تجارتهم أوجها واشتهروا في الطبّ أيضاً. لا يمكنني إلّا أن أذكر ابن زرزر، عالم فلك محمّد الخامس العظيم، الذي لجأ خلال نفيه إلى بلاط بِدرو (بطرة) الأوّل، وكان له سفيراً في الحمراء عند عودة السلطان ويوسف بن وكر، طبيب أيضاً، جاءني سفيراً لإنريكِ الثاني في تراستامارا (أريد أن أضيف أنّه كان استثناءً، لأنّ هذا الملك لاحق اليهودَ لأنّهم أيّدوا أخاه بِدرو الأوّل، حتى أنّ الكثيرين منهم لجؤوا، بعد اغتيال بِدرو الأوّل، إليّ هرباً من إنريكِ، أيّام محمّد الخامس العظيم حاميهم الرائع). وساهمت في زيادة جمْعَتهم على قلبي مجازرُ أراغون وقشتالة اعتباراً من العام 1391 والظروفُ، التي وجدوا أنفسهم فيها في الممالك النصرانية التي راحت تُشدّدُ الخناق عليهم في كلّ مرّة أكثر، فقد وصل عددهم إلى عشرين ألفاً تقريباً أُدْرِجَت بينهم العائلات التي نقلها الأمراء من أقاليم أخرى.

التجارة والنشاطات المصرفية هي المهن المفضّلة عند اليهود، وكان عصري الذهبي من هذا الجانب لهم. ومع ذلك لم يلمعوا في تاريخ الأدب عندي. أبرز اليهود، سواء منهم من أسلم أم من لم يُسلم، كانوا يقيمون في إسبانيا النصرانية، لكن البطالة الناتجة عن قوّة راسب ثقافتهم، وثقل مئات السنين السابقة واضطرابهم الاجتماعي القديم يفسّران سبب تأثيرهم في بلاط بني نصر كإداريين وأطباء ومستشارين ونظّار ومبصّرين وما زالت مكانتهم مرموقة في عالم

أحد الأسود الأثني عشر التي تحيط بالنافورة المركزية، تفصيل من صحن الأسود.

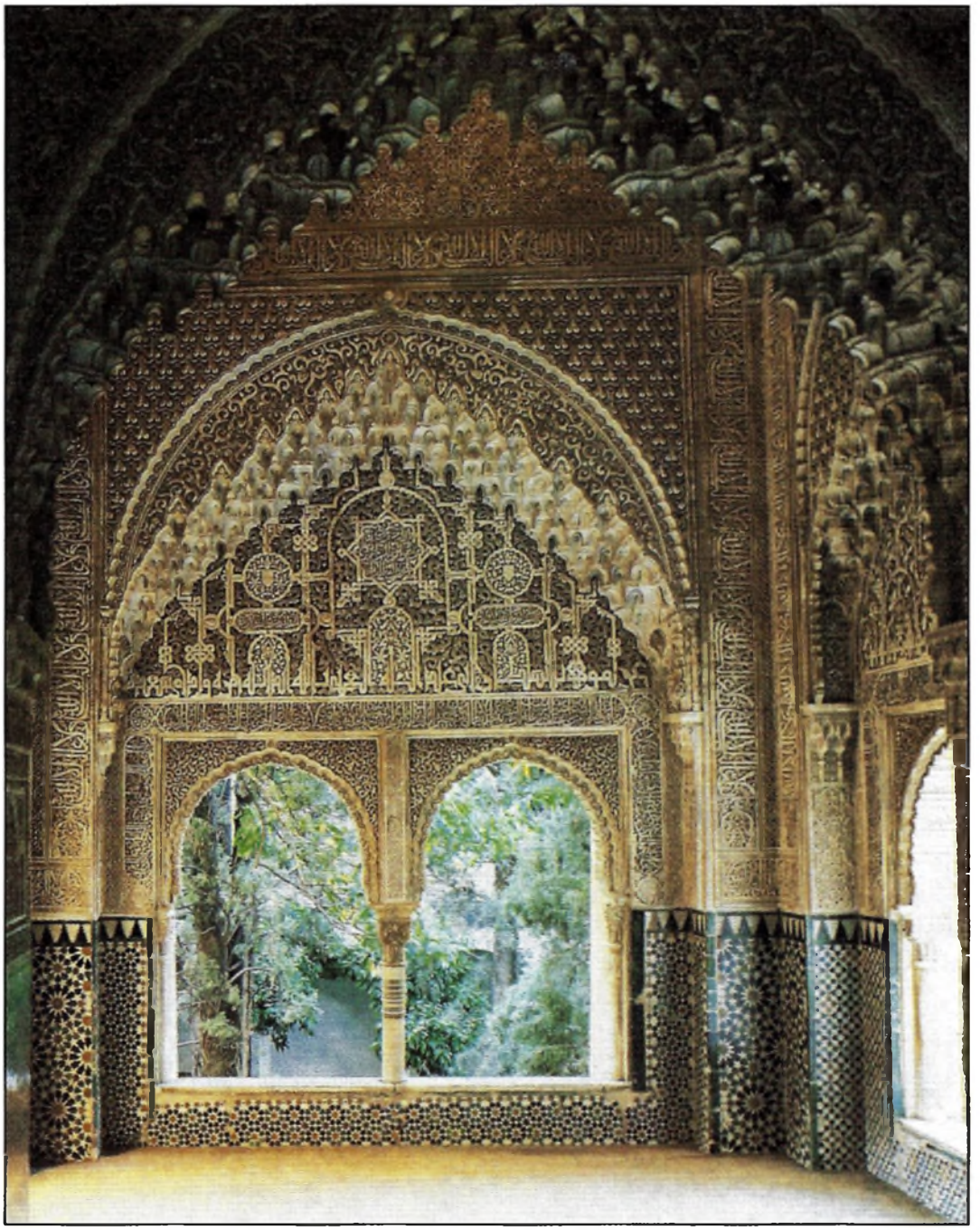

مَطلّ ليندراج في قصر الحمراء.

الاتصالات، وهو ما برع به أسلافهم مع ازدهار بوْرهم في المغرب وأبناء دينهم في شبه الجزيرة.

وكان الحيّ اليهودي يضمّ الجيب الذي يشكّله سوري من جهة الشرق من الأبراج الحمراء وحتى نهر دارة ومجراه الذي يهبط بخطّ يكاد يكون مستقيماً من باب الدفوف وحتى باب الدباغة عند منتصف سفح السبيكة. خمسة أبواب كانت تشقّ السور، إضافة إلى الأبواب المذكورة باب الخندق وباب الفخّاريين وباب الطوّابين، وعدد من الجسور التي تصل الحي اليهودي ببقية المدينة.

المُدجّنون. غالبية السكّان المسلمين لم تُغادِر المناطق المُحتلّة. رغم نزوح أصحاب النفوذ والموثرين إلى بلاد البربر، إلّا أنّ مجموعات مهمّة منهم تجمّعت في إشبيلية وقرطبة ومرسية. وكان يُسمح لهم بممارسة عباداتهم الدينية. كانوا يتفادون أن يُعسَف بهم، يدفعون ضرائبهم ولذلك كانوا محميّين: كلّ ذلك لأنهم اعتُبِروا ضروريين لازدهار المدن. لكنّ تمرّد المُدجّنين في مرسيةَ، كما في بلنسيةَ ذهبَ برِفق ملوك النصارى فحدث نزوح المسلمين باتجاه المملكة حديثةِ العهد. أفلتت الفوضى بين صفوف الأقلية التي تلت حرب قشتالة مع أراغون العنانَ لهجرة جديدة باتجاهي؛ ومع ذلك سارع الملوكُ إلى منحهم امتيازات تفادياً لهربهم وهجر الريف، ذلك أنّ الانخفاض في عدد السكان استمرّ في قشتالة فأصبح هناك نقص في اليد العاملة في الحواضر، ونقصٌ في الرعاة والبستانيين في الريف وفي كلّ مكان، ونقص في المهنيين من أيّ مهنة، والصيادلة والأطباء. من هنا كان أن وُضِعت العوائق أمام الهجرة إليّ والتي لاقت الترحاب من قبلي ثم قُمِعت.

حدث الضغط السكّاني، الذي تحدّثت عنه سابقاً، حين أمسكت بتلابيبي أعظمُ الآلام؛ واستولى القشتاليون في أيّام الإمارة الأخيرة على النقاط المحورية في مملكتي، وراحت حبّات الرمّانة تتفرطُ وتسقط حبّة فحبّة في أيديهم. لأنّه إذا كانت شروط الاستسلام التي تتلو الحصار والاحتلال لصالح بقاء هؤلاء المُدجّنين، حتى في حال

خضوعهم للشروط القاسية، فإنّ التعساء ما إن كانوا يتأكّدون من أن المتفق عليه لا يُنفَّذُ، أو من طردهم من المدن لإبعادهم عن ميدان المعركة، أو إجبارهم على العيش خارج الأسوار، أو معاقبتهم لأنّهم ساعدوا أبناء دينهم، حتى كثر عدد الذين لاذوا بي منهم: وهنا بكينا معاً متوقّعين النهاية الحزينة.

طبيعة الغرناطي

لكن ما القاسم المشترك الذي كان يجمع بين هؤلاء الناس؟ كيف كانوا يعيشون؟ هل كانوا يُفكّرون في شيءٍ آخر غير نهايتهم الحزينة القريبة؟ واضح أنّهم لم يكونوا يُقِرّون بنهايتهم القريبة. مهما بلغ الاحتضارُ بالمرء فالحياة تستمرّ من حوله في البيت الذي ما يزال يعيشُ فيه، بصمتٍ وخطوات مخفّفة، لكنّها نابضة ومتطلّبة. كثيرة هي الأجيال التي تتسع في قرنين ونصف، فلا يمكنها أن تُفكّر دون توقّف في نهاية تاريخها. الكائن البشري هو أقدر الحيوانات على التكيّف: يمكنه أن يتكيّف ويستمر بشكل طبيعي، ويتمتع بجانب أعظم الهوّات، أعرفُ هذا جيّداً. دائماً يدرسون تاريخي النصريّ كخطّ قصير، يغصّ بالإيحاءات الجميلة والأساطير ويقود إلى ضياع الإسلام الكلّي في إسبانيا. لم يكن الأمر كذلك. صحيح أنّه كان هناك انحطاط، تحجّر في الفن والإبداع، واضمحلال للقوّة وضياع للعدوانية. لكنّ هذا ما يُرى الآن من الأعلى، من المنظور الذي تقدّمه لنا القرون. فحين يكون المرء منغمساً في مرحلة الضعف لا يمكن لهذا أنْ يُدرَك إلّا من قبل العقول الجبّارة، غير المذعورة ـ كعقل ابن خلدون.

من الواضح أنّ القوّةَ الإسلامية قد مرّت بمراحل مختلفة: منذ مرحلة الخلافة القرطبية، التي اشتغلت بالحجرَ إلى مرحلة الموحدين الإشبيلية، التي اشتغلت بالقرميد، وصبّت في مرحلتي النصريّة، التي

اختارت ـ اختارت أم قبلت؟ ـ الجصَّ والسَّتوق. وحدها متانة وديمومة هذه المواد الثلاث تُعبّر بما يكفي عن الفارق بين هذه المرحلة وتلك. صحيح أنّ الحربَ التي سُمّيت زيفاً حرب الاسترداد قد استُنفِدت مع استسلامي (زيفاً، لماذا؟ أوّلاً لأنّه لا يمكن أن يُطلق هذا الاسمُ على عملٍ دام ثمانية قرون، ثانياً لأنّه لا المسلمون كانت لهم إرادة احتلال كامل الجزيرة ولا القوطيون الغربيون قرّروا استعادتها كمسألة وجود؛ وثالثاً لأنّه من غير المجدي مواجهة ما هو موجود في داخلنا، معارضة ما يُشكّل ذواتنا: فالإسباني، دون الإسلام شيء غامِض). تاريخي جذّاب بحدّ ذاته، حتى بالنسبة لمن لم يعيشوه، فهو بالنسبة إلى الذين عاشوه ليس التاريخ بالتشديد على الكلمة، بل تاريخهم ولم يتمتّعوا بإمكانية أخرى. فقد بقيت في القارورة، كما قلنا، القطراتُ الأخيرة الفوّاحة من عطرها النافد؛ لكنّ هذه القطرات تلغي حضورَ العطر السابق المبهر. لم تعد الوردة موجودة، لا طرية ولا جافّة: سحبها التاريخُ إلى رفوفه الخلفية، حيث يُكدِّسُ البقايا التي تفيض عنه؛ لكنّ عطرَ الوردة موجودٌ فعلاً، يستحضرها كاملة وحقيقية.

كان وهن مسلميّ يمنعهم من أن يواجهوا، كما واجه أسلافُهم، مشاكلَ عصرهم الحاسمة؛ بل إنّهم أثاروا بعض هذه المشاكل: فبدل من أن يتحدوا في مواجهةِ العدوّ المشترك، الجبار المتنامي ـ أكثر من أيّ وقت مضى ـ أضاعوا الوقتَ والقوّة في حروب أخوية؛ وخلّفوا أحياناً انطباعاً بأنّهم يُقاتلون لصالح قشتالةَ، وأنّهم طابورٌ خامس ضدّ ذاتهم، ويخونُ بعضهم بعضاً ويُعدُّون المستقبلَ الأعمى الذي كان عليهم أن يحاولوا تفاديه أو أن يستسلموا بجبريةٍ إلى ما فهموا أنّه شكلٌ من أشكال القدر المريع والقاسي: نهاية الإسلام في إسبانيا... ومع ذلك فابن الخطيب، الذي كان ينصحُ أولاده بألاّ يقتنوا إلاّ ما يمكنهم نقله إلى المنفى، يقدّم مسلميّ المعاصرين له كحيويين، غير مهووسين وواقعيين. يتحدّث عن طبقتي الوسطى ويصوّرها كابنة مدينة جيّدة وفيّة ومنظمة وسعيدة. أعضاؤها متشدّدون (بما كان يسمح لهم به الإسلام الأندلسي، لكن ربّما أكثر

من أسلافهم القرطبيين والإشبيليين)، يدفعون ضرائبهم في مواعيدها (بجدّية أكثر من أيّ وقتٍ مضى، فهم كانوا يدركون أنّ الأمير يدفع بذلك للجيش الذي يحميهم)، يأكلون فاكهة وأطعمة لذيذة (مرتفعة الثمن دون شكّ، لكن بالمتعة التي تمنحها المعرفة في أعماق النفس بأنّ الحياة الشخصية أكثر هشاشة من المملكة وأنّ موتَ المملكة ليس إلّا انعكاساً لموت كلّ واحد منهم) كانت عندهم عملة مقاومة (فقط في مرحلة لاحقة سوف تحتقر، بسبب جنون أبي الحسن أميريّ ما قبل الأخير، الذي سيفقد تعاطف واحترام رعاياه)، يصطافون في مزارع المرج، بعد أن خسروا الساحل؛ وكانوا يحتفلون بأعيادهم بأبّهة وصخب وحماس أكبر من أيّ وقت مضى؛ ونساؤهم ـ البدينات دون إفراط، والقصيرات قليلاً وليس كثيراً ـ كنّ يمضين مزيّنات بحليهنّ إلى الجامع الكبير، حيث يظهرن أيّامَ الجمعة مثل زهور متفتّحة وسط حقول غنيّة في الهواء العليل... وبالتالي فقد كان أهلي يُقدّمون صورة جذّابةً؛ لكن ماذا كان في

أوّلاً ما يشكّل الطابع الغامض للميراث الذي تَطبعُ به مدينةٌ سكّانَها، دون أن تعرف السبب، فقد كتب ابن الخطيب شيئاً يجب أن نذكره، رغم أنّه من الأفضل عدم التعميم: «*وانسجاماً مع شهرتهم في الشرق، فإنّ سكان غرناطة سيّئو المزاج، مفرطون في البخل ويتصرّفون في الحوارات بعناد وعنف...*»(*). يبدو أنّ كون المرء ابناً لي يمنحه طبيعة. ثانياً على قفا هذه الصورة الملونة يوجد جانب دارٍ نبيلة وثرية دالت بها الأيّام ولا يسمح انعدام خيال أصحابها ونشاطهم لها بالنهوض من جديد. كان أدبهم يتطلّع إلى الوراء، ولا عمل له غير التكرار المستمر للصيغ المستنفدة؛ اتّبع مثل الأسلاف الذين أسرفوا بدورهم في تقليدهم للإتباعيين، وتحوّل هذا الأدبُ إلى صيغ هندسية جامدة، ترتكز إلى عناصر مكرَّرة مثل زخرفتهم. وفنّهم لم يقدّم شيئاً جديداً، كما لم يستعمل موادّ قويّة، بل

(*) أيضاً اضطُررنا لترجمة هذا النص عن الإسبانية لصعوبة الحصول عليه من المصادر العربية لعدم وجود إشارة إلى مصدره. م.

استنفد طاقته بالانغماس في ما هو هشّ وصغير ومفرط، وانغمس بالحماس ذاته في هذا، وكأنّ الأمر يتعلّق بعمل عظيم؛ هام بنفسه، دائخاً، مهووساً في تكرارٍ لا نهاية له لموضوعاته، وفي معرفة تقنية حلّت بدقّة هائلة كلّ المشاكل التي كان يطرحها عليه غيابُ القدرة على الإبداع.

لكنّ عصريّ النصري قطع في طريقه نحو الموت، أمام نظري، ثلاثَ مراحل مختلفة تماماً، الأولى ذات تأثير قشتالي، الثانية ذات قوّة نسبية تنظر إلى الشرق؛ والثالثة ذات تأثير أفريقي. وبالفعل فإنّ مؤسّس الأسرة قد وضع مملكتي تحت وصاية قشتالة، وقشتالة اعتبرت حرب الاسترداد بحكم المنتهية عملياً. ففِرناندو الثالث وألفونسو العالم يلمساننّي بأصابعهما وسلاطيني أو ممثليّ كانوا يحضرون إلى البلاط القشتالي: ويسمونهم دونْ أبو عبد الله ابن نصر أو دونُ محمّد بن يوسف، ملك غرناطة وتابع الملك... يبدو أنّ ما هو إسلاميٌّ كان يختفي ببطء، تمتصه قشتالةُ وتتمثّله دون حاجة لمزيد من الحروب. ابن سعيد الذي يؤرّخ لهذه المرحلة من القرن الثالث عشر، يكتب: «*وكثيراً ما يتزيّا سلاطين الأندلس وأجنادهم بزيّ النصارى المجاورين لهم، فسلاحهم كسلاحهم وأقبيتهم من الأشكرلاط كاقبيتهم، وكذلك أعلامهم وسروجهم ومحاربتهم بالأتراس والرماح الطويلة الطعن. ولا يعرفون الدبابيس ولا قسي العرب بل يعدون قسي الإفرنج للمحاصرات في البلاد أو تكون الرجالة عند المصافّة للحرّة*»(*) ويضيف ابن الخطيب الضروري: «*واستركاب حملة الرايات خلفه كلّ منهم بصفة تختصّ بسلاحه وشهرة يُعرف بها*»(**) مثل أعدائهم.

المرحلة المتوسطة التي شغلت قسماً كبيراً من القرن الرابع عشر

(*) المقري: نفح الطيب الجزء الأول ص 207 - 208. م.

(**) لسان الدين ابن الخطيب : اللمحة البدرية ص 27 - 28 وكان يُسمّى أيضا بقاع ومنه جاء الاسم الإسباني la Vega، والتي تعني أيضاً الغوطة، وهنا علينا ألاّ ننسى أنّ غرناطة كانت تسمّى دمشق الأندلس. م.

كانت بالنسبة إليّ الأكثر إشراقاً. حَكَم فيها يوسف الأوّل وابنه محمّد الخامس. لا أدري ما إذا كنتُ أنا من ارتقى أم أنّ قشتالة انحدرت إلى مستواي. مؤامرات، غراميات، أطماع، تغييرات في الأسر الحاكمة، خلع ملوك واستعادة عروش في مملكتي ومملكتهم، علاقات التبعية تحوّلت إلى علاقات صداقة. ربّما كان عصر النهضة يطرق على الأبواب وسمع أفضل مما فيما بعد حين بدأ دويّ المدفعية يملأ الجوّ. وقد أدرك ابن خلدون ذلك بقوله: «حين تتبدّل الظروف كلّياً يبدو أنّ العالم يتبدّل...». صار واضحاً الآن أكثر من أيّ وقت مضى أنّ الشعبَ ليس إلّا ثقافته. منذ القرن الثاني عشر كنت قد فقدت السيطرة الثقافية ـ وبالتالي أيّة ثقافة أخرى ـ لأنّ الثقافة هي سيّدة البيت وحاميته: الدين والاقتصاد والسياسة ليست إلّا خدمها. دخلت مملكتي في حالة الاحتضار. استخدم محمّد الخامس دبلوماسية لامعة وأعلن حرباً مقدّسة بالاتفاق مع الأفارقة، الذين كان يتحكّم بهم ويوجّههم. أنهى مع والده العمل في الحمراء بموادّ خفيفة، لأنّهم كانوا واعين لوضعهم المقلقل ولأنّ كلّ ملك يجب أن يبني قصره الخاص به، وزمن ملكيته غير معلوم ولأنّ الآن وهنا، كما لم يحدث من قبل، الشيءُ الوحيد الفاعل. هم لم يكونوا بناة الكاتدرائيات التي يبنيها عميان ومجهولون وسعداء للأبدية. هم وشعراؤهم تركوا أسماءهم وأشعارهم في الستوق الهشّ المرمَّم والمصلَح ألف مرّة: كقلبي.

أخيراً المرحلة الأخيرة: القرن الخامس عشر. مثل المُحتَضَر الذي يرفض أن يتناول المزيد من الشراب الطبي ويدير وجهه باتجاه الجدار، ارتدت مملكتي آخر لبوس كبريائها الأخير وتأفرقت. كانت تفوح من الأمراء الأخيرين القاطنين في الحمراء رائحة أفريقية قويّة ويتوقون لحرّية البدويّ. مولاي الأخير لن يكون دونْ أبو عبد الله بل مولاي أبو عبد الله، وأبوه أبو الحسن مولاي حسن. وكانت جيوشه ترتدي الثياب التي تليق بدينهم: درع بسيط، خوذات مذهبة، سروج عربية، تروس جلدية للخيالة، رماح رشيقة... كان أشبه بالعودة إلى

فرح الطفولة: واكتسيت أنا بأبهى الألوان البهيجة والممتعة. لا أستطيع أن أحكيه: كان لا بدّ من رؤيته. ما من نقيض لي في تلك اللحظات مثل أيّ مدينة قشتالية. كانت المآذن، الجدران الخارجية للمعابد، والأفاريز تركّب ألواناً في منتهى الجرأة والإدهاش ويختلط الخزف مع الستوق المزخرف والتصوير الفريد. أنا ودون وعي منّي، لكن كما لو كنت في كامل وعيي، انكببتُ بحماس غير معهود علي أن أصبحَ الجنّةَ المحرَّمة على النصارى، إغواءهم الأكثر عمقاً، وأن أتزيّن وأتبهرج كي أصبح أكثر جاذبية من أيّ وقت مضى أمام عيونهم. هذه هي الحالة التي يُلخّصها نشيدُ ابن عمّار الشعبيّ، الذي يردّ على سؤال الملك دون خوان الثاني:

«ما تلك الفلاع؟ عالية وتتلألأ».

«الحمراء، يا سيّدي،

والأخرى هي المسجدُ،

والأخرى هي المنشور،

المشغولة بأعجوبة:

فالمسلم الذي بناها

كان يكسب مئة دبلة يومياً

واليوم الذي لا يعمل فيه يخسر مثلها.

والأخرى هي جنّة العريف،

الحديقة التي لم يكن لها نظير،

والأخرى هي الأبراج الحمراء،

الحصن المنيف».

وهنا تكلّم الملك دون خوان،

وستسمعون جيّداً ما قاله:

«إن كنتِ ترغبين، يا غرناطةُ،

تزوّجت منك،
ومنحتك مهراً وصداقاً
قرطبةَ وإشبيليّةَ».
«متزوّجة أنا يا سيّدي،
متزوّجة ولستُ أرملةً،
والمسلم الذي أنا زوجته
يُحبّني حبّاً عظيماً».

لكنّ واقع زفافي لم يكن قريباً بهذا الشكل:

كان الملك دُن خوان يتكلّم هناك،
ويقول هذه الكلمات: «ناولاني،
يا دونيا سانتشا ودونيا إلبيرا هذه المدافع؛
سوف نرمي إلى الأعلى
فما في الأسفل سيسقط من تلقاء ذاته».
كانت المعركة من الضراوة
بحيث دبّت الرعب في القلوب.

طال التودّد الدامي، دام عشر سنواتٍ. كان نوعاً من الرومانسية سابقاً على الرومانسية بثلاث قرون، تبلور فيّ. منذ البداية بدا فتحي مثل حملة مثالية وخيالية، منحت الفرسان فرصة الشهرة والثراء، الخصومُ فيها مهذّبون وذوو أنفة والنساء عاشقات جميلات. كلّ الحبّ العذريّ والبروفنسالي يخبّ بحلاوة مفرطة على أجمل الخيول العربية عبر المرج. ما من حرب، باستثناء حرب طروادة عولجت بمثل تلك الشاعرية: الفارق أنّه لم تكن توجَد في هذه الأخيرة آلهة، لأنّ إله المسلمين قد أدار ظهره للمؤمنين. إنّه مثل طلب يدٍ تحوّل إلى

مطلب، مثل خطف غادة من غيلانها الذين يحرسونها. هناك قتلى، لكنّهم تحوّلوا إلى شعر، هناك معاناة أنقذها الأدب، هناك هزائم لكنها مخفّفة بتحميلها لشخصٍ واحِدٍ: الشخص الذي يحمل على عاتقه عبءَ الجميع، مثل تيس المغفرة. أميري الأخير، الذي أغلق البابَ وابتعدَ دون ضجّة، من أجل أن يستمرَّ كلّ شيءٍ على حاله، كما وعدوه ووقّعوا على أنّه سيستمر. إنّه كذب، لكنّهم وعدوه، وكان يُفضّلُ أن يصدّقَهم على أن يشهدَ كيف كانت ستسقط القصور الهشّة وأبراجُ التربةِ الحمراء الرشيقة، أحجية الحمراء الرائعة والمطلقة والمقلقلة.

القسم الثاني

تاريخ السلالة المالكة

أعتقدُ أنَّ ما قيل حتى الآن يجعل من الضروريِّ أن أحكي، وإن كان بإيجاز مطلق، قصّةَ الأسرة النصرية التي منحتني الحياةَ والموت.

في الثلث الأوّل من القرن الثالث عشر كان للأندلسيين عدوّان مختلفان: النصارى ـ الذين عزّزوا هجماتهم، لكنّهم كانوا في الخارج ـ والموحِّدون ـ الذين راحوا يضعفون، لكنّهم موجودون في الداخل ـ وقد راح هؤلاء الأخيرون يصبحون في كلّ مرّة أكثر خطراً نظراً لتعصّبهم، الضار دائماً، وادعائهم النقاء الديني، الذي لم يعتده الأندلسيون قط ولم يكن من الممكن أن يعتادوا عليه.

جميع المدن التي كان لها بعض الهويّة، حتى ولو كانت مفكّكة وغير مترابطة، كما كان حالها وقتذاك، ثارت كلّ واحدة من جانب. (منذ سقوط الأمويين كان الشرّ يقطن في ذلك، هذا إذا لم يكن هو الذي أسّس لهذا السقوط، وبقي هو نفسه حتى نهايتي). كانت المدن تبحث عن قادة أقوياء وتختارهم ليعرفوا كيف يحمونها ويمنحونها الأمن ونمطَ العيش السابق على غزو الموحِّدين. قائدان كانا يتقاسمان السيطرة على الأندلسيين بسبب من حميَّتهما وكراماتهما: واحد من بني هود، كان سيّد البلاد كلّها تقريباً، وآخر من أسرة مردنيش، تمرّد عليه وسيطر على بلنسية. الأوّل كان يقول بأنّه ينحدر من ملوك سرقسطة القدماء ورفع بيده راية عبّاسيي بغداد السوداء، أولئك الذين ثاروا على أُمويّي دمشق، وطردوهم من هناك.

البشر دائماً يريدون أن يستندوا إلى من هو أكثر رسوخاً منهم، الذي يعيقهم في النهاية، حين يحكمون على أنفسهم ـ عامّة ما يكون ذلك بشكلٍ مبكّر أكثر من اللازم ـ بأنّهم راسخون بذاتهم. كما هي العادة بين الأندلسيين جاءَ ارتقاءُ ابن هود سريعاً: كان فتى وسيماً ورشيقاً وشجاعاً وصارماً؛ يُحمّي النفوس. احتلّ بسرعة فائقة ـ أو بالأحرى سلّموه ـ مدنَ معظم الأندلس. (قليلة هي الأمراض شديدة العدوى كالأمل. ربّما كان القنوط واحداً منها). لكنّ الأندلسيين الذين لا مبادرة عندهم لم يكونوا مستعدّين بعدُ إلّا للطاعة ولطاعة شخص ملموس، حاضر أو حسن التمثيل؛ ومع ذلك فإنّ منظّمة توحي بالثقة والإمساك بزمام الأمور لا تُرتجل. من هنا كان أنّ البناء الذي يُشاد على عجلةٍ، على عجلةٍ ينهار. ألفونسو التاسع ملك ليون وابنه فِرناندو الثالث، الذي لقّبوه بالقديس، انتصرا في مِريدا وجيّان؛ بقية المدن الخاضعة لابن هود، الخائبة وغير القادرة على تحصين نفسها بنفسها لم تكن تبحث إلّا عن وسيلة للخروج من كنفه، الذي كان متشدّداً بقسوة. كانوا يفكّرون كما تفعل الشعوبُ حين تُفكّر أن الشيء الوحيد الذي تمكّنت منه هو استبدال الطغيان ليستعدوا لاكتشاف طاغية آخر جديد. أُتيحت لهم الفرصة قبل ما هو متوقَّع: زعيم جسور وطَموح يبحث بدوره عن فرصته. وكانت المدن الأندلسية تقدّم نفسها كما لو في مزاد علنيّ، إلى أفضل راع...

كلُّ شيءٍ بدأ ذات مساء دافئ من يوم جمعة من رمضان في أرجونا غير بعيد عن جيّان. لم يكن قد حلّ الليلُ بعدُ على الهضاب، والكرومُ لم تكد تهتزّ تحت الهواء الرقيق. حين خرجوا من الصلاة ـ لم يكن المسجدُ كبيراً جدّاً ـ ما من أحدٍ ذهب ليتناول حساءه. بقوا متحمّسين وجائعين ينادون بأعلى أصواتهم برجلٍ ينظر إليهم بعيون أسدٍ ويتركهم يتصرّفون بازدراء مفتعل، سلطاناً عليهم. لم يكن وسيماً ولا طويلاً ولا رشيقاً؛ كان خشناً ويعرف كيف يأمر بحزم، والأهمّ من ذلك هو أنّه كان يعرفُ كيف يكونُ مُطاعَاً؛ يعرفُ كلّ شيء ويملك طوع يديه، مثل موهبةٍ، قياس إمكانياته. كان اسمه

بسيطاً جداً: مُحمَّد بن يوسف. قالَ ـ بعدها المتملقون قالوا ذلك بالنيابة عنه ـ إنّه من بني نصر وبني الأحمر؛ وقد سمّي المتحدّرون منه بالنصريين أو ببني الأحمر؛ كلّ الذين تأكّدوا من عدم أهلية ابن هودٍ لحمايتهم طالبوا بالزعيم الجديد، الذي اشتهر بعبقريته الحربية، وسوء مزاجه الشديد. لذلك لقّبوه على الفور بسيّد الفاتحين ـ وهو ما لم يكن قليلاً في تلك الأيّام ـ وعرّفوه بأنّه المهيمن وعرّفوا الموحدين بالغرباء. فتحت له جيّان أبوابها وتبعتها قرطبةُ، لكن ما من واحدة منهما استطاعت أن تتحمّل طويلاً قسوة مبادئه. فعادت قرطبةُ إلى ابن هود، الذي قمعها أكثر من السابق. أمام مثل هذا الدرس فضّلت إشبيلية أن تعلن استقلالها عن الموحّدين وابنِ هود، وهكذا توالت الأمور حتى نهايتها الأليمة التي لم تتأخّر. أنا تعلّمت من درس أخواتي.

كان هدفُ النصريُ واضحاً جداً فحدّد أخلاقاً ومصيراً يُناسبه. عمل مثل كلّ من يبدأ طريقاً طويلاً ومعقّداً باتجاه غاية يمكن أن تكون المجدَ ذاته، أو إنقاذَ الشعبِ، هذا إذا كانا منفصلينِ الواحد عن الآخر، ولا يقود بعضهما إلى بعض. تحالف محمّد مع الموحّدين في مواجهة ابن هود، وعقد، حين رأى نفسه محاصراً، صلحاً مع النصارى يدفع بموجبه جزية باهظةً قدرها ألف دينارٍ يومياً. عمّت المسائل الشخصية، كما يحدث دائماً مع الزعماء (ويمكن أن يُؤكّد العكسُ أيضاً: التيارات الجماعية دائماً تعثر على زعيم)، هُزِم ابنُ هود في حصن القرج ودخل محمّد إشبيلية محاطاً بالتهليل. كان انتصاره قصيراً جداً: فحبّ إشبيلية للحياة كان جليّاً ولا يمكنها التضحية به فعادت بعد شهرٍ إلى ظلّ سيفِ ابن هود، خائفةً من مطالب محمّد والقسوة التي انتقم بها من الخونة. يبدو أنّ النصريّ الأوّل أكل أكثر مما كان باستطاعة معدته أن تهضمَ آنذاك: فترنّح نجمه. قرّر، لا أدري ما إذا كانت حيلة تكتيكية منه، أم حلاً متطرّفاً، أن يُصبح تابعاً لابن هود الذي كانت كفّته تزن في ذلك الوقت أكثر في الميزان الأندلسي؛ وتلقى مقابل ذلك مملكة جيّان ومعها أرجونة وبرشانة.

سار فِرناندو القديس في هذه الأثناء لاحتلال قرطبة. واتبع من أجل ذلك خيارين: خيار طريقِ مياه الوادي الكبير وخيار انطباعه الشخصي بأنّ النهرَ، إذا كان حكيماً في سلوكه يقود حتى مصبه. الوادي الكبير لم يكن يوماً دفاعاً، بل مجرى مواصلات، ولا حاجزاً بل رابطاً. السيء والحسنُ الذي زار الأندلس من الشمال هبط عبره؛ ولا أدري ما إذا كان أحسن أو أسوأ من الذي جاء إلى الأندلس من الجنوب. أنا مجبرة الآن على قول شيء ربّما أثار فضيحة أفضّل قوله بكلمتين: ساعدَ مؤسّسُ الأسرة فِرناندو الثالثَ على احتلال قرطبة. كتب التاريخ الإسلامية تمتنع عن ذكره؛ التحالف تَمّ بسرّية تامّة لتفادي الاضطرابات والمنغصات اللاحقة. بعد سقوط قرطبة تَمّ توقيع معاهدات سلام، تحالف من خلالها المؤسّسُ مع الملك النصراني في مواجهة المُسلمين، الذين هُم حكماً أتباعُ ابن هود، الذي استمرّ بتنغيص عيش الجميع وبالتقهقر. ضَمِن محمدٌ لنفسه بهذه المناورات الذكية عوناً مثمراً في غرناطة، وأسلمت جيّان نفسها إليه مرّة أخرى بكلّ سرور. أحبّ الأندلسيون رايته الحمراء ـ صارت حمراء للأبد ـ مقابل راية خصمه السوداء. في ألمرية وبعد مؤامرة لا يمكن التأكّد من أنّ النصريَّ كان غريباً عنها، مات ابن هود اغتيالاً، وبالحديد على يد أحد من حماهم. كان المؤسّس مالكاً لبياسة ووادي آش، والآن استولى على ألمرية، عاصمة بني صمادح القديمة ـ الغنية والصناعية والبحرية والمطموع بها ـ، التي نودي به في قصبتها. ومالقة، التي أنهكتها التقلبات وكانت تهفو إلى الاستقرار، قدّمت نفسها إليه على الفور. راحت إذن مملكتي تُدرك الحدود التي لا تختلف كثيراً عن التي كانت لي، لكنّها أوسع بكثير وللأسف من التي أدركتها. في هذه الأثناء كان النصارى يُوضّحون مواقفهم؛ لا تاريخ المسلمين له معنى دونهم ولا الشقاقات والخيانات كانت تتمّ بين المسلمين وحدهم. فخايم الأوّل ملك أراغون، وفِرناندو الثالث ملك قشتالة كانا من تقاسم عالم النصارى، كما حدث لنا مع بطلينا. فبلنسية مع بَنيسكولا (بنتكلة)

وشاطبة وجزيرة شقر احتلها الأراغوني؛ وكانت مرسية ما تزال تحت حكم ولدِ ابن هود؛ وسيطر أحد الفارّين من الموحّدين، ابن محفوظ، على لبلة الحمراء، بينما كانت شريش المملكة المحدودة في يد أبي خالد... هكذا هي الأمور، شعر القشتاليون لأوّل مرّة بحبٍّ تجاهي: حبّ جامح وطويل، تأخّر قرنين ونصف حتى تحقّق. ولكي يحصلوا على حبّي ـ لا، الأفضل كي يحصلوا عليَّ ـ تطلّعوا أوّلاً إلى جيّان. لكنّ محمّداً الأوّل استبق الأمر ـ بضربة مباغتة، لأنّهم كانوا غارقين في مناوشات مع مرسية ـ وهاجمهم في أنوجار ومرطوس (مرتلة)؛ هناك هزم الأميرَ رودريغو، أخا ملك قشتالة. ومع ذلك ما إن أفاقوا من غفلتهم حتى ردّوا بعنف وحاصرَ نونيو غونثالِث، الذي سيصبح فيما بعد صديقاً عظيماً لنا وعاش زمناً طويلاً معي، أرجونةَ واحتلها في أقلّ من شهرين. وأرجونة، مهد الأسرة الملكية، كانت ما تزال مثل طفل لا يكاد يقفز من بين يدي أمّه. وإذا بدا أنّ الردّ لم يكن كافياً فقد قرّر الملكُ فِرناندو أن ينتقم من جيّان. كان المؤسِّس يُدافع عنها، والقشتاليُّ يحاصرُها بالجوع. قطعَ الطرقَ التي تربطها بمرجي، وجلس ينتظر وهو يُصلّي. قاوم النصري ستّةَ أشهر، ثمّ استسلم خوفاً من الشروط القاسية التي فرضوها على مرسية. لإرضاء ضميري يجب أن أقول إنّه قد غُدِر به من الداخل: صادر النصارى بتوجيه من جواسيسهم أكثرَ من ألف وخمسمئة حمل دابة من المؤن، وهو ما جعل التموين مستحيلاً. خلال تاريخ الأسرة الوعر لم يكن من السهل شراء المساعدات بالمال: بشراء الأصدقاء والأعداء كان الأخيرون دائماً أكثر ثباتاً. وُقّع ذلك السلام لعشرين سنة، لكنّ شروط الملك الورع القديس كانت من القسوة بحيث أنّها لم تُضمَّن في أيّ وثيقة؛ ربّما رأى من وقّعوها أنّه لم يكن من الفطنة تسجيلها: الوثائق تُوقَّع من أجل تنفيذها بشكل أفضل، لكن هناك مناسبات تكون فيها النوايا بعدم التنفيذ سابقة على توقيعها. في آذار 1246 دخل النصارى، وهم يغنّون، إلى جيّان. كانت ظهيرة حين أقيمت في جامعها آخر صلاة، فقد تحوّل في المساء إلى كاتدرائية.

مدينة أخرى حصينة فتحت، وهو ما يحدث حين يكون المهاجمون أقوياء بما يكفي عدداً وعدّة. ونظراً لشخصية من احتلّها بدلت جيان اسمها: سَميَتْ المملكة المقدّسة.

لم تفعل هذه الفاجعة غير أنّها أقرّت بما كان مكتوباً: بعد وقعة العقاب بدأت مفاصل باب الأندلس تصرّ كي يُفتح. المملكة الإسلامية الوحيدة التي استمرّت ـ مملكتي ـ فقط كان باستطاعتها الاستمرار إذا أصدرت حكمها على نفسها بنفسها بالموت: التبعية. فكّرنا بها لحظةً كيلا نعود ونفكّر بها أبداً: قبل أو بعد، كانت النهاية تنتظرنا بشكلٍ مشؤوم. كنّا نعيش على الاقتراض، وبأجرة عالية الثمن جدّاً بالنسبة إلى ما كان في جيوبنا، وكنّا نفعل كلّ ما نفعله لأنّه كان مسموحاً لنا به؛ فإذا ما اتفق النصارى ذات يوم لن يبقى أمامنا إلّا أن نحزم أمتعتنا. كُنّا المُتسامَح معهم، وكان التسامح مع التقلّبات والحروب الكثيرة الوشم الذي وشم أسرتنا الحاكمة، بل وأكثر من ذلك سمح النصارى لمملكتي بأن تنمو براحةٍ وجودِ عدوٍّ وحيدٍ يأخذُ ويتكفّلُ بالقضاء على الأعداء الآخرين. والدليل على ذلك هو أنّ خايم الأوّل وصهره ألفونسو العاشر، ابن القديس، تقاسما، في بداية أيامَ الأسرة النصرية، ما سمياه بحرب الاسترداد، كما لو أن الأمر يتعلّق بمنطقة صيد: رسما خطّاً في مملكة مرسية من شاطبة وحتى أنتقيرة وتقاسما المحميات. منذ تلك الساعة سُمِح لمسلِميَّ بالاقتتال، كما لو أنهم كانوا المالكين الحقيقيين للمملكة؛ والنصارى يهبطون من حين لآخر ليوسّعوا أراضيهم ويُعزّزوا قوّتهم بمالنا، ويربّوا أبناءهم، ويحاولوا أن يتهذّبوا بتقليد عاداتنا. لقد تركوا مُسلميَّ يزرعون الأرضَ ويدفعون الجزية، التي بها كانوا يشترون. تركونا نكذبُ على أنفسنا ونحلم، لكنّنا كنّا نعيش بشكل مؤقّت، ومالك أرعن أو أقلّ تفهّماً باستطاعته أن يرمي بأثاثنا في عرض الشارع... فكّرتُ في صباحاتٍ كثيرة، بائسة أو سعيدة، : لقد تسلّوا بنا بما فيه الكفاية، صادوا وصالوا كفاية؛ سئموا الصولَ والصيد، سوف يبدّلون نبرتهم... ربّما كان هذا لا يُرى إلّا من المنظور الذي يُقدّمه مرور

القرون البطيء جداً؛ لكن حتى ولو رآه أبنائي إذ ذاك فماذا كان باستطاعة شعب أن يفعل غير أن يبقى واقفاً يوماً وآخر، غير أن يُحاول أن يبقى واقفاً ما بقي حيّاً؟

وصل محمّد المؤسِّسُ إليَّ، وجعل مني عاصمةً له. أراد أن يُنظِّم مملكتي. كان يعلم أنّ هذه المهمّة بطيئة. أنا أيضاً أعرف هذا الآن: إن حقلاً يمكن أن يُحتلّ في صباح واحد محظوظ، بعدها يجب زراعته وحراسة الموسم مع أخذ الشمس والمطر، الصقيع والبرد والحرائق والفيضانات بالحسبان. وقد احتاج محمّد الأوّل لذلك الهدوء والسلام وكان عليه أن يدفع ثمنه؛ احتاج للكثير من الطاعة واضطرَّ إلى فرضها. من حسن الحظّ أن المناوشات أعدّت له شعباً مستعداً للطاعة. عرف كيف يستخدم التهديد النصرانيَّ سلاحاً: لم يكن بدعة، لكنّه أحسنَ استخدامه. رمَّم بصرامة النظامَ العام الذي يسوء حاله بعد الحروب. احتفى باللاجئين من المدن المجاورة؛ فتح لهم أبوابي وأسكنهم في سفح البيازين، كي يبقوا مقابل السبيكة، تحت النظر والمراقبة، لأنّهم كانوا يُضاعفون أذرع شعبه وعشّ دبابيره في آنٍ معاً. كانوا يأتون من مرسية وبلنسية أسراباً؛ يبكون على حياتهم المسحوقة ويتلهفون لإعادة بنائها. كانوا في العادة أناساً مجدّين ـ أكثر من الذين كانوا هنا ـ يُذهَلون من جمالي. رأيتُ بعدها الكثيرين منهم يصلون: يُخفّفون دموعهم بالخرق الخشنة: يحملون بين أذرعهم سلال نكرياتهم وعلى حميرهم الصغيرة نساؤهم مختلطات بعفشهم. وخلفها قافلة من الأبناء الواجمين. المهزومون من أيّ فريق كانوا لهم العيون المُبلّلة ذاتها دائماً. كان المؤسِّسُ صارماً خاصّةً في جباية الضرائب، فهي والغنائم مصدر دخله الوحيد: لم يكن باستطاعته أن يغفل عنها. وكان يفرض دفعها على المواطنين كما لو أنّها ثمن الأمن الذي يبيعه لهم؛ كانت شرطاً ثابتاً للدفاع عنهم. وقام بتوقيف وتعذيب الجباة بهدف جمع الضرائب غير المسدّدة في فترات سابقة، حتى اعترفوا بأسمائهم وبالمشاركين وبالمجوهرات. مثلاً، كبيرُ جباة ألمريّة *أبو محمّد عروس* مات تحت التعذيب. كان القرار المتخذ لا عودة عنه: إدارة

مملكتي بدقّة ويدٍ من حديد، كمن يدير مزرعة خاصّة، بالحقوق المطلقة ذاتها وبالحب والمسؤوليّة ذاتهما. صعد ذات ظهيرة إلى حصن الملوك الزيريين، الذين انتهوا نهاية وخيمة، نظر إلى الأسفل وقال: «هذه ستكون داري» وبانتظار أيّام أفضلَ نام على دكّة خشنة فيما يُسمّى اليوم ببرج التكريم. من هناك وُلِدَت قصور الحمراء كلّها. بين القبب البيضاء والقاسية تحت القباء البدائية غذّى قدرَهُ وتغذّى بحماسِ السلطة، التي لا تُغذّي من لا يشعر بها. راح يشيد المملكة حوله، على قدّه، كمن يُفصّل ثوباً. أمّا بالنسبة للخارج ولكي يتقي شرّ ملكِهِ، ملكِ قشتالةَ، وبالأمل القديم بإزاحته عن كاهله عند أوّل فرصة، مال باتجاه أخوته المسلمين في المغرب، أي أنّه وضع الإيمانَ فوق الجيرة. آمن بالدين، لكن دون تعصّب، ما لم يكن يفيده هذا التعصّب؛ فهم الدينَ واستخدمه كشيءٍ مناسب ومعقول يطلب مساعدته عند اللزوم. لأنّ الدين، إذا لم يكن شعيرةَ حبّ داخلية يكون سراباً مترائياً، نداءَ استغاثة أو صرخة حرب.

وضع الملك فرناندو الثالث إشبيليةَ هدفاً تالياً له. احتاج حصارها ودخولها كاملَ قواه؛ اقترب منها برّاً ونهراً: حتى الأميرال الباسكيّ بونيفاثْ هبط من الشمال. كانت ضربة حظّ تستحق المعاناة. كان محمّد المؤسّس يشكّل جزءاً من قوى القدّيس الكاملة؛ وساعده على احتلال إشبيلية. انتقل الدين، بالتالي وفي هذه الحالة، إلى المكان الثاني، كانت هناك ضغوط أكثر إلحاحاً. في رمضانات أخرى كان النصارى يميلون إلى استغلال صيام المسلمين، بعد ستّة أشهر من الحصار ـ حدث ذلك في تشرين الأوّل 1248 ـ، استسلمت مدينةُ الجيرالدا(*). حين عاد المؤسّسُ إلى ذراعيّ هتف له مواطنيّ صائحين: «غالِب! غالِب!»؛ لكنّه قال، هو الذي كان يعرف تماماً مايقول: «لا غالب إلّا الله». اختزال خطيئته هذه وأصبحت مذّاك شعارَ الأسرة الحاكمة.

(*) إشبيلية. م.

لكنَ النصريَ، المتوجِّسَ من قوّة قشتالة، عاد ووضع الدينَ من جديد في المقام الأوّل: وجد نفسه مجبراً على مبايعة خليفة بغداد. كلّه خضوع، فاختار الخضوعَ للكبير الأبعد. لم تدم العلاقة طويلاً؛ فما إن رأى أنّ الموحّدين يستعيدون قوّتهم في شمال أفريقية حتى عاد بنظره إليهم وبايعهم، وانضمّ إلى سلطان مراكش الرشيد. لكنّه سرعان ما مات فلم يتردّد في التوجّه إلى أمراء بلاد البربر وتونس، أعداء الرشيد. علائم الخضوع بالنسبة للضعفاء، بل ولمن يبدؤون بالخروج من الضعف، هي الأكثر فاعلية، والفاعلية ليست المآثر ولا الملاحم، هي التي يجب أن يتطلّعوا إليها. كي يصبح المرء رأس فأر من المستحسن أن يمارس أوّلاً دور ذيل الأسد، ويملك فكرة صحيحة عن قيمته هو: كلّما كانت أصغر كانت أكثر دقّة.

لم تصل سنواتُ هدنة جيّان العشرون، كما كان متوقّعاً، إلى نهايتها، وإن دامت كثيراً؛ دامت الفترة التي تطلّبها تثبيت قدم المؤسّس فيّ وسماعه وقع خطواته. بعد ثمانية عشر عاماً تجدّدت العداوات. بعضهم يؤكّد أنّها جاءت نتيجةَ الدعم الذي قدّمَهُ المؤسّسُ لمُدجّني إشبيلية، الذين أرادوا اغتيال ألفونسو العاشر؛ وآخرون يؤكّدون أنّها كانت مصيدة نصبها النصارى لقتل المؤسّس. حين يُقدِّر المتنازعون أنّهم أصبحوا جاهزين، فأيّ ذريعة تصبح جيّدة؛ ربّما كان هؤلاء وأولئك هنا على حقّ: تمّت القطيعة للسببين، هذا إذا كانا يجهلان أيّهما حدث أوّلاً أو أنهما تزامنا. المسألة هي أنّ محمّد الأوّل عاد وقدّم الدين: طلبَ المُساعَدة من بني مرين، الذين حلّوا نهائياً محلّ الموحّدين في مراكش. أرسلوا إليه متطوّعي الإيمان الأوائل، وأُعلن الجهاد. وباسم الله تمّت حماية ـ طبعاً وقبلها إثارة ـ مُدجّني شِريش ومُرسية، الذين كانوا يلفظون أنفاسهم. كانت سنوات السلم قد عزّزت محمّداً: صار الأمير الوحيد المطلوب. وثارت أطريرة ولبريجة، على هدي البلدان الأخرى واقتراحاتِ الأمير، ضدّ النصارى. فاشتعلت الأندلس مثل منارة؛ المؤسّسُ، الحاذقُ والمتمكّنُ هو الذي أشعل الفتيلَ؛ كثيرة هي

البلدان الحدودية التي انضوت تحت رايته. كانت الرمّانةُ تتكوّرُ حبّة فحبّة.

لم يدم ذلك طويلاً، إذ حاصر الحموُ والصهرُ النصرانيان مرسيةَ وضايقوها، ضايقوها بكلّ المعاني، بأسوأ المعاني، وتجرّأ الصهر، ألفونسو العاشر على مهاجمتي، أنا نفسي. لم ينجح، لكنّه تجرّأ وهذا يكفي. لكنّه نجح في شريش ومدينة شذونة. بدأت الرمانةُ تنفرطُ قبل أن تنضج تماماً تأخذ حدودها المنطقية. بالإضافة إلى ذلك ظهرت لمحمّد، الذي لو اختلف الظرف لتصرّف بطريقة أكثر حسماً، مشكلةٌ في غاية الخطورة؛ خطيرة إلى حدّ أنّها كانت تؤثّر على وجود واستمرار المملكة. كان محمّد قد دخل في السياسة مع أبي الحسن علي ابن أشقيلولة، ابن بلده ورفيقه وقريبه. كلاهما كانا ثغريّين ويشكّلان جزءاً من رابطة من المحاربين ذات طبيعةٍ دينية، صوفية إلى هذا الحدّ أو ذاك، يترأسها ابن الأحمر، الذي بقي، حتى بعد أن قُلّد أميراً، خشنَ اللباس، ينتعل الصندلَ ويرتدي الثيابَ المرقّعة. كان نسيبه عليّ ذراعه القويّ، نظراً لتكوينه الفكري والعسكري، كما اعترف بذلك ابن الأحمر عند تولّيه السلطة وتسليمه عليّاً قيادةَ جيشِ غرناطة برتبة رئيس. تزوّج ولداه أبو إسحاق إبراهيم وأبو محمّد عبد الله من ابنتي المؤسّس، وهو ما ضاعف الروابط الأسرية لتعزيزِ الوعود بأنهم سيرثون المملكة. وعند موت علي ابن أشقيلولة عيّنَ محمّدٌ أبا إسحاق، الابنَ الأكبر وحاكم قمارش، ليحل محلّه على رأس الجيش. وحين توفّي حاكم مالقة اسماعيل النصري، أخو المؤسّس، عيّنَ ابنَ أشقيلولة الأصغر ليحلّ محلّه. في ذلك العام بالذات كان أن انهار التوازن، أوّلاً لأنّ مُحمّداً قرّرَ أن يُعيّنَ أولادَه ورثة للمملكة؛ وثانياً لأنّه بمجيء محاربي بني مرين اتهمَه أبناءُ أشقيلولة بأنّه أعطاهم ما كان عليه أن يُعطيه لهم. ونظراً لإحساسهم بالغبن فقد أعلنوا استقلالهم في مالقة ووادي آش، وطلبا المساعدة من ألفونسو العاشر. شعر هذا الملكُ بالسعادة لاستخدام النهج النصراني القائل فرّقْ تَسُدْ. فقد كان أسلوبُ زرع

الشقاق أسهلَ الأسلحة ضدَّ مُسلِميَّ وأكثرها إثماراً؛ وما إن وضع بين أيديهم حتى تكفّلوا هم أنفسهم بإلحاق أبلغ الضرر بذاتهم. وإن كان صحيحاً أيضاً أنّهم هم أنفسهم تخلّوا عن استخدامها ضدّ النصارى حين لم يعد أمامهم أيّ إمكانية لاستخدامها. لكنَّ بني أشقيلولة استخدموها فعلاً: الابن البكر لمحمّد الأوّل، الذي كان سيرثه تمكّن من التفريق بين أقربائه وألفونسو العاشر، فوقّع سلماً مع هذا الأخير في قلعة يحصب (ابن زيد)، المسماة الآن بالقلعة الملكية. كان سلاماً غالي الثمن: مئتا ألف مرابطيّ في العام مع التنازل عن شريش ومرسية (كانت هذه الأخيرة مع إشبيلية عيني الملك) ومدّة عام كي ينصاع آل أشقيلولة. كان سلاماً غالي الثمن، لكنّه مربح ما دامت شروطه تُنفَّذ؛ ومع ذلك لم ينفَّذ الشرط الأخير الذي لأجله ووقّع السلام. فالفونسو، قليل الوفاء بكلمته، مكتوبةً كانت أو غير مكتوبة، هزَّ كتفيه ؛ فالمسألة كانت، بحسب قوله، عائلية. لكنّه هزّ كتفيه تماماً حتى كاد أثرياء قشتالة يُطيحون برأسه. وكان يرأسهم ذاك المدعو نونيو غونثاليث دِ لارا (ذنونه)، المعارِض لنا تماماً قد عرض الآن مساعدته على محمّد الأوّل ضدّ آل أشقيلولة، وإن لم يجده ذلك نفعاً. لذلك اختار محمّدٌ، الحذِر من انتقام قشتالة نظراً لتحالفه مع المتمرّدين، التحالفَ مع آل أشقيلولة بشكل مباشر تقريباً؛ وكان الوسيط هو التاهورتي وهو مراكشيّ من الأتقياء الذين يكرسون أنفسهم للجهاد بإيمان صادق إلى هذا الحدّ أو ذاك. ومن جديد كان من المناسب اللجوء إلى الدين ورفع القلب واليدين إلى الله، وتوقيع الصلح الذي يهدّئ آل أشقيلولة مؤقتاً، واعتمد محمّد الأوّل هذه المرّة على الدين للأبد، اعتمد على السماء، لأنّه لم يستطع أن ينزل بقدميه عن الجواد، الذي حمله في غارة عقاب على رندة إلى الأرض. كان الجواد أصيلَ النسب، عصبياً وأسود مثل غراب؛ هوى الأميرُ الذي كان يمتطي الجواد كما لا يمتطيه أحد في العالم، لم يتمكّن من الهبوط. مات بعد صلاة ظهر يومِ الثاني عشر من شباط من عام 1273 عن عمرٍ يُناهِز السبعين.

ومملكتي كانت بين شدّ ورخي هناك؛ يقول ابن خلدون إنّها كانت تمتدّ طولاً من رندة وحتى البيرة مسيرةَ عشرة أيّام من الشرق إلى الغرب، وعرضاً من البحر إلى الشمال مسيرةَ يومين.

صار محمّد الثاني أميراً في الثامنة والثلاثين من عمره. سمّوه الفقيه لأنّه كان أكثر أبناء أسرته تنوّراً: مَلَك من الوقت ما يكفي كي يتنوّر. كان دارساً ورعاً للقرآن ولجميع قوانين وفنون ازدهاري الثقافي. فقد حوّلني إلى مرجلٍ للأدب والشعر. اعتُبِر، هو الذي ينتمي إلى الجيل الثاني، أميراً أكثر من أبيه وإن كان أقلّ منه قائداً، وخصّص قسماً من وقته للفكر والبذخ. هو الذي أهدى منية درب الناس ودرب زوبيا إلى نونيو غونثالِث دِ لارا (ذنونه).

وكإداريٍّ جهّز الإمارةَ بمؤسّساتٍ خفّفت من ثقل المناهج الأموية التي كانت ما تزال نافذة، أصلح الوزارة، بقيادة رئيس وزراء وديوان، التي كانت تهتمّ بتحرير المراسلات والمدوّنات الرسميةِ وكذلك بنصوص المديح التي تثني على الأسرة في الأعياد والأعراس والولادات والأسفار والعروض. هذا الديوان الذي استخدم في أعماله الورق القِرمزي دائماً، تمكّن خلال قرنين من جمع أسماء خالدة شرّفت أو دنّست الديوان. وقد توالى عليه من الرؤساء لا أكثر ولا أقلّ من ابن العُبَيْد، الذي استُبدِل لكثرة شربه للخمر (سألتُ نفسي دائماً إلى أيّ حدٍّ كان يشرب حتى عاقبوه بهذه الصارمة)؛ ابن الحكيم، الرندي، الذي مات بشكلٍ مأساويٍّ خلال فترة حكم الملك التالي، التي تولّى فيها سلطةَ الأمير؛ ابنُ يحيى، شاعرُ الحمراء الأوّل، الذي زرع كثيراً من ستوق المديح؛ وابن الخطيب، تلميذه، الشكّاك، مثل جميع الذين يتخطون الحجم العادي، وابن زمرك، تلميذ السابق وثالث شعراء الحمراء، الذي لا أدري ما إذا كنتُ سأصنّفه بالشكّاك.

التقى محمّد الفقيه مع المتمردين من أثرياء قشتالة والمتمرّدين من أقربائه من آل أشقيلولة؛ فقرّر الأفضلَ: ضرب هؤلاء بأولئك. ومن أجل هذا وعد الأوّلَ بألاّ يوقّع سلاماً منفصلاً مع ملكهم، وما

فعله هو بالضبط أنّه وقّعه. متوقّعاً أنّ النبلاء سوف يعاودون آجلاً أو عاجلاً طاعتهم الطبيعية، تفاوض مع ألفونسو كي يترك له آل أشقيلولة، الذين شكلوا هاجِسَ بني نصر ـ أو أحد هواجسهم ـ لوقت طويل، ربّما لأنّه لا يوجد إسفين أفضل للخشب من الخشب ذاته. ومع ذلك فقد خدع القديسُ الفقيهَ: تظاهر بالتساهل، لأنّه كان محاصراً بمصاعِب سياسية خارجية مع آل أنجو والبابا، ووعدت زوجتُه الملكة بيولانتِ بالتدخل أمام آل أشقيلولة لصالح الفقيه. بالمقابل ولكي يخفّفَ من فقر قشتالة المدقعَ الدائم، وعد بأن يُعطيه ثلاثمئة ألف مرابطيّ سنوياً ـ وكان عطاء كبيراً ـ على أن يقطع صِلاته بالرجال الأثرياء. لكن ما إن نُفّذ الوعدُ، حتى طلب منه القشتاليُّ أن يمنحَ آلَ أشقيلولة هدنةً لمدّة سنتين. استطاع الأميرُ، الذي كان محقّاً في حنقه، أن يقلّصها إلى سنة واحدة، بالعاً غضبه، مقسماً في داخله بأن ينتقم من قشتالة. حاول ذلك من خلال تحوّل في سياسته الخارجية ملتفتاً إلى أفريقيا، مُتّبِعاً مَثَلَ أبيه المرحوم ـ هذا إذا لم يكن الأب باستخدامه للشيء ونقيضه في آنٍ معاً يُقدّم مثلاً أعسرَ ـ. لكنها لم تكن محاكاةً حميدة من الابن، ولا انتقاميةً، بل ـ من العدل قوله ـ لأنّ حاكم الجزيرة الخضراء كان قد أعلن استقلاله، وفصل بذلك أمارةَ المضيق، الأمر الذي كان من المحال عليه قبوله وشكّل أحد هواجِس بني نصر الأخرى. أرسل الفقيهُ سفارةً إلى السلطان المراكشيّ، أبي يوسفَ؛ أعلمه فيها بمبالغة عن الملاحقة التي يتعرّض إليها الأندلسيون، وعن حتمية قيام حربٍ مقدّسة جديدة. وقد ملك مهارة اللاعب النسبية: نفخ الغيرة الدينيةَ عند المغاربة، لكنّه أيضاً أيقظ، دونَ قصدٍ منه، طمعهم بالثروات الأندلسية وما هو أسوأ من هذا وذاك هو التوق الأفريقي بالسلطة الذي كان قد دفع بجائحة المرابطين والموحّدين في موجتين سابقتين وبالذريعة الدينية ذاتها. من حسن الحظّ أو سوئه ـ المسألة التي لا تُعرف في السياسة إلّا في النهاية ـ هي أنّه خطرت ببالِ آل أشقيلولة فكرةُ الفقيه ذاتها: فهم أيضاً أرسلوا سفارة إلى أبي يوسف. لسان ميزان الأسرة أصبح

في أيدي الغرباء. المراكشي الذي انتفجَ أرسل ابنَه أبا زيّان؛ وجاء هذا قبل أن يتخذ موقفاً إلى جانب أيٍّ من الفريقين، أو موقفاً معادياً للطرفين، واحتلّ الجزيرةَ الخضراء وهاجم مالقةَ آل أشقيلولة. لكنّ آل أشقيلولة، الذين تعلّموا الدرسَ، صدّوا الهجوم، واقترحوا عليه أن يدخلوا في خدمته بكلّ خيَالاتهم الفروسية ومواقعهم ودون أيّة فترة انتقالية ـ وهذا ما يُدهِش من لا يعرفون مسلِميَّ ـ دعا أبو يوسف في الجزيرة الخضراء المحتلة معتدّاً بهذا السلوك لاجتماعٍ يعرض فيه الأميرُ وأقرباؤه وجهات نظرهم. حضر الفقيهُ وقامت بين السلطانين مشادّةٌ جعلت سلطاني يعود إليّ غاضباً دون أن يودّع السلطان المغربيّ، وقد خانه الجميع، لكن دون أن يُصعَّدَ الحالة. منذ تلك اللحظة راح آل أشقيلولة يتعاونون مع المراكشيّ في غاراتهم على قرطبة وجيّان وبركونة وأرجونة (وعاد هذان الاسمان مرّة أخرى للظهور) اللتين خرجوا هم وأمرائي منهما. قادت الهزيمة التي حلّت بالقشتاليين في إستيجة وإشبيلية إلى هدنة عامّة، دبّرها رجال دينٍ، نصارى ومسلمون. هدنة لم يكن أمير غرناطة بغريب عنها، وهو المعزول بسبب انزعاجه: الانزعاج الذي عرف كيف لا يقدّمه على المصلحة.

الصحيح هو أنّ آل أشقيلولة، رجالَ الجيل الثالث، كانوا في حالة صعبة في مالقة وحاولوا أن ينقذوها ليس بأقلّ من تسليمها للسلطان المراكشيّ كي يحافظ عليها. كم هي مجازفة كبيرة أن يوكل للذئب بحراسة القطيع. المراكشي، المسحور بالطقس أقام في مالقة لعدّة أشهر وعيّنَ خالاً له حاكماً عليها، عمر بن محلّي وعاد إلى مراكش. محمّد الثاني المستنفر قليلاً، والمبالغ في استنفاره، كان يُصرّ على تشبيه زيارة المريني باجتياح المرابطين والموحّدين. نسي أنّ الحرج يعود في قسم كبير منه إلى تدخّله، ورغم ذلك تمكّن من إحياء الحماس الذي أحدثه الخطآن التاريخيان السابقان، ذهب فيهما أبنائي الأندلسيون في طلب الصوف فعادوا وقد جزّوا لهم شعرهم. بلغ خوفه ـ مثل طفل يخترع الشبحَ ثم يصرخ ـ أو تظاهر

بأنّه خائف ـ مثله مثل من يشرب خمراً ليقوم بما يعرف أنّه سيقوم به بعد أن يشرب ـ بحيث أنّه استسلم بقليل من الغباء والجنون، للتحالف مع من يستطيع. تحالف مع أمير تلمسان كي يمنع هذا أبا يوسف من المرور في مملكته حين يُقرِّر المجيء إلى الأندلس، تحالف مع بِدرو الثالث (بطرة) ملك أراغون كي يبقى على الحياد، وتستمرّ علاقات الغرناطيينّ التجارية المزدهرة مع البلنسيين، تحالف مع ألفونسو العاشر (أذفونش)، كي يُهاجِم الجزيرة الخضراء فتنقطع بذلك الاتصالات بين مراكش وشبه الجزيرة ويستطيع الأمير استعادة مالقة.

ومع أنّ ذلك يبدو مُحالاً إلّا هكذا حدث. هاجم الأميرُ دون بِدرو (بطرة) القشتالي الجزيرةَ الخضراء وأقنع بعضُهم عمَّ السلطان المريني حاكِمَ مالقة، بأنّه سيكون من غير المجدي أن يُقاوِم وأنّه سيربح أكثر إن هو استبدلها بشلوبانية والمُنكَّب. وعادت مالقة بعد سنوات كثيرة لحضن مملكتي. وما إن حقّق الفقيهُ هذا حتى اعتبرَ أنّ حصارَ الجزيرة الخضراء لا يهمّه كثيراً، وانتقم من ألفونسو (أذفونش) مبدّلاً عدوّه: ما أطول عمر قرحة الذاكرة! تصالح إذن مع أبي يوسف، الذي وعدَه بأن يُسلِّمه الجزيرةَ الخضراء ما إن يُرفع الحصار. ومن أجل هذا وجّه الفقيهُ قوّتَه ضدّ قشتالة. لكن ما إن رُفِع الحصارُ أخيراً، حتى طالبه المراكشيّ بمالقة مرّةً أخرى مقابل الجزيرة الخضراء، هنا يُعطون وهنا يأخذون. غضب الفقيهُ هذه المرّة أكثر من المُشادّة الأولى ورفض العملية، فوقّع المراكشيّ تحالفاً مع قشتالة وعادَ إلى المغرب وترك ابنَهُ أبا زيّان في حربٍ مع مملكتي. وهنا وجد الفقيهُ أنّه أمام عدوّ ثلاثيّ: آل أشقيلولة، وسلطان مراكش، وملك قشتالة، الذي لم يغفر له مقلبَ الجزيرة الخضراء. فغزا مملكتي من الشمال دون بِدرو (بطرة) الطامع بالعرشِ، ومن الجنوب الملكُ مع آل أشقيلولة في وادي آش وقمارش، عشّ النسر الذي لجأ إليه من مالقة. لكنّ الفقيهَ كان يملك بين جيشه حرسَ المرينيّ، أي متطوّعي الإيمان وكلّ الأمراء المرينيين الذين كانوا على خلاف مع ملكهم. هم عزّزوا قوّته

بشجاعة وصدّوا الهجمات، ولم يكن الفقيهُ يدري أنّ المرتزقة والمتمرّدين سيكلّفون مملكتي غالياً. ما من شيءٍ عبر إلينا من أفريقيا قط وحمل معه نتائج حسنة. لكنّه استولى آنياً على قمارِش راشياً الحامية.

في العام التالي ـ الله عليّ، وإن بدا أنّه لم يفِ بتحالفاته ـ بدأت محنُ العالِم، ابنِ القدّيس. وبالفعل سرعان ما تمرّد سانتشو على تفضيل أبيهَ لفِرناندو دِ لا ثِردا (فراندة)، وهو بدوره ابن الابن البكرِ، الميّت المحبوب. اعترف بلاطُ بلد الوليد بحق سانتشو وبذلك بدأ المشوار: جمع تحت سلطته كاملَ المملكة باستثناء إشبيلية ومرسية. تحصّن ألفونسو باتفاقيته مع أبي يوسف ـ كان على حقّ حين قال إنّ قشتالة عريضة ـ وتباحث سانتشو مع الفقيه، مثله مثل دون بِدرو ملك أراغون الذي دفعته خلافاته مع البابا وفرنسا إلى ذلك. وما إن هدأت حدود الشمال بهذا الشكل حتى أراد الفقيه أن يستعيد المنكَّب وشلوبانية، اللتين كانتا قد سُلِمتا وقتذاك إلى عمر بن محلي مقابل مالقة. عمر بن محلي مقتنعاً بأنّه سيتوسّطُ ـ أخاه طلحة الذي كان يسكن مثله مثل الكثير من الأمراء في الحمراء ـ في المناورة مقابل وعدٍ ليس، كما أعتقدُ، إلّا وعداً بالمُنكَّب، قاوم وتصالح مع أبي يوسف. أرسل المراكشيُ لنجدته أسطولاً دخل قوين ومدينة سُهيل (فونجيرولة) (طالما تساءلت كيف كانوا قادرين على تمييز مدنهم عن مدن أعدائهم دائمةِ التبدّلِ، وكيف كان باستطاعة هذه المدن أن تميّز من هم أصحابها). لكنّ الأسطولَ توقّف أمام مالقة. وبينما هاجم المغربيّ، بالتناغم مع دون ألفونسو، الأراضي المخلِصَة لدون سانتشو، من قرطبة إلى مدريد عبر طليطلة، سيطر الفقيه على شلوبانية على حين غرّة. لكنّ الله حملَ، لا أدري ما إذا كان إليه، في الوقت المناسب، ألفونسو العالِمَ ـ كان كذلك حقّاً ـ وتمّ تتويج دون سانتشو مع زوجته الحكيمة ماريّا دِ مولينا. استمرّ تحالفه مع النصريّ حتى بعد تتويجه، وهذ أمر ملفت للانتباه. وفي الوقت الذي بدا فيه المشهد العام مائلاً للهدوء، استغلّ الفقيه عودة أبي يوسف

إلى المغرب ـ الشيء الوحيد الذي كان يهمّه، أو هذا ما كان يقوله، هو مالقة ـ وهاجم آل أشقيلولة في وادي آش وقمارش. فتح قمارش دون صعوبة، لكنّ وادي آش رفضت الخضوع. ولم يقبل حلفاؤه في قشتالة وأراغون مساعدته، فقد كان عندهم من الشقاق ما يكفيهم كيلا يزيدوها بأخرى كانت بوضوح داخلية. لم يبقَ أمام الفقيه إلا أن يلجأ، دون أيّة غضاضة، إلى سلطان مراكش. نزل هذا للمرّة الرابعة في شبه الجزيرة وحارب سانتشو (شانجه) الشجاعَ طوال الصيف. حتى طلب هدنة معه، بعد أن أنهكه، وتعهّد له ألاّ يحشر نفسه مرّة أخرى في النزاعات الإسلامية، التي كانت آخر شيء دفعه للمجيء من أفريقيا. أمام هذا الوعد، دخل الفقيه في مباحثات مع بِدرو، ملكِ أراغون وأمراء لا ثِردا للهجوم على سانتشو. ومع ذلك فالمساعدة التي وعده بها حلفاؤه الجدد لم تصل، فاضطرَّ النصريُّ لأن ينتزع وحيداً، دون مساعدة من أحدٍ، سهيلاً (فونجيرولة) من أبي زيّان، ابنِ السلطان الأفريقي. وتباهى طوال حياته بهذا النصر.

لم يعش أبو يوسف بعدها كثيراً. خليفته أبو يعقوب الذي امتصّه حكم مراكش وقّع الصلح مع محمّد الثاني في مربلة (ماربيّا)؛ تنازل هناك عن كلّ أملاكه في إسبانيا، باستثناء الجزيرة الخضراء وطريف ووادي آش، التي كانت ما تزال تحت سيطرة آل أشقيلولة. بعد عام حدث شيءٌ لم يفهمه أحد: بعد أن ضمن مواقعه في وادي آش وبعد أن قضى حياته كلّها في هذا الصراع حمل أبو محمّد ابن أبي إسحاق أشقيلولة كلَّ أسرته ومقاتليه الذين كانوا ما يزالون معه ورحل إلى مراكش للأبد. جميع المؤرّخين يتساءلون عن السبب.

كان لبني أشقيلولة الحقّ بعرشي مثلهم مثل بني نصر، فكلاهما حصل على مملكتي بقوّة السلاح وبشرعية «حامي الإسلام»، وليس بأيّ حق في النسب القرشي، والتحالف بين بني قربى الأرحام كان له قوّة قربى العصب ـ نصريان اعتليا العرش عن طريق خط الأنثى ـ، وتحالفاتهم مع قشتالة لم تسحب الصلاحية منهم أمام بني نصر، فهؤلاء لم يكن يهمّهم أيضاً أن يقوموا بعمليات خضوع مصلحي؛

اسمهم الروماني (المشتق من إسقيولا ـ سكاندولا ـ، وهو نوع من القمح) لم يكن ليُشكّل مانعاً أمامهم. وربّما ترجمه المؤرّخون اللاحقون ببني حُبَيْب وأظهروا نسبهم التجيبيّ. وربما كانت صفة الناصري الأحمر ترجمة لاسم نهر من الأنهر صغيرة في اللغة الرومانسية العامّية.

لم يكن بنو أشقيلولة في نهاية الأمر آخرَ سلالة مسلمة في الأندلس، لأنّهم واجهوا العقل الديني، واجهوا الفقهاء: حموا متنبّئ مالقي، هو إبراهيم الفزاري، وهو ما أجبر الفقهاء على الهرب من مالقة وتسبّبوا في أنّ محمّداً بن محمّد بن هشام حين عينّ قاضياً رفض أن يقبل المنصبَ ما لم يصدّق عليه السلطان. في المواجهة بين محمّد الثاني وأبي محمّد بن أشقيلولة لم يكن قصب السبق للمهارة ولا للقوّة اللتين تمتّع بهما معاً ابنا العمّ: ربّما انتصر الأوّلُ لأنّه كان يحمل لقب الفقيه الذي استحقّه.

تقترب محمّد الثاني، الذي كان لا يكلّ، من سانتشو الشجاع ليحمله على فسخ الهدنة مع مراكش. لكنّ ألفونسو الثالث، ملك أراغون الجديد، كان يميل للتصالح مع قشتالة، وهو ما يرعب الفقيه. من هنا كان أنّه يتآمر بكلّ ما أوتي من حنكةٍ مع الملكين ويقترح عليهما فكرة تقاسم بعض مناطق النفوذ في بلاد البربر، كي يسلّيهم عنّي. وتمكّن دون أن يكون حاضراً، من توقيع معاهدة مونتغودو، التي أظهرت أنّ أقصى ما يصبوا إليه النصارى هو القتال ضدّ المغاربة. لكنّه لم يكتفِ بهذا، فتفاوض من جديد، وعلى انفراد، مع القشتالي. بقي اتفاقه السرّي للغاية في ملفات الحمراء؛ وكان سانتشو بموجبه مجبراً على محاربة بني مرينٍ في طريف ـ بوّابة إسبانيا أمام أيّ غزو جديد ـ وما إن تُحتلّ وتُسلّم للفقيه حتى يكون على هذا الأخير أن يعوّضه عنها بستّ قلاعٍ نصرية. كانت بنود الاتفاق تُشير إلى أنّ التسليم سيتمّ بعد الاحتلال، في ظلّ معاهدة مزيّفة تالية عليها، وأنّ مساعدة النصري للقشتاليّ يجب أن تبقى سرّيّةً كيلا أدخلَ في عداوة مع مراكش. وما إن قلبَ ظهر المجنّ

وهو ما كان يثير حماس محمّد، حتى حاك هذا تحالفاً ضدّ السلطان، دخل فيه ملكُ تلمسان إلى جانب ملكَيْ أراغون وقشتالة. أعلن أبو يوسف المستنفر الحربَ. هاجم سانتشو طريف واحتلّ أبنائي الحصونَ، التي كانت قريبة منّي، وهاجم التلمسانيون مراكشَ والأراغونيونِ منعوا المغاربةَ من مساندة أبناء بلدهم بحراً في طريف. واحتلّت طريف أخيراً. لكنّ سانتشو رفض ـ فجوراً وعهراً ـ تسليمها للفقيه الذي أطلق العملية، كما لم يُعد الحصون الستّ التي أُعطِيت له ضماناً. عاد السلطان لينظر بشكلٍ طبيعيّ إلى سلطان مراكش، دون أن يفهم أنّ هذا الرفض نوعٌ من العقاب على مكائده المتطرّفة، فرفض، رغم كلّ المقترحات القشتالية، التصالحَ مع سانتشو لأنّه ـ كما كان يقول ـ خدعه ولم يفِ بكلمتِهِ. ذهب شخصياً إلى طنجةَ، وأثار حميّة إبي يعقوب بخطابه الديني، أعلنا الحربَ وهاجما معاً طريف، التي أنقذها ألفونسو بِرِثْ دِ غوثمان، الذي لهذا السبب سمّي بالصالح. اتهم أبو يعقوب الفقيهَ وابنَه الذي كان يرأس الأسطولَ، الذي لم يُحَرِّك من مالقة، بالفشل. (كانت له بعض أسبابه: فقد ناوش القشتاليون بيرا في منطقة مُرسية لإشغال القوات). أبو يعقوب الخائب والمخدوع والمنهك، مثل والده قبله، رفض أن يتدخّل بعدها في متاهةِ عدمِ توازنِ شبه الجزيرة المتوازنِ وعاد إلى أفريقيا متخلّياً عن كلّ مواقع بني مرين هنا. (ليس من الضروري أن نقول إنّ هذا كان مقابل امتيازات تجارية هائلة وأموالٍ، لأنّه لم يكن باستطاعة وهنه وخيبة أمله أن تمضيا به إلى أبعد من ذلك).

احتلّ محمد الثاني مرتاحاً ومستمتعاً الجزيرةَ الخضراء، التي كانت قد هجرت للتو. لكنّ استيلاءه على رندة كلّفه أكثر بكثير. فقد أعلنت استقلالها تحت حكم بني الحكيم بعد هزيمة طريف حين رأت أنّ أمنها ليس مضموناً. (إن تبعية دون هذا الضمان لا معنى لها). أمام مِنعة رندة الأسطورية، استخدم الفقيه مكيدةً: رشا أحدَ أمناء بني الحكيم وبدأ مباحثاتٍ تضمّنت أربعة مطالب وصلت إلى نهاية جيدة: ما من أحد من أقرباء السلطان النصري يقيم في ضواحي رندة ـ خوفاً من محاباة الأقرباء من ناحية ومن ناحية أخرى خوفاً

من نداء الدم للعرش ـ ؛ ويمنع على متطوّعي الإيمان أن يبيتوا فيها مهما كانت الذريعة؛ ويُعفى من الضرائب المتراكمة ويمنع أيّ انتقام من الاستقلاليين.

وبينما كان الفقيه يسويّ حدودَه ماتَ الشجاعُ في قشتالة. وخلفه ـ هذا ما كان ينقصنا ـ طفل في التاسعة من عمره، فِرناندو الخامِس. وكان وصيّاه أمّه ماريّا دِ مولينا والأمير دون إنريكِ. سمع الفقيه ساعة انتقامه تدقُّ. هاجم القشتاليين عبر حدودي الشمالية ومزّقهم صعوداً عبر نهر الوادي الكبير (نسي مَنْ أكّدَ أنّ مَنْ يركب النهرَ يُمكنه أن يصلَ إلى مصبّه، أنّ العكسَ صحيحٌ أيضاً). سيطر على اثنين وعشرين حصناً وانقضّ بحماس شديدٍ على قشتالة. كان كلّ واحدٍ يستخدم من جهته كلّ شيءٍ حسب مصالحه: أراغون العدوّ التقليدي؛ النبلاء الممتعضون والطامعون باستغلال ملكٍ ضعيف؛ أمراء ثِردا، الراغبون بعنادٍ بالعرش، بل والبرتغال أيضاً. لكنّ الفقيه كان من التشدُّدِ، وهو في القمّة بحيث طالب أمراءَ لا ثِردا بالكثير ـ القلعة وبشر وطريف وقشتالة ـ فلم يتم التحالف. استغلّ الأمير إنريكِ حالة التردّد وعَرَض السلم على مملكتي مقدّماً طريف مقابل ذلك. أيّ مجدٍ مجدُ تقاسم وإعادة تقاسم الوليمة وتشجيع هجرات المُدَجَّنين وليس النزوح كما حدث لاحقاً. ومع ذلك طلب محمّد المزيدَ وجدّد للضغط غاراتِهِ وحرَّضَ من مرسية أراغون على قشتالة. توغّل الأمير الأراغوني دون بِدرو وأمراء لا ثِردا خبباً في عمق قشتالة. وأبنائي الغرناطيون ضربوا دون إنريكِ وغوثمان الصالح(*)، ووصلوا إلى ضواحي إشبيلية. وهناك دخل محمّد في معاهداتٍ مع قشتالة، لكنّه سوَّف في موضوع مطالب الهدنة. احتل لحسابه ألكدية ومرتش وحتى أرباض جيّان ووصل بذلك إلى أوج قوّته. لكنّه أوقفَ فجأةً هجومَه لأسبابٍ غامضة. أكّد بعضُهم أنّ السبب هو صداقته مع الأمير القشتاليّ دون خوان، ومع ذلك فأنا لا أظنُّ ذلك: فمحمّد لم يستخدم الصداقات الشخصية قط كي يخسر. ربّما كانت قد عادت

(*) قزمان الصالح أو الطيّب. م.

لتبدأ المباحثات من أجل الاتحاد التي كانت ستفشل مرّة أخرى، أو ربّما لم يكن كلّ ما يلمع ذهباً، ولم يكن بمقدور قوّته الفعليّة أنْ تفعل أكثر من ذلك. حدث هذا في العام 1300 وفي العام 1301 هاجم فِرناندو الرابع أراغون ومرسيةَ بعد اعتلائه العرش. وكان على أراغون أن تحصل أكثر من أيّ وقتٍ مضى على دعم مُسلِميّ؛ أذعنَ أمراء لا ثِردا للطلبات، التي كانوا يعتبرونها مجحفة. ربّما إثارة هذه الحالة، وهو ما كان يتطلّب عدم إضعاف قشتالة أكثر، كانت فعلاً السببَ في ردّ فعل الفقيه. النتيجة هي أنهم تنازلوا له عنْ طريف والقلعة وغزول ودينة وشذونة وبيجير شريطة ألاّ يتصالح مع قشتالة؛ وغضّ الأراغونيون الطرفَ عن هذا التوسّع وسمحوا له به؛ لكنّ الفقيه لم يكن يثق بأراغون ولا بقشتالة؛ لم يكن يثق بأحد. وربّما لم يكن يثق حتى بنفسه، لأنّه الموتَ فاجأه خلال استعداده ضدّ الجميع، والموت وحده لا يتساهل مع أحد، كما لا أحد يستطيع أن يخدعه. في الثامن من نيسان من العام 1302 مات محمّد الثاني الفقيه مسموماً لا أحد يدري من قِبَل من ـ وهذا أفضل، إذ يمكن أن يكون أيّ شخص ـ شاهدة قبره تؤكّد أنّه خطّ بوضوح جليّ حدودَ المملكة وقضى على الفِتَن التي كانت تهدّد بتفكيكها، وجدّد نظام تعاقب الأدوار على مسرح شبه الجزيرة.

ابنه البكر ويُدعى محمداً أيضاً كان الثالث. مال منذ البداية إلى التآخي مع المغرب. كان أبو يعقوب يُحاصِر تلمسان فأرسل إليه السلطان النصريُّ الجديدُ سفارةَ صداقة ومجموعة من رماة الأقواس الأندلسيين الخبراء في الحصار. وبنوع من المراوحة تابع صراعه مع قشتالة، سيطر على برذنار وعلى هذا الموقع أو ذاك من جيّان وأرسل إخطاراً مسبقاً وصحيحاً لملك أراغون خايم الثاني، رغم اعتباره، مثله مثل أسلافه، أنّ الصلح مع الأراغونيّين ليس بذي أهمية كبيرة. ومع ذلك وقّع في العام 1303 هدنة غير متوقّعة مع قشتالة. يحتفظ بناءً عليها كلٌ منهما بما احتله. كانت مملكتي تقبل بوجود القشتاليين في أسفل الوادي الكبير، ووعد بدفع الجزية المتفق عليها بين الفقيه وسانتشو الشجاع (كانت الأهمية التي

يوليها فِرناندو الرابع للمالِ، من أجل مواجهة الكوارث المالية، واضحةٌ). أثارت هذه الهدنة غضب مراكش ـ ردّ سلطانها إلينا مجموعة رماة الأقواس ـ وأخافت أراغون التي سارعت إلى توقيع هدنة أخرى مع مملكتي لمدّة عام. ظاهرياً كان محمّد يريد حياداً تاماً. من بين قراراته الأخرى أنّه أَذِن لستّة آلاف مرتزق. جميع لاعبي الطاولة كانوا يتساءلون عمّا كان يجري، لماذا يريدُ السلطانُ النصريّ السلام، فحين يُصبح الاضطراب هو القاعدة ما من شيء يُثير الرعبَ مثل الحالة الطبيعية. خايم الثاني المتخوّف من الحالة السلمية التفت إلى قشتالة، ووقّعا في أغرِدا السلام، الذي سوّى خلافاتهم في الشرق وظهر بوضوح أنّ مملكتي مرتبطة ارتباطاً تبعياً لفِرناندو الرابع.

ما سبب محاولة السلام تلك؟ بسيط جدّاً: كان الأمير قد أُصيب بالعمى؛ ويريدُ الانسحابَ دون ضجّة من السياسة، التي سحرته، كما سحرت كلّ النصريين. لن يعود ليظهر بين الناس، لن يتأمّل قصوره الجميلة التي كان يبنيها ولن يعتني بها؛ لن يعود بمقدوره أن يقرأ الكتب التي كان يُذْهِب بها أرقه. إنّني أشعر بودٍّ خاص تجاه محمّد الثالث، فقد كان رجلاً دائمَ اليقظة وقارئاً لا يكلّ، اشتغل بجانب شموع غليظة مَعَلَّمَة تدلّه على مرور الساعات. إلى جانب محمّد الثالث كان يعمل الرئيس ابن الحكيم، الذي سيحلّ محلّه دون أن يُلْحَظَ التبدّلُ.

نظر محمدّ الثالث بإصرار وبكلّ ما يستطيع أعمى أن ينظر إلى سبتة. كان قد مضى عليها عشر سنوات غير خاضعة جيّداً لسلطان المغرب رغم تبعيتها له: كانت سبتة تُغذي نزعات الاستقلال التي يُساهم حاكم مالقة في زيادتها. حام البلاطُ النصري حول بني الصافي السبتيين، في البداية لصالحهم ثم ضدّهم. في العام 1306 ثار عثمان، المتواطئ معنا، ضدّ السلطان الذي كان قد أمضى ثمانية أعوام في حصار تلمسان، وأعلن نفسه سلطاناً. ذهب أبنائي لمساعدته وهاجموا موانئ المغرب الأوسط، كي يقسموا قوّات أبي يعقوب. قتله أحدُ الخونة من الكثيرين الذين يحيطون بالملوك. خلفه

ابنُه أبو تبيد الذي رفع الحصار عن تلمسان وواجه عثمانَ وأسّس مدينة تطوان لتكون قاعدة لعملياته ضدَّ سبتة. طلب من موقعه في طنجة من محمّد النصري الاستسلامَ؛ لكنّه مات بشكلٍ غامض قبل أن يتلقّى الجواب الغامض. وكان محمد قد حصل على لقبِ سيّدِ سبتة من خلال وزيره وبالتالي سيّدِ المجاز وهو أكثر ما يتمناه من الألقاب.

لمعتُ إذ ذاك كعاصمةٍ ثقافيةٍ وأدبيةٍ مستنيرة وعلى رأسي الأمراء الصافيون اللامعون. لكن كيف يمكن لنَصْرِيٍّ أن يلزم الهدوء؟ حاول محمّد الثالث نظراً لموقعه المحظوظ ـ صاحب شمال مراكش ـ أن يبدأ حرباً مقدّسةً ضدَ جميع نصارى شبه الجزيرة. فأرعب هذا القرار أراغون، المملكة البحرية التي حاولت أن تتحالف مع مراكش. ومع ذلك مات السلطان الجديد على الفور، فعرض محمّد على خلفه أبي الربيع السلمَ مستبقاً أراغون، وبرهاناً على ذلك استدعى عثمان، خصم السلطان. في هذه الظروف قامت أراغون المتوجّسة والوحيدة بمحاولة تحالفٍ ثلاثيٍّ ضدَ أبنائي، واضعة، كما هي العادة، نصبَ عينها ألمريَةَ وسيطرتها على المتوسّط. وقّع مع قشتالة في القلعة معاهدةً تُكمل معاهدةَ المزرعة الموقّعة قبل خمس وستين سنة بين فِرناندو القديس وخايمِ الفاتح، تقاسما من خلالها ما أُسيء تسميته بحرب الاسترداد. وحَدّدَ شهر حزيران 1309 تاريخاً للشروع المتزامن بالهجوم: أراغون على ألمريَة وقشتالة على الجزيرة الخضراء وجبل طارق. كانت مملكتي سُتقْتَسَمُ، سدسها، الذي تُمثّله ألمرية، لأراغون والباقي لقشتالة، لتعويضها عمّا فقدته بضياع القسم المرسي من المملكة الذي كان قد تنازل عنه ألفونسو دِ لا ثِردا.

أصاب القلقُ أبنائي المسلمين. فردّوا على غارات رئيس رهبنة قلعة رباح (كالاترابا) العسكرية بالاستيلاء على أملاك التجار الأراغونيين في المملكة. وقد أحدث خبرُ الحرب بين سكّاني حماساً هائلاً وبدؤوا بالاستعداد للجهاد الجديد. هُجر السهلُ وبحثوا عن مناطق منيعةٍ، وحُصّنت المناطقُ المأهولةُ. لكنّ الأخطارَ والعوائقَ كانت كبيرة أيضاً. فمن جهة فرّغ محمّد الثالث مخازنَ المؤن، التي

كان والده محمّد الثاني يبقي عليها دائماً مملوءة تحسُّباً لهجوم نصرانيّ محتمل على مرجي، ولولا ذلك لاستحالت المقاومة. ومن جهة ثانية كانت حروب أفريقيا قد استنفدت أفضل الجيوش، والشقاقاتُ قد أبعدت عنّي عدداً متزايداً من مسلمي الطبقةِ الاجتماعية العليا. ولكي يبلغ السيلُ الزبى من ناحية العوائق تفاقم الصراع الداخليّ: تآمر عددٌ من أبناء الأسرة النصرية تحديداً كي يحقّقوا مكاسب من هذا الصراع. ففي يوم نهايةِ صيام رمضان الموافق للرابع عشر من آذار من عام 1309 وفي لحظة انتهاء رمضان اغتال المتآمرون الوزير ابن الحكيم ولاحقوا جميع أنصاره وقتلوهم، وأجبروا الأميرَ الأعمى على اعتلاء العرش بدل أخيه نصر، العارف الجيّد بعلم الفلك، الذي كان يصنع بنفسه أدواتٍ رائعة للتقدم بهذا العلم. بعد التنازل عن العرش انسحب الأعمى إلى المُنكَّب، فلم يحكم مقابل حكم أخويه الطويل إلا سبع سنوات، وعُرِف بيننا دائماً بمحمّد المنفي، وقد بنى جامع الحمراء، إضافة إلى قصره وأعلن الحمامات الملحقة بالجامع أملاكاً محبّسة.

وصل أخوه نصر في لحظة حرجة. فللمرّة الأولى استعدّت قشتالة وأراغون معاً لمحاربتي وقامت السفن القطلانية بالخفر في المضيق. حاصر خايم الثاني سبتةَ بالتواطوء مع السلطان المريني. وكان نصر يتطلّع لكسر عزلته والتحالف الثلاثيّ بأيّ ثمن. وبمصادفة محكمة تماماً تأخرَ الهجوم النصراني ـ المغربيّ، وهذا ما منحه الوقت للاتصال بالسلطان بينما كان فِرناندو الرابع يسيطر على جبل طارق. زوّج أميري أختَه للسلطان الأفريقي ومنحه الجزيرةَ الخضراءَ ورندةَ صداقاً وثمناً لحياده، ولكي يرسل إليه دعماً عسكرياً حين يرى أراضيه في شبه الجزيرة مهدَّدة. وزوّجَ أبو ربيع أختَه لسلطاني امتناناً منه وبرّر بشكلٍ أو بآخر موقفَه أمام ملك أراغون، الذي كانت تربطه به روابط تجارية دسمة أكثر من أيّ شيءٍ آخر، بقيت تربط بينهما لصالح الاثنين، غير متأثّرة بأفكارهما وتصرّفاتهما.

من حسن حظّ مملكتي، أنّ وحدة النصارى، التي لم تكن صادقة

قط، جاءت هشّة جداً. فَتَرَت همّةُ فِرناندو الرابع: كان بأمسّ الحاجة إلى المال، فالتقدّم كان بطيئاً ومقاومة الجزيرة الخضراء المحاصرة طال؛ مات غوثمان الصالح في جبال غاوزين وهجره الكثير من النبلاء وتبعوا الأميرَ خوان وعمّه خوان مانوِل ذاته. أمام هذا الفتور عرض عليه أميري، إضافةً إلى إعادة قيجاطة وبرذنار، الاعترافَ به كسيّد وجزيةً من أحد عشر ألف دبلون سنوياً وهو ما كان أسرع وأكثر فائدة. وُقّع السلامُ في أيّار من العام 1310، لكن سرعان ما خرقه فِرناندو الرابع: هاجم تمبول واحتلّ القبذاق لكنّه انتقل ليموت ويلفظ أنفاسه في جيّان على أيدي آل كاراباجالِس - الذين أدانهم وقلتهم ظلماً. توقّفت الاعتداءات. ومرّت القوّة الملكية، بالطريقة ذاتها التي يتطوّر بها التاريخُ أحياناً، بمرحلة من الوهن هنا وفيما وراء الحدود.

وهكذا في تشرين الثاني من العام ذاته، وبعد تجاوز المحنِ والأزمةِ وتصفيةِ شخصياتِ البلاطِ العالية، التي كانت تتآمر للإطاحة به والمجيء بالمنفيّ، تعرّض نصر لهجوم غريب، يكاد يكون من المؤكّد أنّه لم يقصده به أحد، وضعه على حافّة الموت. جاؤوا بمحمّد الأعمى من المُنكّب ليحلّ محلّه، لكنّ الأميرَ تحسّنَ، فقال المنفيُّ، كي ينجو بنفسه، إنّه لم يأتِ إلا كي يطمئن على صحّته. أراد أن يعودَ إلى منفاه فمنعوه؛ توسّلوا إليه وأجبروه على البقاء في الحمراء. وذات صباح ظهر غريقاً في بحيرة؛ من السهل القضاء على أعمى: يكاد يكون مؤكّداً أنّ الحادث كان متعمّداً. منذ تلك اللحظة أصبح نصرُ، إذا أمكن قول ذلك، أقلّ شعبية: من يعرف لماذا يُحبّ شعبٌ أو يكرهُ أو يهتف لمن كان قد رفضه؟ كان السلطان المريني قد أستعاد الجزيرة الخضراء ورندة، وأراغون فشلت في تهديداتها؛ وقشتالة بقيت آنياً غير فاعلة؛ ومع ذلك فإنّ عدم شعبية الأمير لم تخفَ بين أبنائي. أخيراً ترأس عثمانُ، الذي كان قد ثار على سلطانه المريني بتحريضٍ من محمّد الثالث، وسكنَ هنا منذ ذلك الوقت، اجتماعاً ضدّ نصر. قام بذلك لصالح ابن عمٍّ خالٍ له، هو أبو الوليد اسماعيل، ابن رئيس مالقة وحفيد اسماعيل، أخي المؤسّس. استدعى

نصر على الفور أميرَ قشتالة دون بِدرو، أخا المرحوم فِرناندو الرابع، ووصيّ وليّ العرش ألفونسو الحادي عشر؛ لكنّ تدخّله لم يُجد نفعاً: لم يفعل شيئاً آخر غير زيادة غضب مملكتي. استولى على لوشة ومالقة وهزم القوات الملكية في أرشيذونا، بينما تمرَّد أبنائي جحوداً أو رغبةً بحبّ التغيير، الذي يستولي فجأة على الدهماء، وفتح لهم أهالي البيازين بابَ البيرة على مصراعيه. سرعان ما دخل اسماعيل على جواده إلى الحمراء، أنفسُ ما تشتهيه الأنفسُ، وسمح لِنَصر بأن يحكم وادي آش ـ وهو ما لا يخلو من لطف ـ. (التاريخ يتكرَّر حتى السأم، ويتكرّر فيه كثير من أسماء المدن أيضاً. فالمرية وشلوبانية والمنكَب ووادي آش كانت أماكن تمرّد وتتويج ونفي أيضاً). امتثل نصر، ولعب محاطاً بترفٍ غير ضروري وببلاطٍ مصغّر وزائفٍ مع حاشيته العسكرية المغربية القليلة التي بقيت وفيّةً له، دوراً مثيراً للسخرية في وادي آش.

مع اسماعيل بدأ الفرع الثاني من الأسرة المالكة. ربّما بدا هذا الفرع للوهلة الأولى أكثرَ تشدّداً في الأخلاق والدين من الفرع الأوّل، وهذا لا يعني شيئاً. لن يصبح الأمراء بعد الآن فَلَكِيِّين ولا شعراء بشكل عام: لن يكون لديهم الوقت لذلك؛ سيحتلون، وهم على رأس جيوشهم المدنَ والحصون. على دعامتي الدين ستقوم المملكة: وحدانية الله وسيفه. ستُشن الحرب ضدّ النصارى سواء بسواء وسيُشَرَّعُ ما هو أكثر فائدة حول اليهود والحشمة المتشدّدة في العادات. ورغم كلّ شيء ربّما لم يكن هذا هو ما ميّز الفرعَ الثاني، بل الطريقة التي مات بها سلاطينها. ساد السمّ والماء حتى تلك اللحظة، لكن مذّاك لن يكون هناك غير الدم، الكثير من الدم.

من خصائص اسماعيل ثباته في الحفاظ على الحدود. بحث نصر من مقرّه في وادي آش عن التودّد لوصيَّي ألفونسو الحادي عشر، عميه دونْ بِدرو ودونْ خوان؛ اللذين سُعِدا من ناحيتهما حين رأيا انقسام مُسلِميّ. ووقعت بالقرب من وادي آش معركة تمهيدية، عزا المؤرّخون النصر فيها كلٌ إلى الطرف الذي ينتمي إليه (كما يحدث دائماً. من يضمن مؤرّخاً؟ يختارون في بعض الأحيان مبعوثاً

مخبراً، ويتناقل الواحد منهما الخطأ عن الآخر، كمن يتناقل إرثاً ثقيلاً. فيرضى التاريخ، ذلك لأنّ من الأسهل له ألاّ يُناقِضَ نفسه، وألا يزعزع الفوضى المنظمة، التي من المحتمل جدّاً أن يكون هناك من وضعها كي يحرُر نفسه من الاتهامات). وقد تفوّق النصريون في الخليج بفضل المراكشيين، الذين كانوا يشكّلون قاعدتهم الخارجية الوحيدة، ومخرجهم الطبيعي الوحيد، الذي عانى دائماً بالنسبة إليهم من العنف.

القشتاليون باتباعهم تقليدهم غير المنقطع كانوا يبحثون عن مصادر اقتصادية. حصل دون خوان، سيّد بيثاكايا من البابوية على العشور من أجل حملة صليبية، واحتلوا في هذه الأثناء إشكر ودخلوا في المرجَ. وكان السلام مناسباً تجارياً بالنسبة إلى أراغون كي تُحترم تجارتهم وأبناء رعيتهم والسلام مع النصريين؛ لكنّ غارات هؤلاء على مرسية وأوريولة أثارتهم. من هنا أصبح التوازن في خطر حين أصغى الملك الأراغوني لسفارتين: واحدة من نصر في وادي آش والثانية من قشتالة. كلاهما عَرَضتا الإمكانية ذاتها: حلف ثلاثيّ جديد ستحترمه تلمسان. وزنت أراغون الإيجابيات والسلبيات. طلبت (مثل قشتالة، التي كانت تتعلق دائماً بمشجبها وتحبّ أن تُقلّدها أو تعاكسها) إعانات بابوية جديدة من أجل حملة صليبية أخرى، لكنّها أُنكِرت عليها. ومن جهة أخرى كانت أقلّ اهتماماً بالداخل من قشتالة، وتخاف العواقِب المالية الناتجة عن توسيع الصراع بين النصرانية والإسلام: فهذا ما سيلحق بها الضررَ بها ويبعدها عن أطماعها في سردينية. لهذا كلّه وبطريقة غير دينية تماماً لكنّها فعلاً حذرة تخلّت عما سمّي بحرب الاسترداد، رغم أنّ الغارات الأندلسية صارت تطالها حتى في قرطاجنّة.

حاصرني وصيّا ألفونسو الحادي عشر حتى دونَ أراغون. استغاث اسماعيل طالباً العون من مراكش؛ لكنّ أبا سعيد عثمان، جدّ أبي ربيع وخليفته، لم يكن من أنصار الحروب المقدّسة، ولا من أنصار أن يُساعد مملكتي خصوصاً مع تقلّب الأحوال في سبتة.

تذرّع بأنّهم لم يرسلوا إليه لحربه الشخصية الشخصَ الذي طلبه بعينه: أبو العلا، القائد الزناتي الخرافي، الذي لا يُقهر، المحاط في أرضي بهالة أسطورية. كانت حماقة، لكنّه أيضاً لم يكن يحتاج لأكثر من ذلك كي ينكر عليه المساعدة. ورغم ذلك وبعكس كلّ ما يمكن توقّعه، ربح اسماعيلُ معركة المرج. قُتِل فيها الأميران الوصيان (كافلا الملك) وألهب الحماس شعراء البلاط الرسميين، رغم ما قيل بأنّ الأميرين ماتا ميتة طبيعية: دونْ خوان بسكتة في المخّ ودونْ بِدرو من العطش والحرّ. بقيت جثّة دونْ خوان في أيدي سكّاني وحين طالب به ابنه الأعور ردّه إليه السلطان في تابوت ملفوف بقماش من ذهب. أمّا جثّة دون بِدرو فقد عُلّقت بعد أن حُشيت بالقطن أمام أحد أبواب الحمراء. وبقي، حسب العمري هناك، وأمّا ابن الخطيب فيحكي أنّه بعد خمسين عاماً كانت الجثة مقبورة تحت كومة من الحجارة بالقرب من القصور. وإنّه هو نفسه أمر بنبشها ووجد هيكلاً يخترق جمجمته رمح(*).

بعد عشر سنوات من حصار ألمريّة، توقّف من الإنهاكِ ما أسيئ تسميتُه بحرب الاسترداد. كان يكفي قشتالةَ موتُ وصيّي العرش والوصاية التي عادت وأخذتها الجدّة ماريّا دِ مولينا حتى وفاتها، والجدل الذي تمّ بين دونْ خوان مانوِل ودونْ فيليبّ ودون خوانْ الأعور. حرّك خايم الثاني ملكُ أراغون الذي سئم الهُدَن من كثرة الفشل العسكري والدبلوماسي منذ العام 1292، بحيث أنّ اسماعيل وبحميّة حراسه المرينيين استعاد بسطةَ وواط إشكر، إذ استُخْدِمَ

(*) يقول لسان الدين بن الخطيب بهذا الخصوص: «ومن الغريب أنّني في هذه الأيّام بعد خمسين سنة تماماً، تفقّدتُ ذلك المكانَ في بعض ما أباشره، أيّامَ نيابتي عن السلطان بدارِ ملكه على عادتي، فالفيته قد علا عليه كوم من الحجارة، رجم الصبيان إيّاه، فظهر لي تجديد الإشادة به والاستفتاح بوقوع مثله، ولمّا كُشف عن الرُمة لتُنقل إلى وعاء ثانٍ، ألفي بعظم القَطَن العريض منها، سنان مُرهب ثبت في العظم، انتُزِع منه، وقد غالبتني الرّقةُ والإجهاشُ، وقلتُ اللهمّ ادخر رضوانك لمن أودع في هذه الرمّة الطاغية، سنان جهادك إلى اليوم، وأثبته وارفع درجته، إنّك أهل لذلك». انظر: الإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب تحقيق محمّد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي بالقاهرة الطبعة الثانية، القاهرة 1973، المجلّد الأوّل ص 390. م.

لأوّل مرّة نوعٌ من المدفعية أشار إليه ابن الخطيب شارحاً استخدام السلاح والذعر الذي بثّه بين الأعداء(*). واستعاد وادي آش سلماً بعد موت نصر، وبذلك انتهت الحرب الأهلية وانقسام المملكة. واحتفل بحظه السعيد بل وتجرّأ على القيام ببعض الغارات ـ وإن كان كما أظنّ دون رغبة بالاحتلال ـ حتى قرطبة القاسية.

لكن عند عودته من غارة على مرتش دخل في جدل مع ابن عمّه محمّد بن اسماعيل، صاحب الجزيرة الخضراء. فقام هذا باغتياله أمام أبواب الحمراء ذاتها مدفوعاً من أبي العلا الرهيب الذي كان يحكم في المغرب، بينما كان يقضي في محكمة. الشعراء الذين تغنّوا به من قبل بكوا إذ ذاك.

أتت وغبار الغزوِ طيُّ ثيابه
ظهير أمانٍ في دخانِ جهنّم
فتبّاً لدارٍ لا يدومُ نعيمُها
فما عرس إلّا طليعة ماتم
ولا أنسها إلّا رهين بوحشةٍ
ولا شهدها إلّا مشوب بعلقَم
فيا من يرى الدنيا مجاجة نحلة
ألا فاعتبرها في نبتة أرقم
فضاحكها باكٍ وجذلانها شجٍ
وطالعها هارٍ ومبصرها عمٍ

لم يخلفه، من بين الأولاد الأربعة الذين خلّفهم وراءه، ابنُهُ البكرُ يوسف، بل محمّد سميّه الرابع. كان صغير السنّ جدّاً ومثّل الخطرَ

(*) يقول ابن الخطيب: «... وأعمل القصدَ إلى بلاد العدو، ونازل حصنَ إشكر، الشجي المعترض في حلق بسطة، فاخذ بمَخنُقة، ونشر الحرب عليه، ورمى بالآلة العُظمى المتخذة بالنفط كرة حديد محمّاة طاق البرج المنيع من معقله، فاندفعت يتطاير شررها، واستقرّت بين محصوريه، فعاثت عياث الصواعق السماوية، فالقى اللهُ الرعبَ في قلوبهم وأتوا بايديهم، ونزلوا قسراً على حكمه...إلخ». انظر: الإحاطة. المترجم في أخبار غرناطة لابن الخطيب تحقيق محمّد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي بالقاهرة الطبعة الثانية، القاهرة 1973، المجلّد الأوّل ص 390. م.

على مملكةَ النصريين الذي عرَضها إليه السلاطينُ الأطفال، الذين خضعوا لتأثيرات الوزراء عديمي الضمير، التي لأجلها اختاروه. والذي كان يحكم في هذه الحال هو الوزير ابن المحروق. أخطأ السلطانُ الفتيُ فأظهر عداءه لأبي العلا الرهيب، واختار الحرب وأرسل من قتل الوزير في قصره دون أيّ توضيحات. جرى بعد هذه دمٌ كثير. أبو العلا الذي كان قد خدم أبا السلطان وخانه استعادَ قيادة الزناتيين وسيطرته الكبيرة. ورغم كلّ شيء حكم محمّد منذ تلك اللحظة باسمه بالذات وإن كان ضمن الحدود التي سُمِح له بها.

كان شديد الولع بالصيد، خاصّة الصيّد بالصقور؛ وكان قصره مغطّى بجلود الوعول والخنازير الجبلية، وزيّن قاعاته وقببه بمشاهد القنص والصيد. كان خبيراً عظيماً بالخيول وفارساً رائعاً محبّاً للسباقات والمبارزات. انغمس، نظراً لصغر سنّه، في الاستمتاع بما كان يستهويه ولم يتقدّم الجيوش في الحروب ضدّ النصارى. تمتّع بميّزة واحدة: فعلى جميع عروش شبه الجزيرة كان يتربّع ملوكٌ يكادون يكونون بعمره وبعدم خبرته: ألفونسو الحادي عشر في قشتالة لم يدرك سنَّ البلوغ إلا في العام 1325 ومثله ألفونسو الرابع ملك البرتغال؛ ألفونسو آخر وهو ألفونسو الرابع في أراغون لم يحكم حتى العام 1327؛ وفيليبٌ دفروش في نافار لم يحكم حتى العام 1328.

ومع ذلك هاجم القشتاليُ، المستفيد دائماً من شقاقات مُسلِمِيَّ الداخلية، برّاً المنطقة الممتدّة من أولفيرا وحتى أيامونتِي وبحراً برئاسة الأميرال خوفر تِنوريو. سارع محمّد الرابع بطلب النجدة المراكشية، النجدة التي كانت نتائجها وخيمة كما هي العادة، ففي مواجهة احتمال غزو أفريقيّ جديد تحالفت قشتالة وأراغون ووقّعتا معاهدتي أغرِدا وطرسونة. من خلال هاتين المعاهدتين كان الأراغوني يضع نصب عينه بلينهِ مضربِ المثل على ألمريّة التي شكّلت دائماً هوس هذه المملكة. حسن إذن فأحد أكثر مشاريع حرب الاسترداد هذه إضحاكاً (ولذلك أحكيه، رغم اعتداله) كان مشروع الحملة الصليبية ضدّ بني نصر. حاول الغر الأراغوني أن يُقنِع فيليبَ

بِفروش وخوان لوكسمبورغ ملك بوهيميا وفِليبّ دِ فالوا وفرسانه الفرنسيين بذلك. كانت أراغون تميل دائماً لتخطيّ الحدود وخلق قضية عامة مع الأجانب، أو بالأحرى ضمّهم لقضيتها، كما لو أنّه لم يكن يفيض عنها الأعداء ضمن بيتها ذاته. لم تفهم قط أن الأجانب كانت تقودهم دائماً، أكثر من أبناء شبه الجزيرة، مصالحهم المادّية المختلفة عن مصالح الموجودين هنا، وإنّهم نادراً ما كانوا يلتقون على المصالح الدينية. وما إن رفض الأراغوني أن يُسلّم النافارّي ميادين الدفاع التي كان يُطالب بها حتى فشلت الحملةُ الصليبية من ناحية المساعدات الأجنبية. وعندئذٍ توجّه ملك أراغون حائراً إلى السدّة البابوية طالباً امتيازات اقتصادية؛ فلم يُمنح ما يكفي منها، وبالتالي ـ حين لم يشعر بنفسه مشتعلاً بالحماس المقدّس ـ تراجع. بعد فترة قصيرة جدّاً نسي الحملةَ الكاثوليكية العظيمة، ووقّع هدنة مع مُسلِميّ.

وفي هذه الأثناء كان ألفونسو القشتاليّ يُقاتل وحيداً، لكن ليس بشكلٍ سيّء، رغم سقوط جبل طارق في يد المراكشيين، الذين كان يرافقهم وقت ذاك النصريون والجنويون (لأنّ الطليان فضّلوا تقليدياً ومصلحياً مُسلِميّ على نصرانيّ). ومع ذلك لم ينظر بنو العلا، أي أسرة القائد الشهير أبي العلا، بعين الرضا إلى التحالف مع أبي الحسن، السلطان المريني الجديد، الذين كانوا في نهاية المطاف منفيين في مملكته وكانوا يتحكمون من هناك بجيش غرناطة. فتآمروا على سلطاني وقام شخص مجهول، مدفوعاً منهم فطعنه بخنجره وهو في طريق عودته من جبل طارق. لم يكد يحكم ثمانية أعوام ويدخل سنّ البلوغ. دُفِن في مالقة، بعد مبايعة أخيه الأكبر يوسف، الذي ربّما كان أحب سلاطيني إليّ.

أوّل ما فعله يوسفُ هو الانتقام للملك المقتول (ليس من تلقاء نفسه بل تحت وصايةِ جدّته فاطمة، ذلك لأنّه لم يكن يستطيع أن يُقرّر تقريباً، رغم سنيّ عمره الخمس عشرة، شيئاً آخرَ غير طعامه). وقام الانتقام على طرد بني أبي العلاء، الذين جاؤوا به، من المملكة. عينّ مكانه سيّداً على الأجانب، أي على الزناتيين، يحيى بن عمر ابن رحو

الذي بدأ نجمه يسطع. صادق على الهُدَن، ووقّع السلمَ مُطَمئناً النصارى بتأكيده بأنّه لن يجلب من الأفارقة أكثر مما هو ضروري للحفاظ على المواقع المرينية، وذلك لمدّة أربع سنوات ـ وكان هذا زمناً طويلاً آنذاك، فالمعارك كانت تُقاس بالأسابيع.

كان يوسف فتى مدرّباً ومهذّباً. يجمع الحليّ ويشعر بجاذبية تجاه الحجارة الكريمة، التي كان يتأملها ويُداعبها كلّما سنحت له مهماتُ الإدارة الفرصة بذلك، بل وفي أثنائها. (أهدى أميراً أفريقياً حين نزل في شلوبانية بابوجاً مرصّعاً بالحجارة الكريمة ـ لا أحد يدري السبب، وإن كان ممكن التكهن ـ عاد إليه). وشجّع بمساعدة كبير وزرائه رضوان ـ وهو مسيحي أسلم، أُسر طفلاً في وادي الحجارة ـ وأمنائه، من أمثال رئيس ديوانه ابن الخطيب، العمارةَ في أطرافي، مجمّلاً إيّايَ بشكل عجيب. وسّعَ بالإضافة إلى قصرهِ الخاص قصرَ أبيه، وأضافَ باب الفسحة إلى سور الحمراء لتسهيل اتصاله بالقسم السفلي من المدينة وأهداني المدرسة، التي كان باستطاعة فتياني أن يتلقوا دراساتهم الجامعية فيها وحيث تمتّعت الثقافة بمقرّ للإقامة والإنجاب.

لكنّ أمرين ثابتين استمرّا: الأوّل هو الصراع شبه الأبدي على المضيق الذي كان باستطاعته أن يُسهّل أو يعيق أعمال الإغاثة الأفريقية؛ الثاني هو تعزيز التحصينات، وهو ما كانوا يُكرّسون أنفسهم إليه، سواء داخل شبه الجزيرة أو خارجها، من أجل الحروب وزيادة الأساطيل، باستثناء الوقت الذي كانوا ينشغلون فيه بمحاولة الحصول على حلفاء. بحث أبو الحسن عنهم عند جارته تونس، وألفونسو الحادي عشر في الأسطول القطلاني. هزم المرينيون في العام 1340 خوفر تِنوريو في الجزيرة الخضراء وحاصر الزناتيون طريف. حمّس الشعراء أميرَهم:

ارفع الرايات كي يرتفع فوقك نصرك الأوّل

فليعلم الملعون أنفونش بأنّه سيرمى على الأرض فلا يستعجل.

ومع ذلك ورغماً عن الشعراء، ما إن حصل ألفونسو الحادي عشر على مساعدة حميه ملك البرتغال حتى أثّرت الهزيمة الماحقة في وقعة طريف يوم 30 تشرين الأوّل على نهر سالادو والتي تلت المعركة المعروفة بمعركة الملوك الأربعة. ابن الخطيب الذي فقد فيها أباه وأخاه يشرح باقتضاب سبب هزيمة أبنائي بالكلمات التالية: «كان جيش ألفونسو ملك البرتغال يواجه جيشنا، وكنّا قد هاجمنا» ببسالة وفي رواية أخرى يروي ابن الخطيب هذه الهزيمة بطريقة أخرى: بعد الخروج الرائع للقوى المحاصرة في طريف ومشاركته في الصراع ضدّ المسلمين، هذه العملية التي سهّلت دخول الخيّالة القشتاليين إلى طريف واحتلالها. ومهما يكن من أمرٍ فقد كسب فيها عدد لا يُحصى من أبنائي الشجعان ميتة مقدّسة، الشهادة. ما الذي كان سيفعله الشعراء هنا.

ما الذي كان باستطاعتهم أن يُنشِدوه؟

آمالنا صارت العكس

بينما الأنصار حققوا كلّ الذي أرادوا.

تمكّنوا بين أشياء أخرى من الحصول على تعويض كبير عن هزيمة المرج: الانتقام الذي ألقى بظلّه على قسم كبيرٍ من أُسر المملكة. من هو الذي لم يفقد شيئاً فيها؟ وأخيراً أبعدُ هذا الفشلُ بني مرين عن أراضي إسبانيا. ألفونسو الحادي عشر الذي اغترّ بنجاحه حاصر الجزيرة الخضراء. هناك استخدم مُسلِمِيّ البارود، لأوّل مرّة كعنصر من عناصر المعركة الذي لم يُستخدَم حتى ذلك الوقت إلّا في الألعاب النارية، فوضع أرقّ أنواع التسليات تحت أمرة الحرب. ولمزيدٍ من الكرب لأبنائي انضمّ الأراغونيون إلى القشتالي، رغم هدنة السنوات الخمس الموقّعة مع بِدرو الاحتفالي، دون أن يحترم الاحتفال: كانوا يلتمون مثل الذباب على حساب الآخر، طالما أنّ في ذلك مكسباً لهم. ذاع خبرُ حصار الجزيرة الخضراء في كامل أوروبّا وهرع كثير من الفرسان الإنكليز والجرمان للمشاركة فيه، ومات

بعضُهم في المعركة. حاول أميريَ وسلطان مراكش إنقاذ المحلّة دون قتال والدخول في مباحثاتٍ سلام مع ألفونسو الحادي عشر، لكنّ مقترحاتهما رُفِضَت فقرّرا أن يُجرّبا حظّهما بالسلاح. استسلمت الجزيرةُ الخضراء بعد معركةٍ نهر بَلْمونتي وسنتين من الحصار. ومنح ألفونسو يوسفَ هدنةً لمدّة عشر سنوات، لم يمض إلّا خمس منها حتى حاصر جبل طارق وتحرّكت المناوشات الكثيرة بين الجانبين. لكنّ الحياة والبشر ينوون شيئاً والله القهّار الجبّار يفعل ما يشاء: فقد دخل الوباء الأسود ميدانَ المعركة دون أن يميّز بين عدوٍّ أو صديق.

منذ أن ظهر مشؤوماً في آسيا عام 1334 لم يتوقّف عن الاقتراب من أوروبا. دخل إلى المملكة عبر قرية تُدعى الهوام في الطرف الشرقي من ألمريّة، واكتسح على الفور القرى المجاورة، قوياً وكاسحاً يشجّعه الفقر وينتقل على كاهل المتسوّلين المشرّدين. كان بين عامي 1348 و1349 حانقاً وعنيفاً: حصد عُشرَ الجيوش والأنفاس والأحلام والإرادات. الشيء الوحيد الجيّد الذي فعله هو أنّه حمل معه ألفونسو الحادي عشر. ابنه بِدرو الأوّل ـ الذي امتناناً منه لأمرِ يوسف بألاّ يُعكّر صفو الفرسان الذين كانوا يحملون جثمانَ الملك القشتاليّ إلى إشبيلية ـ وقّع هدنةً جدّيةً. أمام سوط الوباء الذي كان يجلد الجميع دون تمييز، تبدّلت السياسة الخارجية. حتى بِدرو الاحتفالي شرع بعلاقات متسامحة مع أميري، وإن كانت بعيدة، لاعتبار أنّه كان، كما هو فعلاً، تابعاً لقشتالة.

أراد يوسف على امتداد حكمه أن يقيم اتفاقات مع مماليك مصر، لكنّه لم ينجح، كما حدث لأسلافه: كانوا بعيدين جداً ولديهم أيضاً مشاكل أكثر من اللازم. أمّا بالنسبة إلى المرينيين فالصداقة توقّفت، لأنّ يوسف استقبل في الحمراء، بدعم من بِدرو ملك قشتالة، أخوةَ السلطان المُتمرّدين، ورفض إعادتهم. بقي أبو الفضل وأبو سليم معي كي يشهدا على موتَ السلطان النصري قبل أيّ شيءٍ آخر. لأنّه في آخر يوم في شهر رمضان، التاسع عشر من تشرين الأوّل من

العام 1353 ـ كانت السماء صافية والشمس أفسحت الطريق لريح خفيفة بدأت ترطّب الليل ـ، حين كانوا يقومون بآخر ركعة في المصلّى العام في الهواء الطلق، وكنتُ أوشك أن أضطرم احتفالاً، طعنَ خادم زنجي، جُنَّ بُغتَةً، الأميرَ. ثلاث دفقات من الدم صبغت مرمرَ الأرضِ الأبيض المحيط بالمحراب.

ورثه ابنه محمّد الخامس، الذي حمل هذا الاسم، وعمره ستَ عشرة سنة. كان سيأتينا بأيام باهية. استمرّ في بداية حكمه في السلطة من كانوا موجودين قبلَه: رضوان، وزيراً أوّلاً وأميناً على الأمراء الشباب (ربّما لأنّه لم ينفّذ هذه المهمّة جيّداً نال نهاية وخيمة)، وابن الخطيب وزيراً، وابن رهن زعيماً لبني زناتة. جدّد الهُدَنَ والجزيةَ مع ملك قشتالة بِدرو؛ لكنّ علاقته بِملك أراغون بدرو ساءت، لأنّ النصريَّ والقشتاليَّ دعما الأميرَ دون فِرناندو، أخا الملك الأراغوني الذي تمرّد في بلنسية. لذلك هاجمت السفن الميورقية سواحلَ مملكتي. عارض السلطان الهُدَن التي وقّعها أبوه مع بِدرو الاحتفالي، تلك الهُدَن التي لم تكن تمنع، حسب رأيه، مساعدةً بسيطة إلى المتمردين. ربّما كان على حقّ.

أمّا بالنسبة إلى مراكش، التي كان من المناسب الاهتمام بها، وكانت متحفزة منذ الحكم السابق، فقد أرسل إليها محمّد سفارة يرأسها ابن الخطيب، استُقبلت بدورها من قبل السلطان أبي أمين، المشتعل حماساً لدخول الأندلس المرغوبة أو لاحتلالها: كم هم البشر رتباء، خاصّة الملوك. ولكي يجد الفرصةَ للاقتحام نصح محمّد بفسخ الهدنة مع قشتالة؛ لكنّ محمّداً كان حذراً فاستمرّ في دفع الجزية. ونظراً لذلك وقّع أبو أمين سلماً غامضاً مع أراغون، كان من الممكن أن يأتي بنتائج وخيمة لو أنّه نُفّذ. ومع ذلك مات أبو أمين وحلّ محلّه، بعد عدد من الحوادث، سليم، الذي عاش في الحمراء. وأتمّ معه محمّد السلامَ المزعوم، لذلك تمّ احتضانه. بالمقابل قامت القطيعةُ بين قشتالة وأراغون لأسباب أصبحت تاريخية. كان عليه أن يختار؛ فاختار محمّد قشتالةَ وساعدها بالسفن والقواعد البحرية

ـ مالقة مثلاً ـ، وراح يُحَضّر مأدبته الخاصّة بغزو مُرسية. في هذه اللحظة بالذات خلعوه عن العرش. حدث ذلك، كما هي العادة، في رمضان من العام 1359.

قام بالمؤامرة أميران من دمه: لم تكن الأسرةُ بين مُسلِميّ قط الضمان الأفضل. الأوّل أخوه، غير الشقيق، اسماعيل، ابن جارية طموحة من أصل مسيحي، مريم، ابنتها زوجة المتآمر الثاني: أبو عبد الله محمّد، ابنُ ابنِ عمّ يوسف. مريم هي التي حاكت كلّ شيء. تسلّق قرابة مئة متآمر جدران الحمراء بينما السلطان في جنّة العريف، لأنّ الشهر كان شهر آب. أخذوا الحرسَ على حين غرّة، ربطوهم وتوجّهوا، والمشاعل في أيديهم، إلى بيت رضوان الذي كان أمين الأمراء وقتلوه وبايعوا في قاعة قمارش على صوت الطبول اسماعيلَ سلطاناً، واستطاع محمّد أن يهرب على ظهر جواده ويلوذ في وادي آش. انضمّ إليه أبناء قصبته وابن رهن ومعه بنو زناتة. لم يتمكّن بِدرو ملك قشتالة من نجدته رغم نواياه الطيبة، لأنّه كان مُقيّد اليدين في صراعاتٍ أخوية أيضاً ضدّ أنريكِ تراستامارا، أخيه غير الشرعي. وكان هناك سبب آخر: فمملكتي تستقبل المتطوّعين الذين كانت بأمسّ الحاجة إليهم وأكثر من أيّ وقت مضى، ولم يكن يرغب بأن يُعرض مواصلاته البحرية للخطر. الصداقة بين الملوك لا تصل أبداً إلى نتائجها النهائية، وبالتالي فقد اعترف بالمغتصِب.

ما الموقف الذي اتخذته مراكش؟ نصح الخطيبُ ابن مرزوق الفاسيّ وصديق ابن الخطيب، السلطانَ أبا سليم باستقبال محمّد حين طلب هذا منه ذلك من موقعه في وادي آش. اعتبر أبو سليم النصيحة عمليةً. فهو بذلك يبقي في قلقٍ على اسماعيل، المتوّج حديثاً، وعلى الأمراء المرينيين المقيمين في الحمراء، ويطمحون، كما طمح هو قبلهم، للحلول محلّه على عرش مراكش؛ ولتجنّب أيّ خطر سأل اسماعيل مسبقاً عمّا إذا لم يكن يُمانع في رحلة الملك المخلوع. أنعم دبلوماسية هي في النهاية تلك التي تقوم بها المنافع

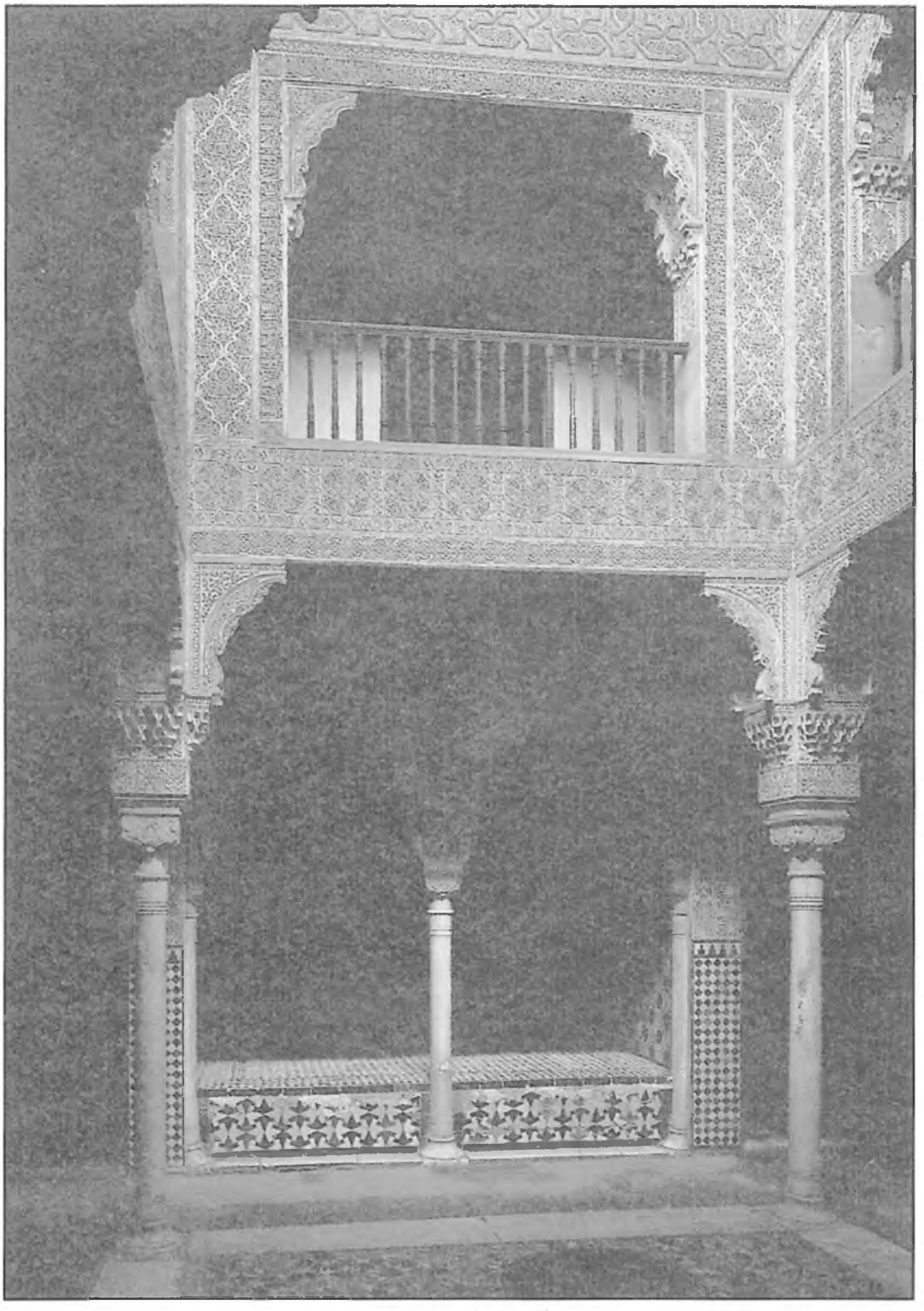

قاعة الأسرّة في الحمامات الملكية.

حديقة البرطل.

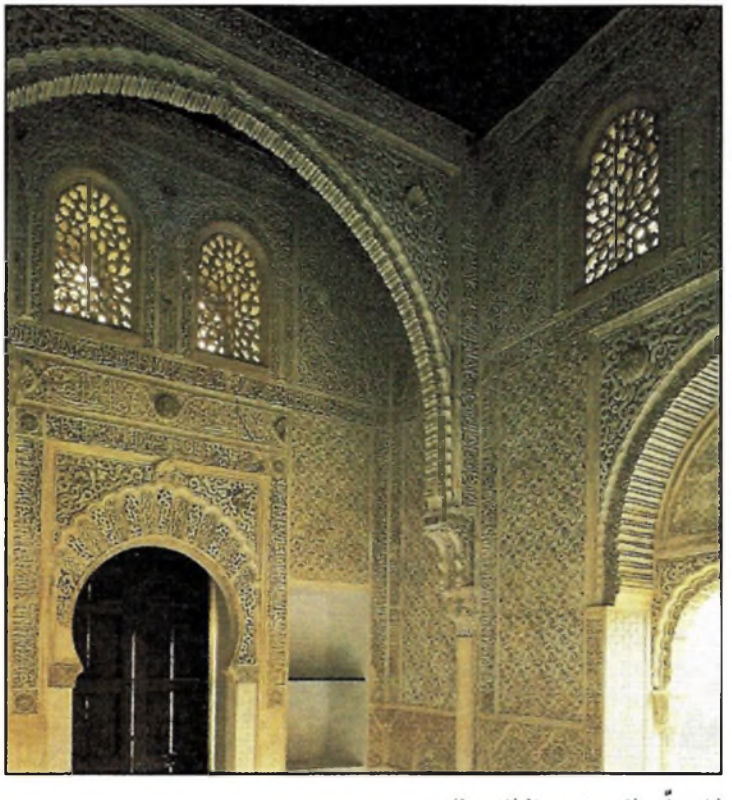

المصلّى الصغير في البرطل.

الخاصّة. ذهب محمّد مع ابن الخطيب وابن زمرك ـ الذي أصبح بعد ذلك أمينه الشخصيّ إلى مراكش ـ وحرسه من المسيحيين الذين أسلموا.

كان اسماعيل المغتصِبُ ضخم الجثّة، ولم يكن جاهلاً؛ فقد تعلّم ـ مثل الكثير من الأمراء النصريين ـ اللغةَ اليونانيةَ وكان معلّمه معتوقاً من أصلٍ مسيحي يُدعى عبّاد. لكنّه لم يكن يملك شخصيّةً، وكان مخنّثاً وعنّيناً؛ يصفرُ شعره، الذي يخلطه بخيوط الذهب والفضّة ويصل حتى خصره. لم يكن حتى شخصية زخرفية؛ ولا يمكن أن يستمرّ ولم يستمرّ. جُزَّ رأسه ورؤوس وزرائه في ليلة من ليالي الخريف الأولى بمناورة من متآمر آخر. جرى الدم على أرض فناء القصرِ ولطّخ قواعدَ الأعمدة. وارتقى إلى العرش محمّدٌ آخر، السادِس، الذي كانوا يُلقّبونه بالأحمر، لأنّه كان يصبغُ شعره بالحنّاء والقرطم. كان دميماً، انفعالياً فيه غمّازات عصبية، بذّاً، فظّاً ولوطيّاً. كانت عيناه صغيرتين وبرّاقتين تسبران محدّثه حين يُقرّر أن ينظر إليه. وهذا ما لم يكن يحدث دائماً. أحدث كسراً في السياسة الخارجية: تصالح مع بِدرو، ملكِ أراغون، ورفض دفع الجزية لقشتالة. فانبرى بِدرو منذ تلك اللحظة للدفاع عن محمّد الخامس، ودخل المرجَ ووصل على مقربة منّي حتى بَينوس (الصنوبر). في مراكش تلقّى محمّد رسالةً من عالم فلكٍ هو أحمد الأنصاري، تنبّأ فيها بصعود الأحمر إلى العرش وينصحه، إضافة إلى ذلك، باليوم الملائم للقيام بالضربة؛ والآن تنبّأ بعودة الملك المخلوع وتنبّأ في الوقت ذاته بأنّه هو نفسه، المنجّم، سيُعاقب. وحدث هذا، لم يكن هناك حاجة لاستشارة النجوم لتوقّع ذلك.

بعد أشهرٍ هَزَمَ السلطانُ الأحمرُ بِدرو ملك قشتالة قرب وادي آش. فدعم هذا، وقد استشاط غضباً، عودةَ محمّد المخلوع إلى الأندلس واستقرَّ في رندة، التي كانت ما تزال في أيدي المرينيين وشكّل حكومته، مستوزراً ابن كماشة، من الأسرة ذاتها التي أعطت

آخر وزير للأسرة الحاكمة (وإن لم تكن له خيانة هذا: ولولا ذلك ماكانت لتدوم أكثر من قرن) وابن رهن كقائد عسكريّ. قامَ في العام 1362 بعملية مشتركة مع بِدرو الأوّل ضدّ الأحمر. وحين حوصر هذا وكانت المدائن ضدّه (لأنّها كانت تُبدّل أصحابها مرّة وأخرى، دون أن تكسب شيئاً، وأُفقِرَتْ بسبب الحروب، التي لم تكن تفهمها وتُضرّ بها) هرب من المملكة ولجأ إلى قشتالة، وطلب بشكل مستغرب مساعدة دون بِدرو، الذي يُسميّه بعضهم القاسي، وبعضهم الآخر العادل، بحسب تجاربهم معه. مَثُلَ أمامه في حقول تابلادو بالقرب من إشبيلية، على متن حمارٍ وهو يرتدي الأحمرَ. الملك، لاأدري ما إذا كان قاسياً أكثر مما هو عادل أم العكس قتله بيده وأسر حاشيته، التي كان بينها عثمان أبو العلاء، الذي طالما تآمر ومنذ زمن طويل.

بعد أن عاد محمّد الرابع إلى العرش حاول أن يوقِف ما سُمّي بحرب الاسترداد ويتأهّب لمواجهةِ تدخّلٍ مرينيٍّ محتمل، الخطَرَين اللذين يحيقان به مثل كماشة من الشمال والجنوب. أسّس سياسته الخارجية على قاعدة الصداقة مع قشتالة، وهذا ما حدّد إطار علاقته مع أراغون، التي كانت من أنصار تراستامارا، الذي كان حضوره يُكرّر في قشتالة الصراعَ ضدّ مملكتي (يجب الاعتراف بأنّ الصراعات الأسريّة لم تكن قط مقتصرة على أبنائي). وبما أنّ قشتالة كانت تميل إلى جانبها إنكلترا ونافارّا فقد اقترحت أراغون على المسلمين التحالف معها، لكن مراكش وسلطاني بقيا مخلصين لبِدرو الأوّل: ليس عبثاً أنّهم دائماً أخذوا عليه في عالم النصارى صداقته مع المسلمين. وبالاستناد إلى ذلك تظاهر محمّد بوجود بحملةٍ صليبية ضدّ سلطنته، ودعا إلى الجهاد فهرعت إليه تلمسان وسلطان فاس. واجهت الأندلس إنريكِ دِ تراستامارا، لكنّ وضعاً شائكاً ظهر: حَصّنَ تراستامارا حدودَه واستولى على عددٍ من المواقع، وهاجم الأراغونيون سفني وشواطئي بحراً، وأثيرت في ألمريّة، منطقة الثورات المعتادة، ثورة انطفأت حين لم تلق دعماً. في

تلك المرحلة المفصلية بَدّلَ محمّد، بعد أن رأى الماءَ يصل إلى عنقه، موقفَه واعترف بتراستامارا ملكاً على قشتالة. لم يفعل شيئاً آخر غير أنّه دفع لِبدرو ذات العملة التي دفعها له. بعكس كلّ ما هو متوقّع قام هذا بردّ فعل وثبّت سلطته على القسم الأعظم من قشتالة، فعاد محمّد واعترف به. واستولى باسمه، أو من يدري باسم من، على باغة وأبدة وبياسة ولامس حدود قرطبة وإن لم يحتلها. لكن في العام 1369 حالف الحظُّ جانبَ إنريكِ وقتل الملكُ أخاه في حقول مونتيل. وأمام حالة الفوضى التي وجدت فيها قشتالةُ نفسها عزّز محمّد حدودَه واحتلّ مواقعَ استراتيجية قريبة من رندة وأخرى بين جيّان وقرطبة والجزيرة الخضراء. كانت المسألة، حسب قوله، تتعلّق بمساعدة آخر شرعيي قرمونة، حيث كان يسكن أبناء بِدرو وعشيقتِهِ ماريَا دِ باديَا الطبيعيين. ولهذا السبب، حسب قوله أيضاً، خبّ قريباً من محيط إشبيلية وعاد إليَّ محمَّلاً بغنائم رائعة جدّاً. المسألة أنّه اعترف هنا مرّة أخرى بتراستامارا ـ الذي أصبح اسمه إنريكِ الثاني ـ واتفق معه على هدنة لمدّة ثماني سنوات، إلى جانب الهُدَن الموقّعة مع أراغون والمغرب التي سمحت له بسلام مُعتبَر. طبعاً لم يكن سلاماً كاملاً: دائماً كان هناك، حتى في أكثر المراحل سلماً، غارات وهجمات ومناوشات، وأَسْرٌ وسرقات وانتقامات من الجيران. هذا الغليان جوهري على الحدود.

القطيعة غير المرغوب بها مع مراكش تُعزى لابن الخطيب. فقد كان حذراً وغيرَ متحمّس للانتقام منها، وهرب خلال إحدى أسفاره التفتيشية إلى جبل طارق إلى المملكة الأفريقية. وحين اشتمَّ محمّد الخيانة طالب بتسليمه أو قتله. فردَّ عليه السلطان المراكشيّ أنّه كان باستطاعته أن يقتله أو يحكم عليه بالزندقة الصوفية ـ تلك كانت التهمة ـ خلال وجوده هنا. (الصحيح هو أنّ التصوّف ومثل كلّ ما يخرج عن التعاليم الصارمة والمحتملة كانت دائماً عرضة للخطر). كان هناك آنذاك مثلّث، يكاد يكون متساوي الأضلاع مكوّن من الأسرة الملكية والفقيه ـ القائم على المذهب المالكيّ المُحافِظ ـ

والتصوّف. لكنّه كان باستطاعة أيّ توتّر أن يقطع الضلع، يُفهم من ذلك الضلع الأضعف: التصوّف، فإذا رأت السياسةُ الوضع مناسباً لها، اعتبرت أيَّ نصٍّ أو موقفٍ صوفيٍّ قابلاً لأن يتحوّل إلى مثلبةٍ، بل وإلى جريمة تتعلّق بالذات الملكية، أو بالذات الوطنية. لم يكن المتصوّفة عادةً رفاقاً سهلي القياد، لكن ما لا أعرفه معرفةً حقيقية هو ما إذا كان ابن الخطيب صوفيّاً حقيقيّاً أم لا. المسألة أنّ من تمكّن من قتله وحرقه لاحقاً في داره في فاس هو تلميذه المفضّل ابن زمرك. لم يتدخّل القانون وأعتقدُ أيضاً أنّ الدين لم يتدخّل، فكلّ شيء كان مسألة انتقام خفيّ ومطامع قذرة، أي ما يحدث دائماً.

محمّد السئم من هيمنة العسكر المرينيين ـ متطوّعي الإيمان ـ ومن مشاركتهم في المؤامرات، المتأثرة بالمملكة الأفريقية، ألغى منصبَ القائد، الذي يجب أن يكون دائماً في يد أميرٍ من أسرة بني مرين ونقله إلى أسرته. بعد هذه الحركة الخطيرة احتلّ، بالاعتماد على موقعه في رندة، جبلَ طارق، وحين أصبح مقابل أفريقيا، أنعش طمعَ الطامعين ضدّ السلطان المراكشي حتى تمكّن من المناداة بأبي العبّاس، أحد أبناء أبي سليم، ضيف الحمراء لزمن طويل، ملكاً.

كانت علاقاته مع مماليك مصر حميمة لكنّها تافهة؛ يتبادلون بعض السفارات الصغيرة المحمّلة بالهدايا، لكنّ المعاملات التجارية المثمرة كانت ما تزال في أيدي أراغون وقشتالة. ولكي يكبّل أيدي هاتين المملكتين عزّز علاقاته مع تلمسان وتونس. وهكذا استطاع أن يُطمئن الجنوب، فالشمال كان قد هدأ تلقائيّاً، لأنّ إنريكِ الثاني وابنه خوان الأوّل امتصّهما الاستقرارُ في العرش وإلهاء نبلائهما التمرّديين بقوّة العطايا والحملات المحيطية، الأكثر انتشاراً من الدينية. من هنا كان أن ثبتت حدود مملكتي في هذه السنوات بدقّة: من الشرق بيرة وبلش وبلش مالقة؛ ومن الشمال جبال شقورة، اللسانة وبارباندا ولاس يغواس ومن الغرب جبال غرازاليما وأبريق

واستمرّ الرواح والغدوّ الذي لا غنى عنه على طول الحدود، التي بقيت مع ذلك محكمة ومسكّنة. وهو ما سمح للسلطان النصري أن يُنهي بناء عماراته وقصوره وتجميلي.

ظروف من طبيعة متباينة تفسّر الازدهار الذي وصلتْ إليه خلال حكم محمّد الخامس. أوّلاً ساهم الوضعُ السياسيّ الذي كانت تمرُّ به القوى الأخرى في شبه الجزيرة بشكلٍ قويّ في أن يُشكّل الملكُ النصريّ عاملاً مهمّاً في اللعبة السياسية. بدءاً من موت ألفونسو الحادي عشر، أرجأت قشتالة تحقيق ما كان يُشكّل حتى تلك اللحظة ذروة تطلّعها السياسي الخارجي: الانتهاء مما أسيء تسميته بحرب الاسترداد. تخلّى بِدرو الأوّل وخلفاؤه عن تلك المهمة ليدخلوا بفعالية في الحرب الأهلية، الناتجة عن صراعات الأسرة الحاكمة التي استنفذت خلال عقود الطاقات القشتالية كاملة. لم تَجْدِ نفعاً التوصيات التي أسداها البابا مرّاتٍ كثيرةً للملوك النصارى في شبه الجزيرة، ناصحاً إيّاهم من خلال مفوّضيه، بوضع الحروب الداخلية في المقام الثاني لتكريس كامل نشاطهم الحربي للحرب ضدّنا. وبالتالي فإنّ مشروع ما أُسيء تسميته بحرب الاسترداد، التي بُدئ بها مباشرة بعد الغزو المزعوم، قُطعت فجأة ـ باستثناء فِرناندو حاكم أنتقيرة ـ ولن تتجدّد إلّا بعد قرن ونصف، أي، إذا ما تكلّمنا بوضوح، حتى جدّدها الملكان الكاثوليكيان باندفاع جارف وتمكّنا أخيراً في نهاية القرن الخامس عشر من تحقيق ذلك الحلم على أرض الواقع.

عوامل أخرى أثّرت أيضاً بقوّة لصالح محمّد الخامس. فمدّة حكمه الطويلة سمحت له أن يكرّس نفسه بانهماكٍ لتحقيق سياساته ذات الطبيعة الداخلية والخارجية، وشخصيته العظيمة شدّت إليه طاعةَ رعاياه. لقد أبرز المؤرّخون بالتفصيل الدقيق شخصيةَ وصفات هذا الأمير البارزة: وصل إلى العرش في عزّ شبابه، لم يكد يدخل سنّ البلوغ، كان جميل الحضور، سخيّاً، جواداً، حسّاساً أمام

النوائب، حتى أنّه كان قادراً على ذرف الدمع حين يسمع قصص الفجائع والألم، عادلاً وإن كان حليماً، صارماً لكنّه ليس قاسياً. كان يملك ذكاءً حادّاً وتزيّنه شهامة نبيلة ودأب كريم. كان رؤوفاً، شعر بنفسه مشدوداً إلى الجهاد وشارك فيه. كان يُحبّ رياضةَ الفروسية ويشارك في المبارزات بما فيها تلك التي كانت تجري خارج محيطي. كان طبيعيَّ التواضع، يتنزّه في شوارعي على صهوة جواده، دون صلف، في ثياب قشيبة لكنّها ليست باذخة ولم يكن يُسَيِّرُ خلفَهُ موكباً كبيراً. هذه الفضائل، التي كان الشعب يعرف كيف يُقدّرها، لم تُكسِبه ثقة أبنائي وحسب، بل أكسبته أيضاً حبّهم واحترامهم. لن أفِه شكري قط لتزييننه الحمراء بالقناء الذي يحتوي في وسطه على فسقية الأسود، والمساكن المحيطة به.

سار حكم خليفة محمّد الكبير في جوّ السلام الذي أرسا أسسَهُ والدُه. لم يكدْ يدوم أكثر من سنة: يوسف، الثاني الذي يحمل هذا الاسم، مات مبكّراً؛ لم يستطع أحدٌ أن يؤكّد أنّ أسبابه كانت طبيعيةً. أوّل ما فعله هو أنّه سجن في ألمرية ابنَ زمرك، وزير والده. لكنّه أعاده إلى منصبه قبل موته بقليل. كان يهيمن عليه خالد، وهو عتيق من عتقاء محمّد الخامس، الذي قرّر قتل أولاد السلطان الثلاثة، تفادياً للمشاكل: سعد، ومحمّد ونصر. لكنّه لم يكن كما يبدو نزيهاً تماماً: فقد كانت تستحوذ عليه الرغبات ذاتها التي كان يقاتل ضدّها: تآمر مع طبيب يهوديّ، يحيى بن السيّد للإطاحة بالسلطان. ما إن علم يوسف الثاني بجحوده حتى قتله بيده وسيفه عند قدمِ العرشِ مع بدء انحناءة الاحترام؛ وأمر بقطع رأس الطبيب في السجن. مدّة حكمه القليلة المتبقّية قضاها وحده، فمن يمكنه أن يستغرب ذلك؟

أبعد ابنُهُ الأصغرُ، محمّدٌ، بالتواطؤ مع كبار أصحاب الرفعةِ، الأخَ الأكبر، يوسفَ، الذي كان الحكم من حقّه وسجنه في شلوبانية. الحقيقة أنّهم أرسلوه إلى هناك كي يقطعوا رأسه، لكنّ حارسه ـ

المغرم المتحمّس في عزلته بالشطرنج ـ قامر بحياة السجين في إحدى المباريات وربحها الأمير. اتخذ محمّد السابع من كان قائداً لدار أسلحة أبيه وزيراً له، وهو ما أظهر عنده ميلاً بحرياً لم يتم التأكّد منه. حلّ من جديد محلّ ابن زمرك، الذي لم يكف عن إرسال شكواه إليه:

أتعطش أولادي وأنتَ غمامة
تعمّ جميعَ الخلقِ بالنفع والسقيا
وتُظلِمُ أوقاتي ووجهُك نيّرٌ
تفيضُ به الأنوار للدين والدنيا

وكان يظهر فيها بشكلٍ خاطف بعض العتاب المستند إلى خدماته لأسلافه:

وما زلتُ أُهدي المدحَ مِسكاً مُفَتَّقاً فتحمله الأرواحُ عاطرة الريّا
وقد أكثر العيدُ التشكّي وإنّه وحقّك يا فخر الملوك قد استحيا.

وتمكّن بالفعل أن يجعله يعيده بعد عام إلى منصبه. لكنّ المؤرّخ ابن الأحمر، الذي كان أخاً للسلطان أيضاً، وروى أحداث حكمه، يقول إنّ الوزير كان متعجرفاً ووقحاً وبعيداً عن المسائل الاقتصادية، ذا مزاج فظّ، دسّاساً وغير كفء. ثمّ إنّ شيخوخة ابن زمرك ومكوثه الطويل في منصبه أثارا الكراهية ضدّه؛ فالزمن الجديد يتطلّب موظفين جدداً، وكان في قاعات الانتظار ناس كثيرون يتطلّعون للحلول محلّه. ولم يكن مستغرباً أن يهاجم أعوان السلطان ذات ليلة بيتَ الوزير، الذي كان يقرأ القرآنَ، بين أولاده وخدمه ويقطعوا رؤوسهم جميعاً بحضور نساء الأسرة. في الأعماق يد الله خفيّة، لكنّ ذاكرتها لا تخطئ، ربّما للسبب ذاته الذي أزاح به ابنُ زمرك ابن الخطيب أُزيح هو. قال أحد الذرائعيين: «يجب أن يُقتل من حين لآخر حاجبٌ أو وزير؛ ولا حاجة لإذاعة السبب: الجميع سيعرفونه».

استغلّ محمّد السابع الاضطرابات التي أثارتها أقليّة إنريكِ

الثالث في قشتالة، كما هو حال كلّ أقلّية، فهاجم مُرسية ولورقة وكارباكا، لكنّه هُزِم عند انسحابه في مضيق نوغاليت من قبل ألفونسو يانيُث فاخاردو، القويّ، الذي تحوّل إلى أسطورة بين مُسلِميّ (مُريح بالنسبة للبشر أن توجد الأسطورة، من هنا كان أنّ كلّ عصر يتطلّب واحدة يرتاح إليها. ومن المفيد لهم أيضاً أن يلقوا باللائمة على حظّ أحدٍ ما تصعب مقاومته). في هذه السنوات الأخيرة من القرن الرابع عشر قامت هجماتٌ على مُسلميّ قصيرة الوقت لكنها ليس قليلة العدد. أحد أهم هذه الهجمات كان هجوم رئيس رهبنة القنطرة العسكرية، الذي حاول رئيس رهبنة شنتيقب أن يثنيه عنها قبل أن يموت على الحدود. تلقّى إنريكِ الثالث في الوقت ذاته خبرَ قطع الهدنة، دون موافقته، وخبر موت رئيس رهبنته. وصل مواطنيّ المدفوعون بروح ملكهم الحربية إلى مشارف قرطاجنة؛ بينما كانت العلاقات التجارية ما تزال على حالها كما هي العادة، بل وأكثر من ذلك تحسّنت. إنّه أمر لا يفاجئ إلّا من ليس معتاداً على المفاجآت والشدائد؛ التجارة تتأثّر بالسياسة أقل بكثير من الدين، ولا تسمح أبداً للدين أن يؤثّر عليها.

في العام 1404 اعتقدَ إنريكِ الثالث ـ العليل، وهو ما لأجله سمّي بالمتألّم ـ أنّ ساعة العودة للبدء بالحرب قد حانت : فاقتصاده لم يكن كارثياً، وعاد ليتصالح مع البابا، والهُدَن تقوم بدورها بشكلٍ جيّدٍ مع إنكلترا (تزوّج من ابنة عمّه كاتالينا بِ لانكاستِر، حفيدة دون بِدرو الأوّل؛ وبهذا الزواج ارتبط الدَّمان: دمُ المقتول ودم القاتل). أبلغ بطريقةٍ نبيلة مشروعَ عودته للهجوم إلى الملكين مارتين الأوّل ملك أراغون وكارلوس الثالث ملك نافارّا. ورغم ذلك لم يتلقّ ثمناً جيّداً. فالأوّل كان له اتفاق تجاري قوي جدّاً مع أبنائي؛ والشيء الوحيد الذي فعله هو أنّه طلب أن يترك له بحرية العمل، حين تحين ساعة القطيعة وأن يعِدَ بعدم التدخل. أمّا الثاني فالشيء الوحيد الذي حصل القشتاليُ منه عليه هو أنّه أرسل مبعوثاً ليبلغ محمّد بالتحضيرات (المبعوث الذي وقع بالمناسبة في قلعة يحصب، في يد قرطبيّ حدوديّ من فرع آل أغيلار، حذّر بدوره ملكَ قشتالة). على

كلّ حال كان المبعوث يتسلّى: فالجواسيس الأندلسيون كانوا يضعون سلطانهم في صورة الوضع تماماً. إنّ سياسة الصداقات والعداوات المتبادلة، التي لا نهاية لها، كانت تؤدّي إلى أنّ الجميع كانوا في صورة الجميع.

سبق أبنائي الملكَ إنريكِ، انطلاقاً من فرضية من يضرب أوّلاً يُصِبْ مرّتين: سواء في مرسية حيث لاقوا مقاومة كبيرة في بيرة ولورقة، كما في الجنوب حيث سيطروا على أيامونتِي. قبل أن تُعلن العداوات مفتوحة على مداها تمّت محاولة إجراء مباحثات، لكن دون نجاح؛ فلم يتّفق إلّا على هدنة ملتبسة. ملكي النصريّ، المتيقّن بأنّ النصارى سوف يخترقونها، خرقها في الربيع التالي في أستيجة ومدينة شذونة وبِرْذنار وبناميجي في الوقت ذاته. أمام هذا الهجوم المعزَّز أمر أنريكِ الثالث رؤساءَ الرهبانيات العسكرية بأن يحشدوا قواتهم على الحدود. لكنّ محمّداً، الذي أتقن التمويه دائماً، استغرب الأمر وأظهر أحسن النوايا بذريعة تبادل أسرى، وأرسل سعيداً الأمينَ، وهو من أسرة موالية ومجرّبة في إخلاصها (هذا إذا كان يمكن للإخلاص أن يُثْبَتَ)، ليتحالف مع رئيس رهبانية شنتيقب العسكرية. وانقضى الصيف بين أخذٍ وردٍّ حتى شهر تشرين الأوّل، حيث تمّ توقيع هدنةٍ لمدّة عامين، مع ضمان حرية التجارة ووجود قضاة من كلا الطرفين للنظر في القضايا الحدودية. ومع ذلك فالواقع كان شيئاً مختلفاً تماماً: كلّ شيءٍ كان مناورة مماطلة من السلطان ليتاح له تنظيم قواته وإعادة تسليحها. وبالفعل ما إن رأى نفسه جاهزاً، حتى هاجم قيجاطة وبياسة. قاوم بِدرو مانريكِ، حاكم ليون، لكن النبلاء القشتاليين هلكوا عند قولجر بالقرب من قيجاطة. قرّر إنريكِ الثالث، الذي وصف تلك المجزرة بالخيانة، الانتقامَ. استدعى مجلسه في تشرين الثاني واجتمعوا في كانون الأوّل في طليطلة، ولم يكن الحظّ وافراً: ماتَ المتألم يوم الاحتفال بعيد ميلاد مُخلِّصه. الوصاية على عرش خوان الثاني أخذتها أمّه كاتالينا دِ لانكاستِر وعمّه الأمير دون فِرناندو على عاتقهما، وهذا بالنسبة إلى مصيري ذكرى بائسة.

أقولُ هذا لأنّ ذلك البلاط منح الإعانات المالية لحرب موت أو حياة. استُأنف هذه المرّة ما أُسيء تسميته بحرب الاسترداد، التي شجّعها الأمير كمثلٍ للشجاعة المؤمَّلة، التي اندفع بها النبلاء النصارى، متعطّشين للمجد، سئمين من قشتالة. افتُتِحَ القرنُ الخامس عشر بنموّ سكانيّ واقتصاديّ فرضته وقفة من وقفات التاريخ. الحملة التي أقرّها البلاط استمرّت من 1407 وحتى 1410. بدأت ـ والوقت ما زال شتاء ـ من مُرسية في الشرق، حيث احتلوا إشكر، وإن اضطرّوا إلى إخلائها، ومن بَرونا في الغرب التي أُوقِفت فعلاً. كان هدف الوصيين على العرش احتلال رندة والاستمرار بتفكيك دفاعات مملكتي؛ لكنهم لم يدركوا الحدود إلّا بعد احتلال المضيق في نهاية الصيف. هناك احتلوا زاهرة وشتنيل setenil ـ حيث جُرِحَ دون فِرناندو الوصي على العرش ـ وقنيط cacte وأيامونتِي وبعض المواقع الغربية الأخرى، لكن بثمن باهظ من الرجال والموارد جعلهم يُفكّرون أنّه لا شيء يعوّضهم إيّاه. في الخريف، تضاعفت أعداد الهاربين من المعارك وعمّ الإحباط. في تشرين الثاني توّجت العودة إلى إشبيلية الحملةَ بالفشل: نفقات باهظة والنتيجة بائسة. خاصّة إذا أُضيف إلى ذلك أنّ أبنائي الغرناطيين قاموا بهجوم معاكس وصل حتى أسوار جيّان واحتلوا قبذاق التي كانت تُسيطر على طريق قلعة يحصب، لوقوعها عليه. طلب السلطان في هذه الظروف من فِرناندو هدنةً أجبره البلاط القشتالي على منحها له لمدّة ستّة أشهر: من نيسان وحتى تشرين الثاني من العام 1408. في منتصفها مرض محمّد، الذي كان قد طلبها لتحصين مملكته، إلى حدّ أنّه ماتَ ميتة أكّدوا دائماً أنّها كانت طبيعية. ومع ذلك فإنّ خليفته كان أخاه يوسف، الذي سبق وحبسه في شلوبانية.

حصل يوسف الثالث ـ وكان شاعراً وإن لم يكن رائعاً ـ في فتراتٍ متتالية على تمديد للهدنة حتى شهر نيسان 1410. من نافل القول أنّه تخلّلتها غارات وهجمات إسلامية مثمرة. المثل القشتالي الأسمى الذي يعتبر الحربَ شريفة كان يجد مثيله عند مسلميّ في

عزيمة أسرة بهية وموازية: أسرة بني سراج. فقد تدرّبوا على الشجاعة في تلك النزاعات الحدودية الخفية، وإن لم يكونوا في البداية أهل حرب، فمنذ سرّاج الخيل ذاك ـ السرّاج ـ الذي منحهم الاسم والأصل في نهاية القرن التاسع وُجِد في مالقة شاعرٌ غير قليل الشأن، اسمه عبد الله محمّد وفي القرن الثالث عشر وجد نحوي، هو أبو الحسين ابن سراج. في بداية القرن الرابع عشر كان يقطن هنا آخر هو محمّد ابن إبراهيم، مُنكبٌّ على دراسة علم النبات. وكان أن ظهر أخيراً في أواسط القرن مُحارب على رأس قصبة رندة: محمّد بن سراج. ومعه دخلوا تاريخَ الفتوحات والسياسة، وحكم عليهم منذ ذلك الوقت بالخير أو بالشر، حسب مصلحة من رافقوهم في مسيرتهم، أو من نظروا إليهم بندّية.

جاء يوم تجديد الهُدَن، رفض تجديدَها الأميرُ دون فِرناندو، الذي كان قد أعدّ بكثير من الدقة والضغينة حملة أخرى. كان هدفه هذه المرّة أنتِقيرة، المدينة الواقعة بين المرج والجبال، صلبة وخصيبة، سخيّة وحاسمة. بدأ الحصار في 26 نيسان بإقامة أربعة معسكرات حولها لمنع إرسال أدنى التعزيزات إليها. أحضر قائد الثغر بِرافان دِ ريبِرا معه من إشبيلية سيفَ فِرناندو القدّيس، كي يُلهب حماس الجيش؛ يبدو أنّ قراراً حاسماً قد اتُّخِذَ. حاول شقيقا يوسف، علي وأحمد، أن يكسرا الحصار من أرشيذونة، لكنّهما هُزِما في لا بوكا دِل أزنو (فم الحمار) غير بعيد عن أنتِقيرة. كان الأمير ثريّاً ويُقامِر بمكانته في الحملة، استخدم المدفعية وآلة حربية غير معهودة. في هجوم السابع عشر من حزيران أحرق المُحاصَرون أبراجَ المعركة، لكن سرعان ما استُبدِلت دون تأخّر. حاول السلطان أن يشتري الانسحابَ ولم يتمكّن؛ فحاول التوصل إلى هدنة لمدّة عامين، لكنَّ الأمير لم يتكرّم عليه حتى بالردّ. يوم السادس عشر من أيلول هاجمت مجموعة من النصارى برجاً مهملاً في السور في غفلة من المُحاصَرين، فدخلت منه الفاجعة. استسلمت أنتقيرة. لجأت حاميتُها إلى قلعتها لمدّة ثمانية أيّامٍ أخرى. وُقِّع الاستسلام مع

احترام حياتهم وأملاكهم وحرّيتهم باللجوء إلى محيطي، فاستقبلتُهم في الربض الذي سُمّي منذ ذلك الوقت بربض أنتقيرة. في اليوم التالي كُرّس الجامع الكبير لمخلّصِ النصارى وخفقت رايات سان إيسيدرو في أعلى البرج الشامخ الذي طالما كان محطّ اعتزاز أبنائي. بلّل الدمعُ جميعَ الوجوه. قَبِلَ النصارى، بنوع من الراحة والتأكيد على فرحتهم، الاتفاقَ على معاهدة، لكنّ ما وُقّع كان تقرير إجلاء. مناعة مملكتي النصرية أصبحت من جديد ـ ونهائياً ـ بلا غطاء: كل ما قيل من كلام معاكس لذلك كان تبجّحاً وطنياً أو عنصرية أو خطباً مملّة لإثارة حماس شعب مخنوق. كانت الحقيقة واضحة للعيان منذ سنوات.

استمرّت هدنة 1410، بين أخذٍ وردّ حتى عام 1428. بنى يوسف الثالث قصره، معتدلاً أكثر من القصور الملاصقة له، كرمزٍ للظروف.

تأكّد خلال حصار أنتقيرة سقوط مسلمِيّ، فقد حدث شيء ذو دلالة سوف يقرّب بين أراغون وقشتالة. مات مارتين الأوّل، ملك أراغون بعد أشهر من وفاة وريثه الوحيد؛ وبقي العرش خالياً. وبعد كثير من اللف والدوران والتعثّر رسا الأمر يوم الثامن والعشرين من حزيران من العام 1412 بالمالِ على الأمير دون فِرناندو، الذي كان قد جعلهم ينادونه بالأنتقيريّ. كان خالاً لملك قشتالة، وبالتالي فهو تراستامار وزوج أميرة من أميرات لا ثِردا، امرأة قشتالة الغنيّة. التقت فيه أشياء كثيرة، ـ من بينها أنّه إداريّ رائع ـ لم تجعله يتحوّل إلى مرهوب. مدّد الهدنةَ مع يوسف، لأنّها كانت تناسبه. لكن ما إن أصبح على عرش أراغون حتى رفض أن يُضمّنها حرّيّةَ التجارة. أيّ أنّ هدنته لم تكن أكثر من التقاط نَفَسٍ. كان هدفه واضحاً: اجتثاث الإسلام من الأندلس. ولم يكن هناك من تجرّأ من قبل على طرح ذلك بمثل هذا التطرّف. من حسن الحظّ أنّه تُوفّي في نيسان من عام 1416؛ فوقّعت الهُدَن اللاحقة أختُ زوجته كاتالينا دِ لانكاستِر. الهدايا والعطايا التي كان يرسلها السلاطين اتخذت صفة الجزية.

مات يوسف في تشرين الثاني 1417. ورثه ابنه الأكبر، محمّد الصغير ابن الثمانية أعوام. الثامن بهذا الاسم. وكان يدير أمور السلطة وزيره علي الأمين، لكن مقابل هذه الأسرة كانت قد بدأت أسرة بني سراج تلعب دوراً رئيسياً. حرب أهلية أدمت وأضعفت المملكة: تمرّد بنو سراج في وادي آش وفي أوريولة، حيث كانوا يحكمون عسكرياً؛ واقترحوا حفيداً لمحمّد الخامس مرشّحاً للعرش: محمّد ابن نصر، ثم فرضوه سلطاناً (بدأ ذلك الانقلاب العسكري شقاقاً داخلياً بين السلالات لم ينقطع حتى اختفاء الإمارة). قد تميّز بنو سراج دائماً بمهارتهم في أنهم يُخرِجون من أكمامهم طامعاً بالعرش في الوقت الذي لا أحد يتوقّع ذلك. كان هذا حذراً ومكبوحاً (مكبوحاً بشكل خاص من بني سراج). تُوِّج في العام 1419. قتلوا علي أمين وهرب السلطان المخلوع. محمدّ التاسع الجديد، لُقّب بالأعسر، لأنّه كان كذلك. في مراحل السلام تكثر دائماً أعمال التمرّد والخلع: لا ندري ما هو في النهاية الأسوأ، أهي هذه الأعمال أم الحرب. حكم هذا السلطان حتى عام 1427 بطريقة سرّية وذكية ودفع مقابل الهُدَن ثلاثة عشر ألف دبلون ذهباً في العام.

عاد محمّد الصغير في العام 1427 بحكم حقوقه الشرعية. وكان من بين أنصاره الآخرين بنو بنيغش إحدى السلالات الشريفة بين مُسلِميّ، ولم يكونوا بدورهم نظيفين تماماً، لا في أصلهم ولا في سلوكهم، أو على الأقل كلا الأمرين قابلٌ للنقاش. غفر لبني سراج، لأنّه كان بحاجة إليهم، ظنّاً منه بأنهم بهذا الشكل سيقفون إلى جانبه. طلب واحداً آخر من بني الأمين ـ أسرة سفراء ـ ليفاوِض خوان الثاني على تمديد الهدنة. ومع ذلك بدأ بذلك علاقات على هامش العرش دامت حتى نهاية الإمارة، كذلك أرسلت أسرة بني سراج ابنها يوسف إلى قشتالة ومعه ثلاثمئة من أتباعها. كان ذلك في نهاية 1428. البعثة التي كانت أكثر من خاصّة معارضة للسلطان الحاكم، وتمكّنت من أن تجرّ خوان الثاني إلى طرف محمّد الأعسر، الذي سبق ولجأ إلى تونس. وضع ذلك الرجل تحت تصرّفه خمسمئة

رجل، احتلّوا بانضمامهم إلى أنصاره من أهل شبه الجزيرة ألمريَةَ ووادي آش واحتلوني أنا نفسي أخيراً. لعب خوان الثاني في تلك اللحظة ودائماً، مثله مثل كلّ من سبقه وجاء بعده، حسب مصلحته، دون أن يأبه بأيِّ يمين أو تحالف. في كانون الأوّل من العام 1429 حبس الأعسرُ الصغيرَ ـ لم أفهم قط لماذا حبسه فقط ـ في شلوبانية إلى جانب أخيه الصغير أبي الحسن علي، ابن يوسف الثالث الآخر، الذي فعلاً لم يُشارك في شيء. خوان الثاني وكثمن لمساعدته ـ الافتراضية وغير الفاعلة إن وُجدت ـ طالب بعددٍ من الحصون وبالإقرار بسيادته، الشيء الذي منحه له السلطان لأسباب تتعلّق بمرضه. بعد فترة قصيرة وفي نيسان من عام 1430 أرسل إليه سفارةً برئاسة وزيره إبراهيم عبد البر لتوقيع هدنة مقابل دعمه له في حربه ضدّ أراغون ونافار. ومع ذلك فمشروع خوان الثاني ـ لذلك تصرّف كما تصرّف من قبل ـ هو إثارة صراع داخلي يلغم مملكتي. كان في هذه المناسبة قد أعدّ لتبنّي محمّد الصغير، من هنا كان أن ودّع الوزيرَ بلطف كبير، ووعده على الفور بسفارة أخرى منه. أرسل لويس غونثالِث دِ لونا، كاتب المجلس: وجاءت اقتراحاته مُحْكمة بقدر ما كانت غير مقبولة: جزية عالية جدّاً، تحرير جميع نصارى المملكة والخضوع لطاعة قشتالة، مقابل هدنة لسنة واحدة. رفض الأعسرُ الاقتراحَ بكبرياء وغضب. ربّما كان هذا ما أراده خوان الثاني: فمشروعه قد اكتمل. قرّر بحمايةِ براءةِ حملةٍ صليبية من البابا مارتين الخامس، خوان الثاني ومحسوبه دون ألبارو دِ لونا، أن ينقضّوا على شرذمة المسلمين ـ تلك كانت عبارته ـ بقطعية مماثلة لقطعية دون فِرناندو الأنتقيريّ. وكان الوقت مناسباً: فالبلاط في بلنسية، أمدهم بمساعدات واسعة؛ وحُلّت بفضل القائد الحربي لونا الصراعات مع أراغون، وضَمِنَ بوساطة السفارات عدم تدخّل تونس ومرّاكش. هنا وهناك قُطعت الوصال وتحطمت الحدود وأُفلِتت العداوات من عقالها. وذات ليلة عاصفة، الثاني عشر من آذار من العام 1431 قام الماريشال بِدرو غارثيا دِ هِرّرا يدله الجواسيس المناوبون بالهجوم على مدينة رئيسية بشكل مباغت واستولى

عليها: هي خيمنا دِ لا فرونتيرا. وعندما انتبه محمّد التاسع، الأعسر لازدواجية لعبة قشتالة أرسل إلى شلوبانية من يقتل محمّد السابع الصغير. سمح موته دون ورثة بإمكانية أن يدّعي سعد ويوسف حقوقاً شرعية، وهو ما فعله الاثنان، كابني عمّ وحيدين له، وحفيدين ليوسف الثاني، لكن في أيّار تضاعفت تلك الحملة القشتالية الأولى. دخل ألبارو دِ لونا قلعةَ يحصب وهي الطرق الأكثر استخداماً إلى مرجي، دمّرها وانسحب بعدها إلى أنتقيرة وأستيجة. كانت السفن القشتالية في هذه الأثناء قد رست في المضيق لمنع وصول المساعدات الأفريقية المحتملة؛ فالنصارى لم يثقوا قط بالسلاطين المغاربة، والصحيح أنّه ولا حتى مُسلِميّ وثقوا بهم.

حسب ما تناهى إلى علم السلطان النصري من جواسيسه، كانت الخطّة قد وُضِعت بدقّة وسط الميدان يوم الحادي عشر من آذار. كان على خوان الثاني أن يحرّك قواته في قرطبة، الجسم الأعظم من الجيش كان سيتوجّه إلى مالقة كي يعزلني بهذا الشكل عن قوّات ساحل ألمريّة، مع ذلك فإنّ نجاحاً دبلوماسياً قام به الملك خوان جعل تلك الاستراتيجية غير ضرورية: في نهاية شهر أيّار مَثَلَ رضوان بِنيغش وزير السلطانِ، الذي جُزَّ رأسُه للتو، في قرطبة مع بعض الوجهاء، واقترح أن يُجلس على العرش بديلاً له يوسفَ ابن مول، عديل الوزير نفسه وحفيد محمّد الأحمر، ذاك الذي قتله بِدرو على ظهر حمار. فرك خوان الثاني يديه حين أفسد من جديد بين نصفي مملكتي بوساطة ذلك الطامع العجيب بالعرش، الذي كان يُسمّيه ابن ألباو، لأنّه لم يكن يعرف كيف يلفظ اسمه بشكلٍ أفضل. غادر قرطبةَ في حزيران ودخل أراضي بني نصر. أحرق وقطع الأشجار، ودمّر القرى، فرّق شمل الضيع حتى حدود بينوس (الصنوبر) التي سيطر عليها. وذهب إلى بينوس ليقدّم له الطاعة ابن ألباو ورضوان بِنيغِش وكلّ أنصارهما. وفي يوم 28 نصبوا معسكراتهم في مرجي قرب البيرة، مقابل أبوابي تماماً؛ كانت لحظات حاسمة. في الأوّل من تموز دارت معركة هيغِرويلة. اسم في

غاية التواضع لمعركة بهذه الضخامة: أخذت اسمها من شجرة كانت خالية حتى من الثمر. من حسن الحظ أنّ النتائج بالنسبة لأبنائي كانت متواضعة أيضاً. كان يقودُ القوات النصرية محمّد الأعرج، ابن أخ السلطان وصهره. حاول أن يحصل من المبعوث غونثالِث دِ لونا ـ الذي بقي ليعيش في حضني، كما كان يفعل جميع القشتاليين، عندما تلوح لهم أدنى فرصة ـ على سلام معقول؛ لم يكن هذا ممكناً. هرب المهزومون متعقّبين حتى أسواريّ؛ لم يتوقّف النصارى عن ملاحقتهم إلّا تحت نيران الأباردات (نوع من البندقية) التي كانت تحميها. لكنّ النتائجَ الاستراتيجية لكلّ هذا الضجّة من النصر كانت معدومة؛ رحمة الله أظلّتنا أنا وأبنائي بظلّها. كان نصراً من النوع الذي يسميّه اليونان وهمياً: لم يستفد منه أحد؛ فقط دمّروا المزارعَ والمنيات. أمر مجلس قشتالة الملكي بالانسحاب دون استشارةِ أحد: كان هناك نقص في المؤن وانتشر التململ بين الجموع، التي لم تعتد كثيراً على صعوبات الحياة في المعسكرات. تحوّلت الحملة الصليبيةُ إلى ما يشبه الفشل. لكنّ ربّما لم تدم تلك الحماية الإلهية طويلاً: سرعان ما انعكست الاية فهبّت مونتفريد لصالح المدّعي ابن ألباو مدعوماً من قائد الثغر الأكبر دونْ دييغو غومِث دِ ريبِرا، وقائد رهبنة قلعة الرباط العسكرية، دونْ لويس دِ غوثمان. انتفض أنصار محمّد التاسع؛ وشيئاً فشيئاً راحت القرى والمناطق الحدودية تنتقل إلى أيدي الأعداء: قمبيل، وإليورة، وكاسارابونِلا، وأردالش، وتورون، وإزنجار، وأرشيذونة وأخيراً لوشة حيث مات يوسف، زعيم بني سراج؛ وحدث نقص في المؤن، وانتفض حيّ البيازين المضطرب كما هو دائماً. وأمام هذا الأفق غادر محمّد الأعسر الحمراء ذات ليلة قارسة، ولجأ إلى ألمريّة، المخبأ المعتاد. ومن إليورة هزم رضوانُ بنيغش ومعه قرابة ألف فارس، هذا إذا كان من الممكن أن يُسمّى الخونةُ فرساناً، وإذا كان من الممكن أن يُسمّى من يختارون سلطانهم خونة، هزموا القليلين من المخلصين الذين بقوا. احتلوا مدينتي السلفى والسبيكة ثم الحمراء قلب السيادة.

حدائق جنة العريف، تفصيل من قصر الحمراء.

تصوير يغطي قبة قاعة الملوك
في قصر الحمراء، تحتوي على
شخصيات نَصرية.

تفصيل من الرسم السابق.

توَّجوا يوسف ابن ألباو، الذي كان رابع يوسف، يوم 1 شباط 1432. وفي يوم 27 منه صدَق الاتفاق المهين والمشين الذي سبق ووقّعه في أيلول في أردالِش ليحصل على الدعم القشتالي: عشرون ألف دبلون سنوياً على شكل جزية، تحرير جميع الأسرى النصارى في الشهر التالي على تتويجه؛ واجب أن ينفذوا خدمة عسكرية لصالح قشتالة؛ واجب وضع العراقيل أمام النصارى الذين وقعوا في الأسر ويريدون أن يُسلموا (كانوا يميلون جدّاً إلى الدخول في الإسلام والاندماج)؛ وواجب أن يحضر بنفسه إلى اجتماع البلاط القشتالي كتابع إذا التأم في جنوب طليطلة، وبوساطة ابنه إذا التأم في مكان آخر. كان من الصعب أن يكون الخضوع أعظم من ذلك؛ ثم إنّ جميع الشخصيات التي شكّلت بلاط السلطان كانوا مُشتَرين من قشتالة. هل من الضروري أن نقول إنّ التاريخ يُعيد نفسه بدقّة تقشعرّ لها الأبدان؟

تدخّل أبو فارِس، سلطان تونس لصالح محمّد التاسع، الذي لم يُسلّم بهزيمته. أرسل باسم الاثنين يطلب من أحد الجنويين أن يتباحث مع خوان الثاني في بلد الوليد. كان سيّان عند القشتالي من يكون السلطان: يفضّل قطعاً ألاّ يكون هناك من أحد وبذلك يستمرّ بتغذية الشقاق. انتقل محمّد من ألمريّة إلى مالقة، حيث كان محبوباً جدّاً وأبقى على نار الفتنة مشتعلة بين سكّاني، الذين كانوا على العكس من ذلك يكرهون يوسفَ كعبد لقشتالة، كما كان بالفعل. اعترفت شتنيل وجبل طارق ورندة بالأعسر. فتح له ابن أخيه الأعرج أبوابي في شباط من عام 1432: لم يبق مع يوسف إلاّ قسم صغير من البيازين والحمراء. فاستدعى هذا على الفور رئيسَ الثغر الأكبر في قشتالة، لكنّ قواته هُزمت من قِبَل الأعرج في مرجي وبذلك انتقم من هزيمته في هيغِرويلة وهُزم أيضاً رئيس رهبنة قلعة رباط العسكرية. الحقيقة هي أنّه ما من نصراني كان يضع كامل اللحم في المشوى، لأنّ فكرته لم تكن غير أن يخلع سلطاناً ويضع آخر حتى لا يبقى هناك قطع غيار. وفي نيسان من العام 1432 عاد محمّد التاسع،

ولم يكد يمرّ على خلعه ثلاثة أشهر، ليجلس على العرش للمرّة الثالثة.

وجلس بكلّ ما أوتي وما أضافَ إليه الانتقامُ من قوّة. وهاجم النصارى في كلّ مرّة تمكّن فيها من ذلك، وقد تمكّن من فعل ذلك بمهارةٍ ونجاح ملحوظ بشكلٍ شبه دائم. خسر، مثلاً، شقينة وبنسلامة في مرسية لكنّه كسب أليورة وأستيجة. خسر إشكر (التي فتحها بِدرو مانريكِ، ابن رئيس الثغر دون بِدرو ووالد المدعو خورخِي صاحب بعض المقطوعات الشعرية المحزنة التي كتبها عندما تيتّم وحالفني الحظّ بسماعها)؛ لكنّ الحظّ خالفه وكسب وادي آش وولمة وإبريق ومع ذلك كان عام 1436 عاماً سيّئاً فقائد ثغر مُرسية ألفونسو يانيثْ فاخاردو احتلّ بلش مالقة وبلش الأخرى(*) واحتلّ رودريغو مانريكِ غاليرا وكاستيجة، وبينما فشل كونت لبلبة، دون أنريكِ ألفونسو دِ غوثمان، في محاولته السيطرة على جبل طارق برّاً، تمكّن دون إنييغو لوبثْ دِ مِندوثا، الذي سيصبح مركيز سانتِيّانا، وكان شاعراً جيّداً وقتذاك، من احتلال ولمة. النتيجة أن المملكة انكمشت وانضبطت حدودها في العام 1439 والحرائق والغارات ألحقت الضرر باقتصاديات أبنائي، واستعاد قائدُ الثغر لونا مكانته على حسابهم وحساب تفادي القيام بحملات أوسع من حدود تعذيبهم. لكنّ القائدَ لم يعد هو السيّد؛ فوجهاء قشتالة وأمراء أراغون الجبّارون عارضوه. بالإضافة إلى الاحتفاظ بأملاكهما في أراغون كان جون خوان ودون إنريكِ يريدان أيضاً حكومة قشتالة؛ من هنا كان أنّه وبفضل أنّ النزاعات والخسائس والأطماع راحت تظهر في كلّ مكان تمّ البحث في هدنة لمدّة ثلاث سنوات، ثمّ عن أخرى لمدّة ثلاث سنوات أيضاً. في أعلى وأسفل الحدود، خطوب الدهر كانت تنعكس على امتداد التاريخ، تماماً كما لو في مرآة: الانشقاقات النصرانية تعادل الانشقاقات الإسلامية. عادت وظهرت في العام 1445 الحروب في داخلي: الحكومة المطلقة لمحمّد التاسع

(*) هناك بلش البيضاء وبلش الشقراء. م.

أيقظت منافسةٌ أخرى: منافسة ابن أخيه محمّد الأعرج، الذي كان حاكماً وقتذاك على ألمريَة، وراحٍ يعزّز منذ سنوات طموحه. استولى عليَّ بضربة مباغتة، وحلّ محلّ عمّه. لكنّ أبناء بني سراج الذين كانوا أعداء ألداء له لاذوا بمونتفريد وعيّنوا طامحاً آخرَ لم يكن يخطر ببال: حفيد محمّد الخامس وابن عمّ محمّد الثامن الصغير، يوسف بن أحمد الذي طالب عند موته بحقوقه. كان هذا قد تلقّى، مثل الكثيرين من أمرائي بمناسبة نفيه، تربيةً متزنة في قشتالة. دون ألبارو دِ لونا المنتصر على النبلاء في أولميدو كان يسانده كي يملك إلى جانبه سلطاناً على هواه. أزاح يوسف الخامس الأعرجَ عن العرش في أواسط عام 1445، لكنّه لم يمكث إلّا شهوراً قليلة: فقد كان القائد الثغري لونا ينوء بنفسه فكيف سيعيل آخر غيره. حلّ محمّد العاشر الأعرج محلّه من جديد في بداية العام. لكنّه أُزيح في بداية العام من قبل محمّد الأعسر، الذي حكم هذه المرّة للمرّة الرابعة.

انهمك هذه المرّة في المُحافظَة على الحدود وعلى نفسه، هاجم منطقة مُرسية، المعطّلة بموت يانْيث فاخاردو العظيم، واستعاد ما كان قد ضاع منها. وبقيت الحدودُ الشرقية على الحال التي تركها عليها فِرناندو الأنتِقيري. استغلّ الأعسرُ شقاقات قشتالة للحصول على الأرض والوسائل؛ وصل حتى جيّان. أضرم النارَ في سيسا؛ ووصل إلى حدود بلنسية؛ وهزم جيوش ثلاثة حكّام، كما هزم قادة كاستِلار وأنتِقيرة وحاكم مركيزية بليانة. وصل الأمرُ إلى حدّ أن خوان الثاني طلب الهدنة؛ منحها له محمّد، لأنَّ يوسفَ الخامس، الذي حكم لفترة قصيرة، تمرّد في مالقة (رغم أنّهم كانوا يُحبّونه جدّاً في هذه المدينة) ولأنّه أراد أن يغطي ماء الوجه ويحل مشكلة خلافته نفسها. قام بذلك بالاشتراك مع محمّد ـ الحادي عشر ـ الذي يلقّبونه بالصُغَيّر، صهره وابن محمّد الصغير، ذاك المخلوع عن العرش قبل ثلاثين سنة، لكنّه كان ما يزال يملك إلى جانبه بعض المتمرّدين الذين كان احتواؤهم ينطوي على الحكمة.

سأشير إلى حدث مهم. في العام 1452 أرسل عبدَ البارّ، قائد المرتزقة، إلى مملكة مُرسية ومعه ليس أكثر من مئتي فارساً وستمئة

من المشاة. انتصروا في مُرسية وأوريولة، لكنّهم اصطدموا في طريق العودة في لورقة بِبدرو فاخاردو، ابن يانيُثْ الشهير، الذي هزمهم في معركة البرجانة. كانت هزيمة تافهة، لكنّ شعراء التروبادور القشتاليين تبنوها ورفعوها إلى مستوى الملحمة. لم يكن هناك في ذلك العصر من يُحسِن تخليد النصر أو الهزيمة مثل الشعراء: حسب ما يدفعون لهم؛ وربّما حسب شيء آخر، لست متأكّدة.

منح خوان الثاني محمّد التاسع هدنة لمدّة خمس سنوات. لكن الذي كسبها بجهده لم يستغلّها: مات محمّد الأعسر في بداية عام 1454 ميتةً طبيعية. ما من ميتة أخرى كان باستطاعتها القضاء عليه، هو الضليع في أعمال التمرّد. خَلَفَ محمّد الحادي عشر الصُغَيِّر حماه. لكنّ بني سراج لم يكونوا يُحبّونه أو يريدونه، فأخرجوا له مرشّحاً آخر، تربّى بدوره نتيجة المنفى في بلاط خوان الثاني. إنّه أبو ناصر سعد، ابن عمّ محمّد الثامن، وبالتالي كان شرعياً، ويدعوه النصارى سيدي سعد أو سيريسا.

كان ألبارو دِ لونا قد أُعدِم في بلد الوليد: لم يكن مُسلِميً هم الوحيدون الذين يُنزلون بالرؤوس من أعلى الأعالي إلى أسفل السافلين. دور ما سمّي بحماقة بحربِ الاسترداد وقع على إنريكِ الرابع. كان قد أرسل إليه سيدي سعد قبل وفاة والده خوان الثاني مبعوثين يطلبون تدخّله في الصراع على العرش في مملكتي؛ وعلى رأسهم أبو الحسن علي، ابنُه ووالدُ آخر سلاطيني، أوقِف في شقوبية رهينةَ لا ندري ماذا. كانت تُرافِقه حامية من مئة وأربعين فارساً وثلاثين مشاة، انضمّ إليهم خلال الطريق آخرون من أنصارٌ سيدي سعد: ثلاثمئة رجل وضعوا في أربِالو ربّما كي يُمنعوا من أن يُدافعوا عن حقوقِ أحد. لأنّه في العام 1455 كان في مملكة بني نصر ثلاثة ملوك: الملك الصُغَيّر (الذي كان يتبعه أهل مالقة وألمريّة، وأهل وادي آش وأهلي)؛ سيدي سعد (الذي كان يُقيم في أرشيذونة ويحكم في رندة ـ الذي كانت حاميته الأفريقية مخلصة له ـ وكان

يدعمه بعض الأعيان في ألمريَة)؛ ومحمّد الأعرج (الذي كان يرفضُ الانسحاب وتتبعه إليورة ومُكلين وقلاعهما وكذلك جبل طارق). انطلق إنريكِ الرابع، المستفيد من الخلل في حملةٍ صليبية ضدَّ مملكتي.

أحرق أثناء دخوله الأوّل، الذي دامَ أربعة أيّام، أراضي مُكلين وأليورة ومنع حرب المناوشات، لأنّه أراد أن يركّز هجومه على القوى الحيوية، كي يُبهر أبناء بلاطه بذكاء وتباهٍ. في دخوله الثاني الذي دام أسبوعين، دمَّر أليورة وأرشيذونة، في الطريق إلى مالقة حيث كان يُقاوِم عبد البارّ وابن كماشة، والتقى في ضواحيها بأبي الحسن، الذي تفاهم معه جيّداً والتزم بعدم سرقة المحاصيل أو تدمير المعاقل المؤيدة لسيدي سعد، والده. في دخوله الثالث أحاط بمرجي من ناحية قلعة يحصب؛ وأسلم خلال ثلاثة أسابيع المزارعَ والقرى التي صادفته في طريقه للسلب والنهب، بعكس ما كان قد عرض في البداية، رفض أن يُقحم نفسه في معركة كبيرة. تململت النبالةُ القشتالية، سريعة الزوال، وتذمّرت، وإن كان ظاهرياً فقط كما أعتقد، من سياسة ملكها الجديدة القائمة الآن على إنهاكنا بالكمائن والاعتداءات الصغيرة في حملة متواصلة لا بهاء فيها. حين انسحب ترك لحاكم الكالا (القلعة) أمر توقيع هدنة مع محمّد الحادي عشر الصُغَيّر، مُمَثَّلاً بعبد البارّ. كانت الشروط مرهقة وخارجة عن نطاق الحالة، بحيث بدت وكأنّها عُرِضت كي تُنشَر في قشتالة: الاعتراف بالتبعية من خلال جزيات باهظة، تحرير ألفي نصراني خلال أربع سنوات، التنازل عن كلّ ما احتُلّ منذ موت خوان الثاني وفرض القيام بخدمة عسكرية في قشتالة. تُركت الأمور، أمام سياسة الصلف والفشر، على ما كانت عليه.

احتلّني سيدي سعد مدعوماً من سكّاني؛ وتابع حين أصبح في الداخل مباحثاتِهِ مع الماريشال دييغو فِرناندِث دِ قرطبة، كونت قبرة. وكان صديقاً جيّداً له ورفيق سلاح في بعض المناسبات؛ كان هذا الأمر ما يزال معتاداً حتى تلك اللحظة شبه الأخوية مما سُمّيَ بحرب

الاسترداد، التي كانوا يُقاتلون فيها كعادة قديمة مملة أصبحت الحربُ فيها، كما هو الحال في كلّ ما هو حتميّ، من صميم أبنائي وحياتهم. لكن توتر الوضع ـ الداخلي أكثر من الخارجي ـ شغل سيدي سعد؛ دعته مجموعةٌ مشجعة من أنصار الصُّغيَّر، الذي شاخ، لتُدخله إليّ. انطلق هو عبر الجبال ؛ نصب له أبو الحسن، الذي لم يدخل في الصغائر قط، كميناً، قاده إلى الحمراء، دعاه إلى تناول العشاء في قصر الأسود، وقطع رأسه بسيفه. وأمر في الوقت ذاته بخنق جميع أبنائه بمناديل العشاء ذاتها؛ ولم يتأخّر كثيراً في الزواج من زوجته، التي أنجبت له أبا عبد الله الصغير.

وهنا تأكّد الدخول الرابع لإنريكِ الرابع. تذرّع من أجل ذلك بأنّ سيدي سعد كان قد خرق الهدنة الضمنية (كما لو أنّ مثل هذا الشكل موجود في الوقت الذي كانت تُخرق فيه الهُدَن الصريحة والمقّرة تماماً). استولى على قلعة شُلر واحتل اشتبونة وزرع الدمار في مرجي. وتمكّن في طريقه إلى جبل طارق من جعل المدافعين عن مدينة سهيل (فونجيرولة) يلوذون بالقلعة فحاصرها. وبالقرب من الصخرة خرج الوزير ابن كماشة على رأس جيشٍ صغير، فاستقبله وقدّم له الطاعة ودعاه لصيد الأسود في أفريقية ـ بشكل مدهش لأنّ ابن كماشة دائماً كان يملك الوسائل ـ (يبدو أنّ الصيدَ كان الهواية الوحيدة لهذا الملك، إذا استثنينا صيد الرِجال) وكما كان متوقّعاً استقبلته قبائلُ الريف بشكل سيء، من المُحتمل أنّها لم تُعلَم بذلك، فعاد إلى طريف ثمّ إلى إشبيلية. وكان سيدي سعد الذي انهمك في المناوشات قد تقدّم باتجاه جيّان. خُرّب في آب مرجي من جديد وفي تشرين الأوّل مع عودة الاحتلال وجد سيدي سعد نفسه مدفوعاً لقبول هدنة لمدّة خمس سنوات مقابل دفع خمسة آلاف دبلون ذهباً وتحرير سبعمئة أسير. اختفت ما سمّيت بحرب الاسترداد كطموح سياسي لتتحوّل إلى مباحثات كانت بالنتيجة حسب الحالة وحسب من يبادر بها مهلكة أو غير ذات تبعات.

في الأيّام الأولى من العام 1457، حوّلَ إنريكِ الرابع جيّانَ إلى

ثكنةٍ عسكرية، وقام بدخوله الخامس. احتلّ إليورة وإشكر ولوشة، لكنّه اضطرّ للانسحاب حين دبّ الوهن في قوّاته وفيه نفسه. بينما وضعت المُعارضةُ في قشتالة الحربَ ضدّي في المقام الثاني، حتى أنّ فاخاردو الشجاع نفسه تمرّد. وصل النصريون من جديد إلى أبواب جيّان. ندب الملكُ كونت قبرة لتوقيع هدنة حتى عام 1461.

استُهِلَّ صيفُ عام 1462 ببعض التفوّق لصالح القشتاليين. لكنّ أبا الحسن انتصر في معركة المدرونيو القطلب، غير بعيد عن أستيبَة على بونش دِ ليون ابن كونت أركش، الذي أصبح فيما بعد مركيز قادِش وعلي لويس بُرميّا حاكم أوشونة. هاجم قائد ثغر سانتو رَينو «المملكة المقدّسة»، ميغِل لوكاس دِ إرانثو قلعةَ أريناس وهُزم: لكنّه زرع في تموز الدم والنار في ألديرة وقلهرّة وعاد إلى جيّان محمّلاً بالأسرى والغنائم، لكن ليس قبل أن يلقى مواجهةً قاسية من علي العطّار، حمو أبي عبد الله الصغير المستقبلي، الذي كانت تربطه به صداقةٌ كافية واحترام متبادل. استولى دوق مدينة شذونة وكونت أركش بوساطة خيانةِ أحد المرتدين على جبل طارق، واستولى دون بِدرو خيرون، رئيسُ رهبنة قلعة رباح العسكرية على أرشيذونة. شكّلت هذه الخسائر صفعةً معنوية كبيرة. حاول أبناء بني سراج الخائبون واليائسون أن يُخرجوا طامحاً مدهشاً آخر. اتخذ سيدي سعد في داخلي الإجراءات المناسبة للخروج من مكيدة أخرى من مكائدهم، فأعدم اثنين من أبرز أبناء الأسرة ووزيره مفرّج. هرب بنو سراج البارزون، الذين كانوا يسكنون الحمراء، إلى مالقة وتمرّدوا هناك؛ دون أن يملكوا الوقت لارتجالِ طامحٍ آخر للعرش، فأعلنوا أنفسهم رعايا ليوسف الخامس، ابن عمّ محمّد الثامن وسعد، الذي كفلته قشتالة كما كانت قد كفلته أيّام قائد الثغر لونا. استولوا على مالقة، والمنطقة الشرقية من المملكة ومِنَي بالدهاء والرشاوى والابتزاز. راحت حالةُ سعد تسوء من لحظة إلى أخرى؛ ووجد نفسه مجبراً على أن يوقع هدنة مع إنريكِ الرابع، مهما كلّفته، من تشرين الثاني إلى أيّار، وذلك لحلّ الخطر الداخلي. أخيراً تمّ في تشرين

الثاني من العام 1463 طردُ بني سراج من حضني. وفي كانون الأوّل توفّي يوسف الخامس لتثبيت سعد.

قام إنريكِ السادس بدخوله السادس في شباط من العام 1464، اقترب مع البرد من أستيجة باحثاً عن فرض ضرائب ومباحثات جديدة تحسّن خزانته. وقّعَ سعدُ هدنةً في جيّان لمدّة سنة، تُحترم خلالها التجارة الحرّة. لكنّ أبا الحسن خرج مع بني سراج ـ مغتاظين من الامتيازات التي منحها سعد للنصارى أو متظاهرين بالغيظ وحاول أن يُعيد عصوراً مجيدة، ربّما كانت ميتة دائماً. خَلَع سعدُ والدَه عن العرش، وأرسله أسيراً إلى شلوبانية (ربّما إلى حصن مُكلين، لم أعرف هذا بدقّة قط) ومع ذلك عارض أولادُ بني سراج أبا الحسن على الفور ورفعوا رايةَ أخيه عبد الله، الزغل مستقبلاً، الذي لم يطلبوا حتى موافقته؛ كانت تلك طريقتهم المعهودة. كثيراً ما أسأل نفسي عمّا إذا لم يكونوا في السنوات الأخيرة إلى جانب النصارى دائماً، محرّضين أو داعمين الأحزاب التي تستنفد أبنائي، متطلّعين إلى مشروعهم الخاص، الملتوي والمجهول بالنسبة للمملكة، والذي إمّا عمل فيه الآخرون بلين وإمّا أنّهم صُفّوا.

لكنّ آخر وأخطر لحظةٍ مرّت بها مملكتي بدأت مع انتهاء الحرب القشتالية بين إيزابيل وخوانا لا بِلترانِخا في العام 1480. تعزّزت السلطةُ الملكية. لقد نصبت إيزابيل وفِرناندو نفسيهما مدافعين عن النصرانية في بحر الشام ـ احتل الأتراك للتوّ أوترانتو ـ وكان ملك أراغون يعتمد في سياسته الدولية على تعاون قشتالة، هذا التعاون الذي لم يلقَهُ حتى أوج ما سُمّي بحرب الاسترداد. يُقالُ إنّ بدء الاعتداءات كان استيلاء أبناء الثغور المسلمين على الزهراء عام 1481؛ ومع ذلك فالحرب كانت مُقرَّرة منذ أشهر. وكان أن توغّل نبلاء الأندلس السفلى واستولوا في العام 1482 بكلّ ثقة على الحامة التي لا تبعد عن غرناطة إلا خمسة فراسخ. هكذا بدأت الحرب ـ التي دامت هذه المرّة حتى النهاية ـ تماماً مع انتهاء الهُدَن الأخيرة. وهكذا لُغمت مكانة أبي الحسن بعجزه عن استعادة الحامة

وقامت مجموعة بني سراج بانقلاب آخر، حين حرّروا أبا عبد الله الصغير من سجنه في الحمراء ـ محمّد الثاني عشر ـ ونادوا به أميراً، بينما لجأ أبو الحسن، والده، وعمُّه محمّد إلى مالقة. وحقّق هذان نصراً مدوّياً في شرقية مالقة حيث تلقّى عمّ الأمير الجديد اسم الزغل، أي الشجاع. وحين حاول أبو عبد الله الصغير أن يُحقّق نصراً مماثلاً، وقع في نيسان من عام 1483 في الأسر بالقرب من اللسانة، وبذلك استعاد والده السيطرة على مملكتي.

طرح الملك فِرناندو على نفسه مسألة ما إذا كان سيعتق أبا عبد الله ـ الذي كان أبنائي الغرناطيون ينادونه الزغيبي، أي البائس الصغير ـ ويقدّمه أمام أعين أهلي كأمير للسلام، أم يحتفظ به أسيراً. انتهى به الأمر إلى أن وقّع معه هدنة ذات طبيعة تقليدية ومنحه الحريةَ، في محاولة منه للإيقاع بين أنصار السلم وأنصار الحرب؛ لكنّ الفقهاء وأهل المدن كانوا قد حسموا أمرهم لصالح أبي الحسن ولصالح المقاومة ومعاداة قشتالة. فكّر ملكُ أراغون أنّه باحتلال الحامة والهدنة ووجود أمير تابع قد جرّب حماس معادته للإسلام، وفكّر بالاهتمام بشؤونه الدولية؛ وهذا ما لم يكن في الواقع ممكن التحقيق دون مساعدة قشتالة، وقشتالة أقرّت متابعةَ حرب الاسترداد. ومع ذلك كلّه كان عليها أن تغيّر استراتيجيتها: مئتان وخمسون عاماً من الدمار والغارات ونقبِ القلاع برهنت على أنّها ليست طريقة للحصول على مواقع مهمّة؛ الحرب حولي كان عليها أن تكفَّ عن كونها المثل الخطير، تشبه رحلة صيد؛ وبالتالي كان من المناسب تعزيز القوّة الملكية، وزيادة الوسائل العسكرية، خاصّة إذا ما فكرنا بأنّ الأتراك يشدّدون الحصار على نابولي. جميع الظروف عزّزت الحرب في العام 1484. لم تنقطع المناورات الدبلوماسية، لكنّها انتقلت إلى المقام الثاني، إلى أن فشلت في العام التالي فشلاً تامّاً حين طُرِدَ أبو عبد الله بعد أن احتلت ألمريّة من قبل عمّه *الزغل*، واضطرّ للهرب إلى الأراضي القشتالية. مارس *الزغل*، الواعي للحالةِ، دكتاتوريّةً عسكرية أوّلاً باسم أخيه، ثمّ باسمه نفسه، بعد أن

نادى به الفقهاء أميراً باسم محمّد الثالث عشر. لم يتأخّر أبو الحسن حتى مات.

شكّلت الحملات من 1485 إلى 1487 بالنسبة إليّ الضربة القاضية. كانت أهدافها ثلاثة: رندة وجبالها، أكثر بؤر الحرب الحدودية نشاطاً؛ ومالقة وشاطئها، وهي قلب المنطقة الاقتصادي، والمرج، الذي يعني احتلاله أنّهم سيتركونني عزلاء ودون مؤن. وبالفعل سقطت في العام 1485 قرطمة وكوين على طريق مالقة، لكن الدفاعات القويّة التي أقامها *الزغل* جعلت جيوش النصارى تحيد باتجاه رندة التي جرّ سقوطها معه سقوطَ جميع بلدان الجبال والقطاع الساحلي من المضيق حتى مشارف مالقة. كان أبو عبد الله في هذه الأثناء قد عاد إلى شرق الإمارة وأقام في ربض البيازين. لكنّه ونظراً لإدراكه بأن الانقسامات كانت لصالح قشتالة، اعترف للزغل بلقب أمير وتقاسما المملكة. اعتبر الملكان النصرانيان جميع الاتفاقات ملغاة بعد أن تحالف أبو عبد الله ـ نوع من الذريعة ـ مع عمّه؛ وأخذ فرناندو لوشة (التي كان يحكمها أبو عبد الله الصغير، الذي سقط في الأسر من جديد) إليورة ومكلين ومونتفريد وقلنبيرة وبذلك حرمني من مصدر تمويني الزراعي الرئيسي ومن طرق مواصلاتي مع موانئ مالقة. اشتدَّ الحصار وجدّد أبو عبد الله، قبل أن يُفكّ أسره من جديد، تبعيته وتلقى وعداً بأن ينال لقبَ دوق أراضي وداي آش وبسطة وبِيرة وبلش وبلش مالقة، هذا إذا استعادهما خلال ثمانية أشهر. وهكذا قاتل ملكا قشتالة *الزغل* كأمير وحيد، وإن لم يعترفا به واعترفا مع ذلك في شرق مملكتي بوجود إقطاعة مستقلّة إلى هذا الحدّ أو ذاك. لكنّ أبا عبد الله الصغير عاد في أيلولَ إلى البيازين كأميرٍ ولاقى دعم القادة القشتاليين في مرجي ضدّ عمّه *الزغل* الذي كان يسيطر على نصفي الذي يحتوي على الحمراء. كانت أيّاماً دامية أفضَلُ نسيانها. قدّم أبو عبد الله إلى أتباعه إذناً بالتجارة الحرّة منحته له قشتالة، مما جعل تجار مالقة يعلنون أنّهم من أنصاره. حين حاصر القشتاليون بلِش مالقة، خرج

الزغل لمناصرتها، وبينما كانت بِلِش تسقط كان أبو عبد الله يستولي على نصفيْ. شروط معاهدته الجديدة مع قشتالة أنّه سيضاف إلى منطقة سيادته المستقبلية مناطقَ وادي المنصورة والزناتي والنصف الشرقي من جبل البشرات ويحتفظ، حتى يتسلمها ملكاً له، بلقبِ أمير وبي عاصمة رهينة.

نظرياً منذ أواسط 1487 كنت ضائعة، لكنّني في الواقع لم أكن كذلك تماماً. انسحب *الزغل* إلى ألمريَة ووضع القسم الشرقي من مملكتي في حالة حرب، ومع ذلك فحصار مالقة، الذي دام ثلاثة أشهر ونصف رهيبة وسقوطها المحزن جدّاً الذي حوّل كلّ الذين بقوا على قيد الحياة من أهل المدينة إلى عبيد، أكّد مخاوفي السوداء.

بدأت حملةُ 1488 من حدود مُرسية مع احتلال بِيرة والمشقَر ووادي المنصورة وبلش وبلش مالقة وطبرنش، ليس لأنّها ستكون جزءاً من إقطاعة أبي عبد الله المستقبليَة بل لأنّ القائد يحيى النجار، حفيد يوسف الرابع، وقريب وحمو *الزغل* حاول أن يُسلّم ألمريَة بالخيانة، مقابل أن يحصل على دوقية غاندّيا. *الزغل* الواعي للأمر وضعها في حالة دفاع: لكنّ كلّ شيء كان يترنّح حولي. تمّت في العام 1489 تحضيرات كبيرة ضدّ *الزغل*. المدينة الأولى التي تمّ اختيارها كانت بسطة، الأصغر في وادي آش وألمريَة، لكنّها أهمّ منهما استراتيجياً. كان الحصار قاسياً جدّاً والمقاومة مدمّرة للأرواح والأرزاق. كان يُدافع عنها يحيى النجار، الذي سلّمها برضا *الزغل*، اليائس الذي باع، بعد فترة، جميعَ أملاكه للملكين القشتلانيين.

حاول فِرناندو وإيزابيل في العام 1490 أن يُطبّقا ما كانا قد اتفقا عليه قبل ثلاث سنوات مع أبي عبد الله؛ لكنّ أخطر العوائق ظهرت: إنّه شعبي الذي كان يرفض أن يفقد استقلاله ويتوجّس من أنّه باختفائه سيختفي معه كلّ ما كان يشكّل حياته الخاصّة. من يستطيع أن يقول ما إذا شكّل موقفُ أبي عبد الله خيانةً لرعاياه أم

واقعيةً سياسيّةً كبيرة؟ تذبذباته وتفوّق قشتالة العسكري الواضح تجعلنا نفكّر أنّه كان يريد أن يستفيد من الدبلوماسية للحصول في الهزيمة على أفضل الشروط الممكنة. لم تكن مناوشاتُ هذا العام أكثر من فترة انتظار بالنسبةِ إلى القشتاليين لالتقاط أنفاسهم. غادر *الزغل* في ذلك العام المملكةَ إلى تلمسان وطُرِد المُدَجَّنون بعد محاولتهم التمرّد من مدن المنطقة الشرقية من مملكتي. قرّرت قشتالةُ في العام 1491 حصاري وعزلي نهائيّاً. كان معسكر سانتا في يكمل خط الأبراج والحصون التي تخنقني، زارعاً الجوع واليأسَ داخل أسواري. كلّ شيء كان قد صار لهم. لم تستخدم المدفعية في 1490 ولا في 1491. كان الزمن أفضل حليف لقشتالة. وأُضيف إليه حليفٌ آخر: إنهاك أبنائي، كارثتهم، العداوة بين هؤلاء وأولئك، والسلب والنهب الداخليين. ما زلتُ أبكي كلّما تذكّرتُ تلك الأشهر الأخيرة. بدأت مباحثات الاستسلام الذي وقّع في نهاية تشرين الثاني سرّاً. احتلّت القواتُ القشتالية في ليلة الأوّل من كانون الثاني من العام 1492 الحمراءَ وحصونيَ الأخرى. لم يرفع أحد يده اعتراضاً. بدأ بالنسبة إليّ وبالنسبة إلى مملكتي عصر جديد. أو هذا ما أرادوا أن يجعلوني أصدّقه؛ أنا لم أصدّق ذلك قط، فقد عرفت منذ اللحظة الأولى أن بنود الاستسلام التي وقّعها الملكان الكاثوليكيان والتي كانت تحترم جدّاً في الظاهر أبنائي ودينهم وقوانينهم وعاداتهم، ليست بالنسبة إليهم سوى مجرّد ورق تافه مبلّل. وهذا ما حدث دون تأخّر.

القسم الثالث

الثقافة والحياة

مدخل

الثقافة، حسب فهمي، هي المفهوم الوحيد الذي يمكن أن يتأسّس وينمو على قاعدته مفهومُ الوطن. أتكلّم عن ثقافة فطرية، يولد فيها المرء، مفهومة على أنّها عصارة وتضوّع أعراقٍ ولغاتٍ وتقاليد وسلوك وديانات ومُثُلٍ وفنون وتجليات لها مندمجة، وتاريخ أو بالأحرى ما بين تاريخ، أي تاريخ حقيقيّ، تجري أنهاره في باطن الأرض، غير آبهة بالأشكال الخارجية للتاريخ الاصطلاحي التقليدي. الثقافة بالنسبة إليّ خير الشعب الأسمى ـ الأكثر ودّاً وألفة ـ هويته الطبيعية في مسيرته التي يقطعها وتشكّل جزءاً منه. شكل أنّه كان وشكل أنّه يمضي متكوّناً وشكل التوصّل إلى أن يكون، لا تصبح منتهية أبداً، إنّها مثل الحبّ، الذي لا تنتهي صيرورته أبداً؛ مثل الحياة ـ التي تملكنا هي ولا نملكها نحنُ ـ لا تنفد أبداً وإن هلكنا نحن. الثقافة هي عجينة الدم المتلقاة والتي يجب أن تُنقَل؛ الابتداء بعالمنا العجيب والمهان؛ مجموعة العادات والآراء، والآداب، والمواقف الدائمة؛ الأمزجة، النسب وطبيعة الشعب: تفسيره ومبرّر وجوده، أصله ومشروعه، ذاكرته ونبوءته.

ومع ذلك، عادة ما يفكرون بأنّ أفضل ما يُعرّف بشعبٍ ما إنّما هي نشاطاته المفيدة، نشاطاته الإنتاجية. وهناك من يصفه محلّلاً تنظيم أمواله، وتجارته، وصناعاته. ومع ذلك ما من شيء من هذا يُعبّر بنقاء وحيادٍ كافيين عن روحه. النشاطات النفعية، أو المهنية لشعب من الشعوب لا تتعلّق به وحده؛ ليست اختيارية بالمعنى

الصارم بل مفروضة. بينما هو فعلاً نفسه بحرية وصدق، حين يحلم ويُبدِعُ، يعيش ويمرح. ربّما يُعرِّفُ بأعياده أكثر ممّا بفجائعه؛ لأنّ العاطفة تشكّل منطقةً من الإنسان أعمق من العقل والإرادة. ولهذا فثقافة شعب ما في نظري، تتحدّد بشكلٍ أكثر حقيقية بفلسفته للحياة وبطريقته في العيش وبعشقه لها؛ بإحساسه بالفن وبطريقته بإبداعه وبولهه به.

المرأة المسلمة

وفقاً لهذه الأفكار كيف لن أتكلّم في المقام الأوّل عن المرأة؟ ومع التشويه الذي يتسبّب به اتّباعُ آراءٍ غريبة دون التأكّد من دقّتها؛ رأت دائماً أنّ المرأة المسلمة كائنٌ بدين، أسمر، ويكاد لا يكون له وجود. لكن أضيف إلى المثل الأعلى الكلاسيكي للسمراء، جميلةِ الشعر، تمجيدَ الشقراء قصيرةِ الشعر؛ والأشكال الشهوانية كان مقياسها المرأة النحيلة المرتدية للباس الرجل. هناك فكرة أنّه ما من أحدٍ ثار على الصورة الأكثر عامّية ولا ـ وهذا سيكون الأسوأ ـ ضدّ وضعها القانوني والإنساني. ومع ذلك فإنّ ابن رشد قد أكّد في القرن الثاني عشر، خلال المحاكمة التي لاحقه بها العلماء والفقهاء المتعصبون على ما كتبه بنفسه: من أنّ أطروحاته المتعلّقة بالمرأة لم تكن ثورية لأنّه كان يراعي فيها العقيدة الحميدة، آخذاً بالاعتبار ببساطةٍ المساواةَ بين الجنسين ومؤكّداً أن مهارات المرأة كانت مجهولة لأنّها لا تمنح فرصة ممارستها حيث أنّها لا تستخدم إلّا من أجل الإنجاب: «*وبفعل أنّهن لم يُعدَدْنَ لأيّة فضيلة إنسانية يصل بهن الأمر أنّهن يشبهن النبات...*»(*). ويعترف ابن رشد انّه يعجب بالمرأة ويحترمها. وهو ليس الوحيد في هذا. شخصية أبي عبد الله الصغير في «المخطوط القرمزي» وبينما تتابع مأثرة أسلافها تكتب: «ونظراً

(*) لم أتمكن من إخراج النص الأصلي. المسألة أنّه لا يوجد في النص الإسباني أيّة إشارة إلى المراجع. فقط هناك ثبت بالمراجع الإسبانية التي اعتمد عليها المؤلف. م.

للمؤامرات التي تنتشر حولي، وتتلبَّسني مرّاتٍ ليست قليلة، تجعلني أحتاط كثيراً من المرأة. لم أفهم قط أولئك الذين يؤكّدون أن الرجل ينطوي على طبيعة الذكر تماماً كما ينطوي على طبيعة الأنثى، لأنَ كلَيْهما يؤلّف الكلَّ المصنوع على صورة الله. فالمرأة بالنسبة إلى الرجل هي، حسب زعمهم، بمثابة المرآة لنفسه، تُعرِّفه بالجزء الخفيّ عنه من جوهره (إنّ قدرة العين تكمن في الرؤية، لكنّها لا تستطيع أن تتأمَّلَ نفسها). وأقلّ ما أفهمه هو النتيجة التي تقول إنَّ الرجلَ، ولأنّه في كماله الأصلي الرمز الأتَم لله، ولأنّ هذا الكمال يوجد في التكامل مع الأنثى، فإنّ المرأة تتحوّل إلى الرمز الأكمل لله. هناك من يؤكّدُ أنّ في هذا يكمن لبُّ الحبّ، لكن في الحقيقة ليس هناك أبعد عن مفهومنا له من مفهوم الرفاقية بين الرجل والمرأة: فمجالاتهما هي من الاختلاف بحيث أنّه من المحال القران بينهما. للمرأة البيت، حيث الرجل ضيف، وللرجل الخارج، حيث لا تظهر المرأة. وبهذا نتراوح بين الحريم والاحترام الفروسي ـ الحبّ العذري الذي أشارت إليه أمّي ـ والمرأة ليست في أيّ من هذين الطرفين: سواءً لأنّها مُستهلِكة ورهن التصرّف، أو لأنّها غائبة. ومع ذلك فإنّني أستنتج من قراءاتي أنّ إهمال وازدراء المرأة هما نتيجة للحياة المدنية، لأنّه في عالم البدو، حيث يظهر الجنسان مثل قطبين لفلك واحد، يُغرَم الرجلُ بالمرأة وتحترمه هي كسيِّد لها. ومع ذلك فإنّه ما من حالة ـ ولا حتى هذه ـ يحدث فيها الاقتراب الضروري للتعايش ولما يفترضه التعايش. وأقصى ما في الأمر هو حديث للترمذي، ينصح النبيُّ فيه بالمعاملة الحسنة الواردة في القرآن الكريم في قوله تعالى: الرجال قوّامون على النساء بما فضّل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم، فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله واللاتي تخافون نشوزهنّ فعِظوهنّ واهجروهنّ في المضاجع واضربوهنّ فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهنّ سبيلاً، إنّ الله كان عليّاً كبيرا»(*).

(*) المخطوط القرمزي: ترجمة رفعت عطفة، دار ورد. ص 34 و35. م.

إذا ما أخذنا بالحسبان أنَّ الإسلام يعتمد في انتشاره على النظام التعليمي؛ فهل سيفاجئنا وجودُ نوع من التطور في ثقافة المرأة، مهما بدا لنا استثنائياً؟ يُستنتج مما أعرفه، بشكلٍ عام، أنَّ المرأة تُساهِم في الثقافة باتجاهين، اتجاه تلقيها التربية واتجاه توزيعها لها، ليس داخل البيت وحسب، بل وخارجه أيضاً كمهنة. يعترفُ ابنُ حزم، الجدّي والصادق ومؤلّفُ طوق الحمامة، فيقول: «وهنَّ علّمنني القرآن، وروَّيننني الكثير من الأشعار ودرَّبنني في الخطّ»(*). ويُلاحظ أنَّ كثيراً من هذه النسوة المعلّمات أو الشاعرات يتحدرن من أسرٍ، الأبُ بدوره شاعر أو اهتمّ بإعدادهنَّ. وبالتالي فإنَّ قول ابن رشد ليس حالة غير معهودة. ربّما كانت الأسباب التي حسّنت ظروف المرأة الأندلسية هي انعدام تعدّد الزوجات عملياً، وتأثير البلاطات البربرية في القرن الحادي عشر، وكذلك تأثير المرابطين الذين شغلت المرأة في ثقافتهم وفي الذاكرة البعيدة لنظامٍ أمومي، دائماً مكانة مسيطرة.

من نافل القول أنَّ الجوَّ الأندلسيّ المميّز للمرأة هو البيت. هناك تتحرّك بحرية، رغم أنَّ السيطرة نظرياً هي للسيّد، ورغم المهام التي يحتفظ بها هذا لنفسه بين الفينة والأخرى، مثل عجن العجين والطبخ. في هذا العالم الأنثوي توجد تراتبية تجعل امرأة واحدة تسيطر على الأخريات: سواء أكانت الأقدم، هذا إذا كان هناك عدد من الزوجات، أو أمّ الزوج. في هذا الجوّ السرُّ كبير جدّاً، كما يجب أن تكون الحرمة أو الشرف بمركّبه الذكوري، الفاعل باتجاه الخارج ـ الحياة العامّة ـ ومركّبها الأنثوي، السلبي والمحصور في جو البيت والحياة الخاصّة: حياة في غاية الأهمية، بحيث أنه من بين خمسمئة كلمة عربية في اللغة القشتالية هناك أكثر من عشرين تشير إليها.

إنَّ عزلةَ المرأة في بيتها يمكن أن تُكسر، فالمشربيات

(*) طوق الحمامة في الألفة والآلاف، ابن حزم الأندلسي. الطبعة الأولى بلا تاريخ ولا دار نشر. باب المساعد من الإخوان ص 69.

والشرفات نقاطٌ جيِّدة للمراقبة والعلاقات. في أحياء الأمّة أو العامّة كانت النساء يجلسن في الأبواب، مغطيات الوجوه وكان الدخول إلى المسكن مسموحاً أمام سلسلة من الناس: «...إمّا خاملاً لا يؤبَه له، ولا يُهتدَى للتحفُّظ منه، لصباه أو لهيئة رثَّةٍ أو بذاذةٍ في طلعته». ـ يقول ابن حزم ـ «وإمّا جليلاً لا تلحقه الظِّنَن لنسك يُظهره، أو لسنٍّ عالية قد بلغها. وما أكثر هذا في النساء، ولا سيّما ذوات العكاكيز والتسابيح والثوبين الأحمرين... أو ذوات صناعة يقرب بها من الأشخاص. فمن النساء كابيية والحجّامة، والسرّاقة والدلالة، والماشطة والنائحة، والمغنّية والكاهنة، والمعلّمة والستخفّة، والصنّاع في المغول والنسيج، وما أشبه ذلك»(*). علينا ألاّ ننسى أنه إلى جانب اختصاصات الموسيقى والرقص واللغة التي يمكن أن تعطى للجواري، كان هناك نساء طبيبات ـ وليس قابلات ـ مختصات بأمراض النساء، كما أنّ علينا ألا ننسى أنّ المرأة المثقفة محترمة ومقدرة، وكانت تتمتع بمجالِ عملٍ واسع باستثناء العمل الرسمي، الذكوري (ولا نقول شيئاً عن المكانة الاجتماعية التي كانت تدركها من خلال التأثير العائلي حين تكون المرأة الزوجة المفضلة للملك أو المحظية المميزة). أبتسمُ حين أتذكّرُ أنّه في أخبار البيوت في عصري، لم يخلُ الأمرُ من نساء غضوبات معتاداتٍ على فرض مشيئتهنّ أو نكائهنّ على أزواجهنّ، لأنّهنّ أوسع معرفة منهم في موضوع ما. في عقود الزواج نقرأ أنّ على الرجال المسلمين أن يحموا زوجاتهم «عاشروهنّ بمعروف أو اتركوهنّ بمعروف»، وأنّ الرجل ينتظر من زوجته الطيبةَ واللطف الزوجيين، وإن كانوا «قوّامين عليهنّ» لكنّ الواقع كان يجعلُ الزوجات «قوامات». إلى حدّ أنّ الجرماني منذر كتب حين زارني : «لا تستطيع النساء أن يُطلقن الرجال، لكن حين تريد إحداهنّ أن تُطلّق، تُنَغِّص عيشه حتى تجعله يُطلّقها». وغريزة التحايل والدفاع ليست حكراً على المرأة

(*) طوق الحمامة في الألفة والألاّف، ابن حزم الأندلسي. الطبعة الأولى بلا تاريخ ولا دار نشر. باب المساعد من الإخوان ص 47.

الغرناطية. وقد كان الشرع على معرفة جيّدة بذلك، حين ميّز بين شهادة المرأة وشهادة الرجل ووضع قواعد لتحديد مقدار ما ينالها من الإرث، وهذا لا يعني أنّ الشارع يعتبرها أدنى في الجوهر. ابن سينا كان قد ساوى بين الجنسين في القدرة على الخير والشر، لذلك تملك المرأة مسؤولية قضائية، كما يدلّ على ذلك عادتها في اللجوء إلى القضاة طلباً للعدالة وإلى المحامين طلباً للنصيحة؛ ليس برفقة أزواجهنّ فقط، بل وبمفردهنّ أيضاً، دون أن يكون ذلك مستغرباً. هناك مختارات من النكات تُظهر استقلاليةَ المرأة النسبية وجانب مسؤوليتها، المختلفة بحسب الحالات. ولا يُقبل كشيء طبيعيّ أن تقيّدَ الرجلَ جسدياً فقط، بل وأن تلعب الدورَ الرئيسيّ مادّياً وفكريّاً. يُقال إن الزوج المثالي هو الأبله الثري، أكثر من الفقير المحتشم، لأنّ «ماله لزوجته وبلاهته له». وإن كان يُفترَضُ في المرأة ـ وإن بولِغ في الأمر ـ الجمال والذكاء والحشمة والطلاقة، وهو ما يحدث حالات دائمة تظهر فيها متفوّقة على الرجل نظراً لعفويتها وحساسيتها وحدسها وقدرتها على الردّ الدقيق وغير المتوقّع. وكان باستطاعة المرأة المتزوّجة في عصري النصريّ أن تزور الأضرحةَ والمساجد والمقابرَ والحماماتِ العامّة وأن تستقبل الأقارب المسموح بهم. وكان باستطاعة العازبة أن تدخل بيت حبيبها أو أن تتواعد معه في حديقة، أو على ضفّة نهر، وفي الأماكن المناسبة، وأن تحضر الاحتفالات العامّة وتذهب إلى الدوائر الخاصّة، المثقّفة قليلاً والمنغمسة في الملذات قليلاً، بل وحتى غير المحتشمة. كانت الحريّة تختلف، كما هي الحال الآنَ، حسب الذي يُمارسها. ملكتُ شاعرات شهيرات بحياتهنّ الداعرة، ولغتهنّ الرنّانة، أكثر مما بعملهنّ بحدّ ذاته، وكان هناك من عاشت حياةً زاهدة وحميمة. تكثر الأمثلة: أمّ الحسن كانت شاعرة وطبيبة وخبيرةً باللاهوت والفقه وماهرة في الفتاوى القانونية، على العكس من نزهون وحفصة، اللتين كانتا سيّئتي اللسان، وفظيعتي العادات، بل لو كنّ اليوم لأثرن فضيحة.

المسألة هي أنّ تقدير العفّة ينتمي إلى التراث الشخصي الذي

ينظّمه فيما بعد المجتمع الذي يعيش فيه المرء، أي أنّه يُنظر إليه أوّلاً من الأخلاق الشخصية وبعدها من الأخلاق الاصطلاحية. ولم يكن يحدث غير هذا في إسلامي. عقود الزواج فرّقت بين النساء من حيث الوضع المادي ـ عذراء دون سابق ارتباط، أو فضّت بكارتها بعد ارتباط قصير، أو عازبة ـ وكانت ليالي الأعراس تصنّف حسب الدخلة الفعلية أو التواصل المجرد. كانت الدوافع العملية تحل محلّ الدوافع الأخلاقية: لم يكن يهم غير الفعل القانوني لهذه الحالة أو تلك؛ لا عفّة ولا كبت: بل حقوق. التشريع الإسلامي أسهل على الإلغاء لأنّه ينزع إلى الشكلية. كان الحياء محمياً بطريقة مرئية بقطعتين من الثياب: سروال من الكتان أو الصوف يُزرَّر تحت الخصر بالقرب من السرّة، والسترة المصنوعة من الكتان أو الحرير أو القطن، التي كانت تُغطّي النساء بحيث لا تسمح لهنّ بإظهار شيء آخر غير العيون. ويعطي ابن الخطيب على امتداد أعماله شواهدَ على أنّ الجنسين كانا يختلطان بشكل يكاد يثير الذعر (مثلاً كنّ يطفن في الأعياد ـ وكم كانت كثيرة ـ في الشوارع ويرششن ماء العطر، والنارنج والليمون والزهر والحلوى على الناس؛ بينما تعكّر الراقصات والمغنون الجوالون بضوضائهم وقيثاراتهم وأغانيهم صفوَ الناس الطيبين)، يسقط الحجاب أو يعتبر ساقطاً بشكلٍ نهائي (يوسف الأوّل ولكي يحقّق الاحترام في المساجد وجد نفسه مجبراً على أن يمنع اختلاط الجنسين والأعمار، وحاول أن يحافظ على عادة الحجاب، لكنّه لم يشر إلى ذلك حين أشار إلى حجز مكان قصي للأطفال والفتيات اللواتي كنّ يذهبن بالحجاب واللباس المحتشم). وكانت أحزمة السراويل تنفك. لأنّ هناك تقليد، لكن إلى جانبه يوجد الخرق الكثير له. والرأي العام يسمح بالخطيئة، ذلك لأنّ الخطيئة لا تضع المرء خارج القانون. السلطان نفسه يستطيع أن يمنح العفوَ. يُضاف إلى ذلك الجاذبية التي لا تُقاوَم، التي كان يلعبها الجمالُ بالنسبة للعربيّ أكثر من أيّ عرق آخر. ولتبرير المعطف المشوّه قال محمّد: «*من نظر إلى امرأة وهو صائم حتى يرى حجم عظامها فقد أفطر*» والخلفاء الأوائل نقوا أو شوّهوا الأشخاص الجميلين وكان الزهاد يصيحون: «*اللهمّ ارحم المحبين وعزّز قلوبَهم*».

هل يعني هذا أنَّ المرأةَ النصرية لم تكن متدينة؟ بالعكس كانت متدينة جدّاً، وتُحافظ على الشريعة بدقّة وتتصدَّقُ وكانت دقيقة في صيامها صلواتها. ما كان يمكن أن يحدث أو يُفعَل شيء آخر، أي كما هو الأمر دائماً. ثمّ أنّها كانت تأخذ ـ كما هو الحال الآن ـ بأسرار عالَم لا يُفهم جيداً، ويجب أن تحمي نفسها منه بالشعوذة، والتوسّل إلىٰ قوى مجهولة من خلال تعويذات لا تبدو مضحكة إلا بالنسبة لمن لا يؤمن بها، ومن خلال تحوُّطات لا تُصدَق. وكما خصّ الرومان آلهتهم بأيّام الأسبوعِ، كذلك أضفى النصريون عليها بتفضيلاتهم المختلفة: فلكلّ يوم نجمه، وبالتالي ملاءمته لهذا النشاط أو ذاك، وهذا ما كان يحدث بالنسبة لأيام الشهر؛ مثلاً كان ثالث وسادس أيام شباط مباركين، تأثيرهما حسن (يوم ستّة كانت تصل اللقالق)، الثامن مشؤوم. وكانت البركة أو المباركة والحظ بأهمية الدين بالنسبة لإسلامِ غرناطة: كانت أشغالهم مرتبة ومنظمة وموزّعة حسب التقليد السرّي لتقويم كان يُحدِّد كلّ شيءٍ بدءاً من الآراء وحتى غذاء الأسرة، ففي كانون الثاني يجب أن يأكلوا ثوماً ولحماً وشحماً أو سمكاً... وكان يجب عدم تناول المخ في كانون الثاني، في آذار يأكلون أشياء مالحة، وفي أيلول بطيخاً ولحمَ بقر وماعز. وحين يدخل تشرين الأوّل مثلاً كان من المستحسن معاشرة الفتيات الشابات والدخول إلى الحمام، لكن دون المكوث فيه طويلاً، وتناول المسهلات ما لم تكن قديمة... ومن ناحية ثانية فإنّ الحلم كان يُدرك بالتواصل مع أشياء أو أشخاص مباركين، أي مع تنويعة لا حصر لها من التمائم والطلاسم، والصالحين، والثياب والأثاث والأضرحة. أي أنّنا وكي لا أطيل كنّا كما نحن الآن.

البيت من الداخل: توزيعه، أثاثه، طعامه

كيف كان البيت، الذي شكّل أفضل مملكةٍ بالنسبة إلى المرأة؟ لقد رأيناه من الخارج؛ ومن الداخل كان الفناء مركزهنّ جميعاً، أميراتٍ ومتواضعات، إلّا إذا كان البيتُ يسيطر على المنظر. الباحة

الرومانية أصبحت داخلية، ثلاث من واجهات الفناء كانت تُغطيها أروقة بعمدٍ من المرمر أو الطوب؛ وبركة ونافورة هي مركزه. تحت الأروقة غرف مستطيلة وقليلة العمق، الرئيسي فيها هما غرفتا نوم في أطرافه. فتحاتهما الوحيدة هي الباب ونافذتان صغيرتان مع مشربيات من الجصّ؛ ويتمّ الصعودُ إلى الطابق الأعلى المخصّص للنساء عبر درج ضيق وشديد الانحدار، وكانت الزخرفة الداخلية تعكس التقنيةَ الأندلسية: الأرضية من الخزف ويحلُّ الزُلَيج محل مرمر الشرق الملون، وكانت الأشغال الهندسية تُغني العتبات والأفاريز والأحواض.

كانت قاعات الاستقبال والغرف المشتركة تُستخدم ليلاً من قبل الأسرة؛ أمّا الخدم والطبقات الأكثر تواضعاً فكانت تملك غرفة واحدة لكامل الأسرة. على العكس من الأغنياء الذين كانوا يتمتعون ببيوت فيها حدائق وفناءات مزدانة بأحواض الزهر والعشب، بل وتضم عدّة كتل من الأبنية المنفصل بعضها عن بعض بحدائق من الأشجار المثمرة. كان السلاطينُ وأعيانهم يملكون منياتٍ للفصول الحارة، أو قصوراً أقلّ أهمّية من الحمراء، كالقصر الذي بناه محمّد الثاني في حي الفخّارين ـ كوارتو ريال دِ سانتو دومينغو ـ أو قصر شِنيل ليوسف الثاني، أو دار الحرّة في البيّازين، أو دار ابن العزّ في منية المركيزة الذي أهداه محمّد الثاني لـِ نونيو غونثالِث دِ لارا، المتمرّد على الملك العالِم. كذلك كان لأبنائي الأكثر تواضعاً بيوت في الضواحي، تسمح لهم بالتمتع بالحياة الريفية، بيوت من طابق واحد، محاطة بالجنان وبساتين الفاكهة التي راحت تتحوّل لتصبح منيات اليوم.

كان الأثاث، في جميع الأحوال، قليلاً. وبيوت الميسورين تُزَيِّنُ جدرانها بالقماش وأرضها بالسجاد، الصوفيّ أو الحريريّ وكانت ألوانها دائماً فاقعة؛ بينما الناس المتواضعون يستخدمون حصر الحلفاء والخيزران. كانوا يضعون أرائك منخفضة على طول الجدران ويأكلون على موائد منخفضة ودائرية. كان الجميع

يجلسون على الوسائد فوق منصّة في الشتاء وعلى السجاد مباشرة أو الحصر صيفاً. كانت الأسرّةُ ـ التعريمة ـ في غرف النوم ـ القبّة ـ الموجودة في أطراف القاعات والملبسة بالأغمدة والمغطاة بالملاحف والمطرزات والمخدات والوسائد المكفكفة بالحرير أو الأطلس في بيوت الأغنياء والفرش والبطانيات الصوفية أو الجوخ. كان الأطفال ينامون في مهود ذات فرش صغيرة وحافظات جلدية.

لم يكن هناك خزائن. كانت أداوت الطعام مصنوعة من الفخار أو النحاس ومن البلور بشكل استثنائي. وكانت تُحفظ في صناديق من خشب الصنوبر، أو في خزائن، كذلك ثياب أهل البيت والأطقم كانت تُحفظ في صناديق خشبيّة. أمّا مؤن الطحين والزيت والخلّ واللحم الحميس المملح، والعسل والثمار المجفّفة فتُحفَظُ في غرفة المؤونة في جرار من الفخار العاديّ والمزجج. وفي المطابخ كان هناك إضافة إلى القرع المملوء بالماء أوانٍ من الصلصال المشوي وسلال الحلفاء، والقدور، والمقالي، والمناديل التي كان يُغطى بها عجينُ الخبزُ عند أخذه إلى فرن الحي العام.

بينما كانت القصور تُضاء بالشمعدانات الفاخرة أو الثريات، كانت البيوت الأكثر تواضعاً تضاء بشموع من الشمع أو الشحم وقناديل الزيت. وكانت التدفئة أرضيّةً في بيوت الطبقات العليا، التي تملك الحمامات، لكنّهم كانوا بشكل عام يشعلون فحمَ الخشب في المواقد المعدنية أو الطينية أو الحجرية، الموضوعة على حاملة حديدية ثلاثية القوائم، حسب الإمكانيات.

الغذاء الأساسي كان القمح، لكن وثائق من الأيام العصيبة تؤكّد أنَّ الفقراء كانوا يتغذون على الخبز المصنوع من الدخن، والجاوَرْس أو الشيلم. وكان الشغل الأوّل للطباخة ـ المالكة أو الخادمة ـ عجن ما لا بدّ منه. صانع المخبز العمومي يمرُّ على البيوت، يُعَلّم قطعَ العجين بخاتَم خشبيّ ويحمل اللوح الذي وضعت عليه معه؛ ويعود بعدها ومعه الخبز وقد أخذ الخبّاز بعضاً منه مقابل خَبزه.

كانت الطبقات المعوزة تتغذّى على حساء الدقيق الخشن أو النشا المخلوط أحياناً باللحم المفروم، كالهريسة؛ وبدقيق العدس والفول، أو الحمص وحساءات الخميرة والأعشاب ـ الشمرة، الثوم، الكَرَاويا ـ هذه الصحون كلّها كانت تقدّم في صحاف من الخزف مع ملاعق من الخشب. أُدخِل الكُسكُس أيّام سيطرة الموحدين في بداية القرن الثالث عشر: وهو صحن مغربي متميّز وصفه ابن الأزرق، القاضي الذي لجأ إلى مصرَ مع غروب أيّامه ـ وأيّامي ـ بأنه صحن نبيل رغم أنّه مؤلف من السميد المطبوخ على البخار والمسقيّ بالمرق. أنواع السمك البحري الكثيرة وبخاصة السردين والبَلَم، كانت محبّبة جدّاً لدى الأندلسيين، وكذلك كانت الخضراوات مقدرة جدّاً، ومن بينها الهليوم الزراعي وخليط من خضروات البقلة والهليون والقرع والشمرة والخيار، كلّ ذلك مسلوق بماء الملح ومتبّل بعد ذلك بالزيت. كان الرزُّ يُحضَّرُ خلال المناسبات العائلية في قدور كبيرة وعلى نار هادئة مضيفين إليه قطعاً صغيرة من مختلف أنواع السمك والتوابل. بحسب التقويم، الذي كان قائماً تلك الأثناء، فإنّ الطعام المُفضَّل بدءاً من شهر آذار هو البارد المحفوظ في المرق الحار والخلّ، وفي نيسان يتناولون الفجلَ وفي أيّار الزيتون وأنواع مختلفة من الخيار. كان أبنائي الأندلسيون يحبون جدّاً الخرشوف (الأرضي شوكي) والباذنجان ويأكلون في الصيف بقناعة: خبزاً وسلطة خسّ وزيتون وجبن، وفي الليل بطيخاً وربّما حليباً أيضاً؛ ويفضّلون في الربيع والصيف الفواكهَ الطازجة، التي كانت تأتي من المرج: الخوخ والمشمش والدراق والجَبَس والرمان والسفرجل. كان تفاح وكرز المناطق المحيطة بي فريدَيّ نوعهما، مثلهما مثل برتقال وليمون وحمضيات وموز المنكب، وعنب قرطمة وتين مالقة الرائع. لكنّ حين كان يتوافر الزبيب والكستناء كان أبنائي يتلذّذون به مع اللوز والجوز.

كان طعام الأثرياء أقلّ بساطة بكثير. بينما كان اللحم طعام الطبقات الدنيا في مناسبات الأعياد فقط، كانت الطبقات الميسورة

تستهلكه وحده، خاصةً في الشتاء، أو مع الحساءات اللذيذة. المروزيّة كانت لحماً محضّراً بالملح والزيت والليمون وطبقتين من النشاء والعسل واللوز المفروم والجوز الأخضر المنقوع بالخل. طفاية اللحم يمكن أن تكون خضراء أو بيضاء حسب أثر الخلّ في اللحم الذي يصيّره جافاً أو طرياً ويعود إبداعها إلى زرياب، الموسيقي البغدادي الذي تدين له التشريفات والمطبخ بالكثير. وكان اللحم أو السمك المتبل أو المخلّل وكرات اللحم (البندق) والسجق الحارة جدّاً والمقالي صحوناً متكرّرة. وكشيء أكثر نخبوية هناك الكمأة والخروف المطبوخ بالكمون. كانوا عادة ما يقدمون في أيّام الأعياد طعاماً ذا أصول حيوانية: الطيور الداجنة، والفروج وأفراخ الحمام والحجل والترغل والقبرة. في كتب الطبخ غير القليلة، المتوافرة آنذاك هناك وصفات معقّدة جدّاً يُستخدم فيها الموري والزنجبيل والزعفران والحبق والكبّار والقرطوم واليانسون. وكانت صحون الباذنجان متنوّعة جدّاً وحلوى الجبن الأبيض والمجبنات تُرشّ بالقرفة وتغطس بالعسل. كانت الحلوى ذات أصناف لا تحصى، مثل الكالربات والبسكويت والكعك والمعجنات والتورون. المشروبات الأكثر رواجاً هي، إضافة إلى النبيذ، الحليب والماء المعطر بماء الزهر أو الورد وعصير الليمون أو البرتقال وشراب السفرجل والرمان والتفاح وماء الشعير وحب الزلم الذي كان يُشرب في الأعياد. وكذلك كان مألوفاً جدّاً الشاي الساخن بالنعناع كمنبه، والشربة المحضرة من خلاصة البنفسج والورد والموز والثلج المدقوق الذي كانوا يجيئون به من جبال شِيلِر ويُحفظ في ثقوب عميقة محفورة في الأرض.

كانت المآدب طريقة من طرق تجسيد تقاليد حسن الضيافة، تطبَّقُ فيها آلاف الوصفات المنقولة من جيل إلى جيل. أوّل ما كان يفعله الداعي هو أنه يُرسِل بطاقة إلى مدعويه، يخصّهم فيها ببعض أبيات المديح والصداقة. في اليوم السابق على الوليمة كان جميع من في البيت يتفرّغون لتحضير الحساءات والصحون والتحليات. وحين

يأتي اليوم والساعة يُستَقْبَلُ المدعوون في صحن الدار فإذا كانت المرّة الأولى التي يطؤون فيها البيت يُقدَّم إليهم كأس من الحليب الذي يرمز إلى صفاء المشاعر وبعض حبات البلح التي ترمز إلى المساعدة والرابطة العصبية تجاه الصديق. ينتقلون بعدها إلى القاعة الرئيسية المفعمة بالألوان، بدءاً من الأرض وحتى السقف وعلى موائد منخفضة ودائرية (طيفور)، تقدّم الوليمة على مفارش من الجلد الناعم. بعدها يقدمون لعوقات اليانسون المهضمة، أو الزنجبيل وحبات الصمغ والتوابل لتعطير النفس. إضافة إلى خرير المياه الذي كان يصل من الفناء، كان الجوّ يشبع بالعطور وموسيقى العود، والرباب والقانون. وبينما يغسل الضيوفُ أيديهم بالجفنة وإبريق الفضّة، يحرقون البخور ويمرون عليهم بعطرِ الورد والخزامى وزهر الليمون. كلّ هذه المدرسة من التفنن كانت تتوَّج بمضمون الأحاديث، التي يجب أن تتم حول المائدة، خفيفةً وغير ذات أهمية، لأنّ الموضوعات الخطيرة يمكن أن تؤذي الصحة وتعسر الهضم. ليس كما هو الحال الآن.

المظهر الخارجي للغرناطي؛ لباسه، نظافته، وزينته

تعرّض لباسُ الغرناطيين في بداية حكم بني نصر إلى تأثير نصراني كبير. فمحمّد المؤسّس كان يركبِ على جواده في شوارعي مرتدياً سايا ـ سايا ـ من الجوخ المخطّط، الشبيه بالذي كان يستخدمه الفلاحون القشتاليون. يُشير ابن سعيد المؤرّخ المعاصر له إلى أنّهم بدؤوا يهجرون العمامةَ، التي كانت شائعةً جدّاً أيّام الموحّدين. لم يعد يستخدمها غير القضاة ورجال الفقه؛ وكان الأرستقراطيون والعامّة يرتدون الطيلسان، وهو وشاح يُلفّ حول الكتف أو الكتفين بأناقة. غطاء الرأس الأكثر شيوعاً كان نوعاً من

الكمّة الصوفية الخضراء أو الحمراء وكان أندلسيّ ينظرون بفضول بل وباستظراف إلى الرحالة المشرقيين لأنّهم كانوا في ملابسهم أقرب إلى جيرانهم مما هم إلى أبناء دينهم.

بعد قرن لاقت الأزياء القادمة من المغرب أهمية. الحُلَل الأفريقية والفساتين التونسية عمّت. كانت ثيابهم في الشتاء من القماش السميك ـ الملفّة ـ التي كانت تختلف جودتها بحسب الدرجة الاجتماعية للشخص، من القطن إلى شعر الماعز، وكان يغلب عليها اللون الأبيض. أمّا بالنسبة إلى لون الحداد فكان الأبيض عند الأمويين، كردّ فعل على الأسوَد عند العبّاسيين في دمشق(*)؛ وقد اختفت هذه العادة أيّام ملوك الطوائف، وصار لون الحداد في مملكة غرناطة أيّام بني نصر هو اللون الداكن، الأزرق أو الأسود.

كانت هيئة ثياب الرجل، رغم كلّ شيء، شديدة التنوع وهذا ما كان يضفي السعادة على صورتي. فرجال الطبقة العليا يرتدون فوق القميص بلوزة طويلة مستقيمة، دون فتحات عريضة الأكمام. واعتمادهم اللباس ذا اللونين الحيّين والمركّب أحياناً من نصفين كان يعكس تأثيراً نصرانياً واضحاً: عمّ ذلك في قشتالة مع الزيّ القوطي. كان البرنس، المصنوع من الصوف الأبيض الناعم قطعةً منتشرة جدّاً. كان العامّة أو الشعب يقتنعون بزيّ أكثر تواضعاً: سايا عريض الكمين تُلَمّ أطرافه السفلية تحت الخصر وسراويل بيضاء تصل حتى الكعبين.

في السفر والحروب كان الرجالُ ينتعلون جزمات جلدية طويلة. وكان الأغنياء والنبلاء بشكلٍ عام يستهلكون الكثير من المجوهرات في أحذيتهم. سبق ورويتُ أنّ يوسفَ الأوّلَ، المهووس بالمجوهرات، أهدى المرينيّ عبد الحقّ بمناسبة نزوله في شلوبانية بابوجاً مرصعاً بالمجوهرات بشكل مبهر. كان الرجال والنساء العاديون ينتعلون في الشارع أحذية سميكة النعل من الفلين.

(*) أعتقد أنّ المقصود هنا بغداد، عاصمة العبّاسيين. م.

ـ القرق ـ أو الأحذية المنخفضة، ودون كعب تترك ظاهِر القدم مكشوفاً. وكانوا يستخدمون في البيت والحمّام القبقاب الخشبيَّ الرنان مع سير من الجلد.

أمّا بالنسبة لملابس النساء فينسجم مع الحالة المتميّزة التي أدركتها المرأةُ في مجتمعي. ويكفي أن نذكر هذا النص لابن الخطيب:

«وحليهم في القلائد، والدمالج، والشنوف، والخلاخل الذهب الخالص، إلى هذا العهد، في أولى الجِدة واللجين في كثير من آلات الرِّجلين، فيمن عداهم، والأحجار النفيسة من الياقوت، والزبرجد، والزمرد ونفيس الجوهر، كثير ممن ترتفع طبقاتهم المستندة إلى ظلّ الدولة، أو أصالة معروفة موفورة. وحريمهم، حريم جميل، موصوف بالسحر، وتنعُّم الجسوم، واسترسال الشعور، ونقاء الثغور، وطيب النشر، وخفّة الحركات، ونبل الكلام، وحسن المحاورة، إلّا أن الطول يندر فيهنّ. وقد بلغن من التفنّن في الزينة لهذا العهد»(*).

ويبرهن في مكان آخر عن أنّهنّ أدركن «(و) المظاهرة بين المُصبَغات، والتنفيس بالذهبيات والديباجيّات، والتماجن في أشكال الحُلي، إلى غاية نسألُ الله أن يُغضَّ عنهنّ فيها، عين الدهر، ويكفكف الخطب، ولا يجعلها من قبيل الابتلاء والفتنة، وأن يُعمِل جميع من بها بستره، ولا يسلبهنّ خفيَّ لطفه، بعزّه وقدرته».

عمَّ كان يتكلّم ابن الخطيب الخائف؟ ففي ملابس النساء كان هناك دائماً قطعة تفيد كدثار وخمار وحجاب. وكان حسب نسيجه أو تفصيله الحريم أو المئزر أو الملفّة. وكنّ يرتدين أحياناً الجبةَ الرقيقة المزيّنة قبّتها وأطراف أكمامها بشرائط ذهبية؛ وكانت جبات النساء الأرستقراطيات من الحرير الرمادي أو الوردي؛ بينما كانت نساء العامّة يرتدين سايا شبيهة جدّاً بالسترة الطويلة. وكنّ يغطين

(*) الإحاطة في أخبار غرناطة، ابن الخطيب. تحقيق محمّد عبد الله عنان، الطبعة الأولى 1975، مكتبة الخانجي بالقاهرة. المجلّد الأوّل ص 138 ـ 139.

رؤوسهنّ أحياناً بعمامة غريبة أو بقطعة قماش تربط برباط غليظ. رسم رسامٌ من بداية القرن السادِس عشر هو كريستوف فيديتز نسائيَ مزيناتٍ بشكل تقليدي: منديل على الرأس، سترة بثلاثة أرباع الطول وسروال أبيض، مزين بالفضة، ومنديل ربطٍ أحمر أو أخضر وجوارب حمراء، زرقاء أو خضراء مذهبة. وعادة ما كانت مسلماتي ينتعلن السربيل، وهو شبشب من الجلد الرقيق ذي الألوان الفاقعة والمطرز بالفضّة والذهب، أو الملبّس بالحرير.

بالنسبة إلى المجوهرات، فقد أوردنا رأيَ ابن الخطيب، المتناقض قليلاً مع نفسه، ذلك أنّه يقول في مكانٍ آخر إنّ وفرتها وغناها يعكس تفوّق النساء الغرناطيات على نساء مكناس، اللواتي كان عليهنّ أن يستأجرن المجوهرات في الأعراس أو الأعياد، لأنّها لم تكن ملكهنّ. كانت الأطواق، والخواتم، الأقراط والحلق، والأساور الثقيلة، والتيجان، والخلاخل، والفضول، والقلائد، والمشابك الذهبية المخرّمة معهودةً عند نساء البيوت الغنية، بينما كانت نساء الطبقات الدنيا يستخدمن الفضّةَ أكثرَ. كانت الأحجار الكريمة المفضّلة هي الجوثن أو الياقوت الزعفراني، والياقوت الأصفر والأزرق والأحمر. كان الصاغةُ الخبراء يهوداً بشكلٍ عام وبلغت دقتهم في تركيب الحجارة وفي شغل طقوم الذهب والفضة من حسن الذوق والفنيّة حدّاً لم يصله أحد.

وكان أبنائي وبناتي معتادين على العطور والأدهان. ويؤثرون خلاصةَ الليمون والورد والبنفسج وكذلك العنبر ـ الرمادي أو الطبيعي أو الأسود ـ والمسك. وكانت نساء الطبقات العليا يُخصّصنَ ساعاتٍ طويلةً من يومهنّ للزينة وجودة الزينة. فراشي وأمشاط الشعر، الزيوت المعطرة والخلاصات المحفوظة في القوارير الزجاجية، والأصماغ التي يعلكنها لتعطير النَّفَس، الحناء التي يصبغن بها أظافرهنّ، وأنواع لا تُحصى من الزينات والكحل وغسول حجر الكحل التي كانت توضع على الحواجب والأجفان، تُبرهن على ذلك.

كان الأندلسيون السابقون على أندلسيئ يقصون شعرهم على الطريقة القديمة: الفرْق في الوسط والخصلات تسقط على الصدغين من فوق الأذنين. لكنَّ تأثير زرياب كان حاسماً. صاروا يقصونه دائرياً وقصيراً بما يسمح برؤية الحواجب والنقرة والأذنين. وحدهم العلماء كانوا يتركون شعرهم يطول في بداية عهد السلالة، لكنّهم لم يكونوا يتركونه مسدلاً بين الكتفين، بل منزلقاً تحت الأذن اليسرى. سواء أكان طويلاً أو قصيراً. كان أبنائي يعتنون كثيراً بشعرهم ويصبغونه بالحناء إذا لم يكن كامل البياض. محمّد السادِس سُمّي بالأحمر بسبب اللون الذي كانت تمنحه الحناء لشعره ولحيته. جميع جنودي كانت لهم لحى، تُحلق كعقوبة، فقط حين يُدانون بالجبن أو الخيانة.

الأعياد

كان الأندلسيون وعلى امتداد العصور ينزعون إلى اللهو والاحتفالات وملكوا الفكرة الدقيقة القائلة بأنّ العمل يفيد للعيش وليست الحياة كلّها للعمل. ولم يكن مسلمئ في العصر النصري استثناء. كانوا يحتفلون ببعض الأعياد الشرعية الدينية وأخرى لم تكن كذلك تماماً. كان عيد الفطر يدلّ حسب هلال شوّال على نهاية الصيام، تتويجاً لكفّارة شهر رمضان. في ليلة السابع والعشرين من رمضان كانت تُشعل جميع ثريات المساجد والقصور والصوامع والأضرحة والبيوت الكبيرة والمتواضعة. كان الملوك والرعايا يجتمعون ليستمعوا لعظة التقوى، أو خطبة الجمعة الكبرى الجليلة. والشعراء يوجهون المديح إلى حُماتهم وأمناء الدولة يوجّهونها إلى السلطان. كان الهلال الذي يختفي من السماء يجعلني أتلألأ في هذه الليلة كالشمس على الأرض.

في العاشر من ذي الحجّة كانت جميع الأسرِ، مهما كانت

قدرتها الاقتصادية، تحتفل بعيد الأضحى، الذي كان عليهم أن يُضحّوا فيه، حسب التقاليد العربية، بخروفٍ واحدٍ على الأقل. وكان العيد يفقد معناه مع الصعوبات الاقتصادية التي تجعل الحصول على الخروف بالنسبة لربّ عائلة لا يعيش إلا من عمله، وعليه أن يحصل أيضاً على ثيابٍ جديدة لزوجته وأولاده، أمراً صعباً. لكن التضحية بالخروف وتضحية ربّ الأسرة كانا يُضاعفان الفرح والمرح اللذين يدومان عدّة أيّام. وكانوا يتناولون بمناسبة هذا العيد صحوناً خاصّة مثل القمح المطبوخ بالحليب، ذكرى أوّل ما تناولته آمنة بعد ولادة النبيّ. في هذا العيد وفي العيد الذي يسبقه، وهما أهم عيدين دينيين، وما إن تنتهي الصلاة والدعاء، في المدينة كما في المصلى الريفي، حتى ينطلق أبنائي إلى الشارع حتى الفجر يرشون بعضهم بعضاً بالماء المُعطر ويقيمون معركة حقيقية بالثمار والأزهار.

كان هناك عيدان آخران يحتفل بهما أبنائي بشكلٍ خاصّ جدّاً: الأوّل يقع قبل أسبوعين من الصيام والآخر هو عاشوراء، الذي يقع في العاشر من محرّم ويقوم على صيام شُعيريّ. كان معلمو المدارس يتلقون الهدايا من تلاميذهم في هذا العيد، بينما السلطان يقدّمها عادة إلى كبار موظفيه.

كان الفقهاء المتشدّدون يشعرون بالصدمة وبالغضب من سلوك أبنائي، الذين يحتفلون وبعدوى من الفرسان المجاورين بعيد الميلاد والعام الجديد في التقويم النصراني. وكان مسلميّ يتبادلون الهدايا عادة يوم الأوّل من كانون الثاني ويُحضّرون أطباقاً خاصّة، مثل السمك المملح، وحلوى على شكل مدن، لذيذة ليس بطعمها وحسب، بل بحساسية تركيبها وشكلها أيضاً. أكثر من رحّالة كان يُذعر حين كان يرى أنّ سعرها يصل إلى سبعين ديناراً أو أكثر، والذي يعود إلى قناطير السكر التي تحتوي عليها، وتشكيلة الثمار المجفّفة المتنوعة، وأكياس البلح، وأكياس الزبيب والتين من مختلف الأنواع، وكلّ أنواع الجوز واللوز والبندق والكستناء وثمار

البلوط والصنوبر؛ إضافة إلى أفضل أنواع قصب السكر والترنجان والبرتقال والليمون الحلو.

عيد المولد النبوي، الذي كان يقام احتفالاً بذكرى مولد النبيّ، جاءنا من المغرب، وهبط الاحتفال به من الحمراء إلى البلد. وكانت الخاصّة، أي الأرستقراطية، كما العامّة أو الدهماء، تُقدّم ولائم هائلة، حسب إمكانياتها، تمتدّ حتى صلاة الصبح. وقد اشتهر سلاطيني في الحمراء في العالم كلّه باحتفالهم بالمولِد، وكان شعراؤهم الرسميون يُبالغون بمدحهم، حتى أنّ عزيزي محمّد الخامس اضطُرَّ أن ينصحهم بأن يمدحوا النبيَّ أكثر من السلطان.

بالإضافة إلى هذه الأعياد، الدينية إلى هذا الحدّ أو ذاك، ورث عصري عيدين مثبتين في التقويم اليوليوسي، يُشيران إلى مختلف مراحل العام الأميري والزراعي. وكان لهما اسمان فارسيان: النيروز، يوم رأس السنة الإيرانية الجديدة، والمهرجان الذي يُصادف عيد القديس يوحنا النصراني.

كان النيروز عند أبنائي يلتقي مع اعتدال الربيع. ورغم أنّ الفقهاء كانوا يستنكرون تلك العادة إلّا أنّهم كانوا يتبادلون الهدايا التي لم تكن دائماً في متناول أيديهم، وهو ما كان يزعزعُ اقتصادهم. عادة ما كانوا يصنعون لهذا اليوم دميً على شكلِ حيوانات، وخاصّة الزرافة، رغم التحريم الديني، وأوانٍ من صلصال وقناديل صغيرة توضع في أيدي الأطفال المندهشين.

كان المهرجان يحتفل بالانقلاب الصيفي. وكان يُدعى في مملكتي العنصرة، يتبادل فيه أبنائي من مختلف الأوضاع الاجتماعية الهدايا أيضاً. وكان السلاطين ينظمون عادةً احتفالات للشعب. ونظراً لأنَّ طبيعة الاحتفال كانت في جوهرها زراعية، فقد كان الشعراء يتغنون بخصب الأرض وكثرة إزهار وعطر النباتات، وتُشعل في الحقول نيران كبيرة يُرمى إليها بالأعشاب الفوّاحة دون أن يولوا حظر الفقهاء آذاناً صاغية، ويتناولون المجبنات والزلّيبة

ويضعون، كما في الأعياد السابقة، الأقنعة ويخرجون إلى الشوارع ليلتقوا بآخرين متواضعين أيضاً ليمرحوا معاً.

عيد آخر من أعياد الريف التي كان يُشارك فيها أبنائي هو عيد العصير أو عيد القطاف. يحتفلون فيه بقطاف العنب الذي يدوسون قسماً منه بأقدامهم للحصول على المُسطار ويعلقون قسماً منه إلى الدعامات للاستهلاك أو يجفّفونه على المصاطب. كان بعض أبنائي ممن يستطيعون يغادرون مساكنهم المعتادة وينتقلون إلى الريف. رجال ونساء وأطفال يرتدون أفضل ملابسهم ويسلمون أنفسهم للموسيقى والرقص. يغنون الأغاني الشعبية ويرقصون على إيقاعها، يعزفون على الناي والزمر والآلات الموسيقية الشعبية التي تزدري الآلات الراقية. وكان الأولاد الذين يولدون في هذه الأعياد يعتبرون محظوظين ولم يكونوا قلّة لأنّ الرقص والغناء كانا يدفعان إلى الحب. ومع ذلك ونظراً لأنّ الحدودَ لم تكن بعيدة فقد كان أبنائي يذهبون إليها مسلحين، تحسّباً لغارات قشتالية. وهذا ما يبرهن على أنّ بعض التهديد كان يعكر المتعةَ ـ ويمضي في الوقت ذاته بالأمور إلى حدودها القصوى ـ وأعيادَ ذلك الوقت، التي ما زال عبقها يُعطّر ذاكرتي.

الألعاب والتسليات

لا أستطيع إلّا أن أذكر أوّلاً الشطرنجَ، الأكثر تأمّلاً بينها جميعاً، والذي بدا لي دائماً رمزاً للحياة. وقد بقي مرتبطاً تماماً بتاريخي. سلطاني يوسف الثالث، الذي حكم عليه أخوه محمّد السابع بالموت، تراهن على حياته مع حارس شلوبانية في لعبة شطرنج وأنقذها. وقال الشعبُ، مبدعُ النشيد الحدودي عن سلطان آخر، هو محمّد التاسع، في نشيد فاخاردو:

ذات يوم كان الملك العربي
يلعبُ بالشطرنج
مع فاخاردو الطيّب
بالحب الذي يكنه له،
فاخاردو كان يقامر بلورقة
والملك المسلم بمرسية:
الملك مات بالقلعة،
والحصان يمسك به.
فصاح المسلم بأعلى صوته:
«مدينة لورقة صارت لي».
وهنا تكلّم فاخاردو
وستسمعون جيّداً ما قاله:
«اسكت، اسكت، يا سيّدي الملك،
لا تستعجل،
حتى ولو ربحتها مني
فهي لن تمنحك نفسها:
فعندي فيها فرسان
سيدافعون عنها».
وهنا تكلّم الملك المسلم
وستسمعون جيّداً ما قاله:
«لا تلعب بعد الآن، يا فاخاردو،
وعلينا ألا نستعجل مرة أخرى
فأنت فارس طيّب،
والعالم كلّه يخشاك».

بدأ فن ركوب الخيل وعادة سباق الخيل حين هاجر فرسان المغرب وخاصة أفريقية أو تونِس إلى الأندلس وعلّموا طريقتهم للأندلسيين. وحوّلها بنو نصر إلى تسليتهم المفضلة: بعضهم فرسان كاملون وعارفون بألعاب الفروسية؛ وآخرون مثابرون على مسابقات الجري. منها اشتقّت إلى حدّ ما لعبة الطاولة، وهي لعبة تُلعب في الهواء الطلق كانت تذهب بعقول المشاهدين، كان يتنافس فيها الفرسان ويرمون العصي على هدف من الخشب. المصارعة في الميدان المغلق، التي أصبح لها منذ بداية القرن الرابع عشر أنصارها. وقد تردّدَ مُحمّد الخامس على ميادين المصارعة، ونازل بالرماح القصيرة أمهرَ الفرسان. في ساحات غرناطة العامة، خاصّة في باب الرملة، التي كانت تُطلُ على نهر حدرة وفي باب الدفاف وفي الفسحة المسماة الطبلة غير البعيدة عن باب الغدور ـ اسمها اليوم ساحة الطباق السبع ـ كانوا يحتفلون بمباريات الفروسية التي تُثير المنافسةُ الشاقّة فيها بين الفرسان حماسَةَ الشعب. كما كانت تُثير لعبة القصب حماسته وحماسة ممارسيها لأنّها تسمح بالمراوغات والكسور والوجع، لكن لا يصل الأمر فيها حدَّ إسالة الدماء كما في لعبة الرماح. وصفها منذر الذي زارني بإعجاب: *«انقسموا إلى فريقين وهجم بعضهم على بعض بالقصب الطويل ـ الحربة القصيرة من ستة أشبار ـ يتظاهر بعضُهم بالهرب ويُعطي السيف بالدرقة والتروس الصغيرة، يلاحقون بدورهم آخرين، وجميعهم يمتطون خيولاً نشيطة بقدر ما هي سريعة وسهلة القياد، بحيث لا أعتقد أنّ هناك خيولاً يمكن أن تنافسها. اللعبة خطيرة جدّاً، لكن بهذه المعارك المزيفة يعتاد الفرسان على عدم الخوف من الرماح الحقيقية في الحرب. ثمّ بقصب قصير على طريقة السهام وبكلّ سرعة الجياد نفّذوا رمايات أصابت أهدافها كما لو أنّها أُطلِقت بالأقواس أو المدافع. لم أرَ قط مثل هذا المشهد الجريء»*.

إحدى الألعاب الأخرى التي كان الشعب فيها مجرّد متفرّج هي مصارعة الحيوانات. وكانوا يحتفلون بها عادةً في فسحة المسارة،

فتشدّ إليها حشوداً متلهفة لرؤية الدم يسيل في الصراع بين الثيران والأسود التي تجري في المعركة، أو بين الثيران والكلاب في أغلب الأحيان، بينما يراهنون بالمال لصالح هذا العدوّ أو ذاك. في الميدان الصغير المحاط بالسياج تناوش كلابٌ مُدرَّبة ثوراً، تعضّه من أذنيه، وتتدلى منهما كما لو أنّها أقراط، بعدها يأتي فرسان يُثيرون الثور بالرماح القصيرة، ثم يقتلونه بحربة.

لم يكن دم الحيوانات وحده هو الذي كان يشدُّ الجمهور، بل الدم المسفوك في عمليات الإعدام والجلد، وعرض جثث الذين نفّذت بهم أحكام الإعدام بالمشنقة أيضاً. ربّما لم يكن بمقدور شعبي المعتاد على فجائع الحرب أن يعيشَ في سلامٍ تام. كما كان مشغوفاً بالاستعراضاتِ العسكرية التي تُقام بمناسبة وصول هذا السفير أو ذاك، أو خروج الملك لتفقّد الجيوش، أو القيام بغارة أو حرب. كان الناس يتدفّقون إلى شوارعي العريضة كي يروه عائداً من غزواتهِ، محمّلاً بالغنائم والأسرى. كانت حلي الخيول ومعادن الأسلحة والآلات الموسيقية تلمع تحت شمس، والهواء يُحرّك أعراف الخيول وذيولها والعباءات. هناك عرض مشهور: هو العرض الذي أقامه أبو الحسن في نيسان 1477، والذي استعرض فيه كلّ مجموعات الفروسية الأندلسية خلال أربع أسابيع وحضره كلّ شعبي في غرناطة وريفها. كان عرضاً لا مثيل له، وضعت حدّاً له الفيضانات المريعة التي تسبّب بها المطر المفاجئ الذي جعل الأنهار تخرج من مجاريها وتزرع الموت والدمار.

الألعاب كانت توقِع أحياناً الموتَ أيضاً. كان الفتية يشكلون عصاباتٍ، يتقاتل أعضاؤها في هذا الشارع أو هذا الحيّ مع أعضائها في الشوارع والأحياء المجاورة مسلحين بالهراوات والعصي. كان صاحب المدينة يمنع مثل هذه الألعاب التي كثيراً ما انتهت بالشجار والدم مثلها مثل لعبة القصب.

كذلك ورغم أنّ لعبة النرد كانت ممنوعة في الإسلام لأنّها تُلهي المؤمنين عن واجباتهم إلا أنّهم كانوا يلعبونها دائماً، وكان اللاعبون يجازفون، رغم منع المحتَسِب لها، في الأسواق بأموالهم وأموال المتفرجين الذين يحيطون بهم، وكان الهواةُ على استعدادٍ لأن يُقامروا في لعبة القرق الشبيهة بلعبة الداما، بآخر فلسٍ معهم.

الموسيقى والغناء والرقص

من الصعب جدّاً المُبالغة بتأثير موسيقى زرياب البغداديّ في الموسيقى الأندلسية. فقد اشتقّت في البداية من الموسيقى الشرقية، لكن سرعان ما أدخلت نسغها وطريقتها في إظهار الفرح، إيقاعها الخاص وتحوّلت إلى موسيقى ما زالت حيّة ليس فيّ وحسب، بل في جميع أنحاء المغرب الذي انتقلت إليه.

الجدل حول مشروعية الغناء والموسيقى لم يتمكّن قط من أن ينال اهتمامي؛ أظنّ أنّ شعباً لا يصنع موسيقاه الخاصّة، التي تعبّر عن روحه وتطلعاته هو شعبٌ بلا هويّة. ما من دين يستطيع أن يحاصر أسمى تعبير روحي للإنسان، بل ينظمه باتجاه الأعلى. لقد كتب ابن عبد ربه أنّ الغناء غذاء السمع، ومرج الروح ونبع القلب، وسلوى الحزين ومؤنس الوحيد وزاد المسافر. وقد وافقتُ هذا القرطبيَّ على رأيه كما وافقتُ ابنَ حزم، القرطبيَ الآخر الجميل حين عرض وجهة نظر الدين الظاهرية، ودافع عن شرعية الغناء، ورفض الأحاديث التي تعتبره كفراً. هناك حديث للرسول يحسم الموضوع: «إنّما الأعمال بالنيات ولكلّ امريءٍ ما نوى». حتى أتباع المذهب المالكي، الذين يُعتبرون من أكثر الفقهاء تشدّداً، لا يمكنهم أن يصدروا طعناً مقبولاً ضدّ هذا الرأي. المدن يختلفُ بعضُها عن بعض. كان للأندلس قبلي عاصمتان كبيرتان: قرطبة وإشبيلية.

وكان أهل إشبيلية دائماً أخفَ وأكثر ملاحة وهزلاً وسرعة بديهة، على ضفاف نهر الوادي الكبير، في رملتها حيث أشادَ الموحِّدون برجهم المثمّن، كان رعايا المعتمد من قبلهم يعزفون على الربابة والقانون والقيثارة والناي والبوق، بينما كانت تخرج الأغاني وتُرتجَل القصائد. هل سيجهل الفقهاء والعلماء والمتشدّدون الأخلاقيون أنّ النخيل يُسكِر الأندلسيين أكثر من الخمر؟ أم بالضبط لأنّهم لا يجهلون هذا عارضوا النخيل أيضاً؟ قرطبة كانت دائماً أكثر صرامة من إشبيلية. لقد علّق ابن رشد قائلاً بأنّه إذا مات عالمٌ في إشبيلية كانوا يأخذون مكتبته ليبيعوها في قرطبة، وأنّه إذا مات مُغنٍّ أو موسيقيّ في قرطبة كانوا يحملون أدواته إلى إشبيلية ليبيعوها هناك. لكن مهما كانت قرطبة متشدّدة وأنيقة، فإنّ أيّ احتفال أو عيد في الأندلس كان يشتاق إلى الموسيقى والغناء والرقص، إن لم تكن هي بطلته. بماذا كانوا يُكرّمون المدعوّين في الاحتفالات الليلية لأبناء أسري العريقة، ما لم يكن بمشهد من الغناء والرقص على وقع جوقة ـ ستارة ـ من الرجال والنساء؟ وإلاّ فكيف كانوا سيشبعونهم بمتعة العيش؟ ألم تشغل كتب الموسيقى النظرية مكانة هامّة في ثقافتي. ألا تثير الموسيقى حماسة وطرب ونشوة ودموع وأفضل ما في روح من يستمع إليها. ماذا كان سيفيد ابن عبد الرؤوف أن يمنع في الأعراس وأنواع الاحتفالات الأخرى الآلات الموسيقية ما عدا الدفّ؟ ما قيمة الفتاوى ضدّ شرعية أو عدم شرعية الكبر، هذا النوع من الطنبور؟ بأيّة قوّة كانوا سيُمثّل الأندلسيين مداهنو المرابطين والمؤرخون والشعراء، الذين أخذوا على ملوك طوائفنا حرصهم على الاستماع إلى الأغاني وعزف الناي والعود؟ لقد كانت الموسيقى والغناء والرقص تطربهم فيقولون والله! ـ التي تعني يا الله! ـ التي منها اشتقت إولَيهْ اليوم وحبّاً بالله كانوا يُسمعون ويُشاهدون.

لأنّه لم يكن تراث الملوك والأعيان بل تراث الشعب والشعراء

والفنانين، فالموشحات والزجل كانت مُخصّصة للغناء. وفي القرن الثاني عشر كانوا قد بدؤوا يعزفون على القانون والربابة والقيثارة، وأبناء العامة يغزفون على الدف، الذي أدخله البربر، المتعلقون جداً بآلات الإيقاع. إذا كانوا يأتون إلى الأندلسيين القدماء بالموسيقى والمغنيات من الشرق وبلاد البربر فسرعان ماتشكّل هؤلاء في الأندلس. كان تقليداً قرطبياً موروثاً من المرحلة الرومانية أن تُشكّل الموسيقى جزءاً من تربية البنات العامة، حتى أنّهنّ كنّ في العائلات النبيلة يغنين في الحفلات الودّية واحدة فواحدة.

من ناحيتي أستطيع أن أقول إنّ الموسيقى في عصر بني نصر ارتبطت بكلّ احتفال وإنّ الغناء كان يُسمع في كلّ مكان، حتى في أصغر الحوانيت، حيث كان الأطفال يغنون بينما يُتمون تعليمهم. وكان مُسلمئ يعبرون عن أنفسهم بالعزف على الناي الخشبي والشبابة ـ المزمار الذي كان ممنوعاً في الأغاني الدينية عند الصوفيين الغرناطيين، المتشدّدين. وفي الاحتفالات العامة كان الخبراء يظهرون مهاراتهم بالعزف على النفير والمزمار والعود. وبالإضافة إلى موسيقى البلاط الراقية كانت تُنظّم اجتماعات تُسمع فيها الصنوج ومختلف أنواع الدفوف والطبول. وكان في مملكتي وظيفة هي وظيفة أمين الشعراء والشاعرات الجوالات، وكان من مهماتها أخذ الضرائب، التي كان على الغرناطيين أن يدفعوها عن ليالي الصخب والغناء التي يحيونها في الأعراس والحفلات الأخرى الراقصة. لأنّ الموسيقى كانت تُشكّل جزءاً من الحياة. وبمعزل عن التي كانت تقوم برعاية الملوك والأمراء وكبار رجالات الدولة هناك موسيقى الشعب التي يروّح بها عن نفسه في مواسم الحصاد، كي يجعلوا عملهم أسهل ويُجمّلوا لقاءاتهم. يجب أن نضيف إلى هذا الموسيقى العسكرية (التي كانت لا تُعزف إلا بعد تجاوز باب البيرة احتراماً للفقهاء) وموسيقى المعسكرات والألحان التي يأتي بها معهم فرسانُ قشتالة الخارجون على أسيادهم والتجار الإيطاليون.

هكذا كانت الموسيقى التي كنت سعيدةً بها وهكذا هي الموسيقى التي هاجرت مع آخر أبنائي إلى فاس وتونس حيث ما زالوا يحتفظون بها بأسمائها المؤثرة ـ الغناء الأندلسي ـ وكلام غرناطة.

الأخلاق والعادات

كثير هو الذي قيل، ليس فقط من ناحية الموسيقى، عن فساد عادات إسلام الأندلس. كان الخمر أحد الموضوعات الحرجة. يقول القرآن: «إنّما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه، لعلّكم ترحمون». لم يكن هذا المبدأ ينطوي، بالنسبة إلى بعضهم، على منع جازم للخمر بل كان يتناقض مع مبادئ أخرى تتحدّث عن طيبه (الآية التاسعة والستون من السورة السادسة عشر تتكلّم عن شاربي شراب التمر والأعناب: «ومن ثمرات النخيل والأعناب تتّخذون منه سكراً ورزقاً حسناً إنّ في ذلك لآيات لقوم يعقلون»). وكنتيجة لذلك قام جدل بين مختلف مدارس التشريع الإسلامي: المالكيون بالغوا في تشدّدهم ووصل بهم الأمر إلى معاقبة المخالفين؛ بينما أحلّ الحنفيون شرب خمر البلح إذا كان باعتدال، ولا يقود إلى السكر. كتب ابن الروميّ ساخراً:

أحلُّ العراقيُّ النبيذَ وشربَهُ وقال الحرامان المُدامةُ والسكرُ
وقال الحجازيُّ الشرابان واحدٌ فحلّتا لنا بين اختلافهما الخمرُ
سآخذُ من قولهما طرفيهما وأشربها لا فارق الوازر الوِزرُ

الحقيقة أنّ هذا المبدأ قد انتهك منذ البداية: فقد شربها الخلفاء وتغنى بها أفضل شعرائهم. إذا كان الأمر كذلك في المشرق، فكيف لن يحدث الشيء ذاته في الأندلس، التي كان نبيذها مشهوراً قبل أن تدخل في الإسلام بكثير؟ لم تنقطع قط عادة إقامة سهرات السمر،

التي يُشرب فيها الخمر، وتُسمع القصائد الجميلة والألحان والأغاني رغم أنه لم توقَف الأوامرُ الرسمية التي كانت تحاول أن تقمع الإفراط. وقد وصل الأمر حدَّ منع زراعة الكرمة، لكن التعايش مع السكان المسيحيين القرطبيين في ظلّ الأمويين جعل من المحال اجتثاثها. أشهر نبيذ في أختي قرطبة كان يُدعى بالضبط بنبيذ الدير، لأنّه كان يُباعُ في الأديرة النصرانية. في إشبيلية بداية القرن الثاني عشر المرابطية كان يُعاقب التجار الذين يبيعون الخمرةَ وكانت تُخرَّبُ أوعيتها ويُمنع على أصحاب الزوارق، الذين كانوا يحملون معهم جراراً لشراء الخمر من مستعربي طرجانة(*) الانتقال إلى الجانب الآخر من الوادي الكبير، لكن كان هناك تمييز واضح في العقوبات حسب حالة الشخص: صاحب المدينة لا يبرّئ أحداً ممن ينتهكون تعاليم القرآن ما لم يكن من عليّة القوم الذين يبرّؤون حسب المثل: «اغفروا لعلية القوم فالزجر أشد عليهم من العقوبة». وقد وصل الأمرُ بالموحّدين حدّ أنهم ولمنع المخالفات، التي كانت تتستر وراء الخلط بين الشراب المغلي والخمرة، أفرغوا الحوانيت التي كانت تبيع المسطار وأغلقوا الحانات، وهدروا الخمر المموه، وطبقوا العقوبات التي ينص عليها القرآن على كلّ من تكون رائحة نفسه خمراً. وقد برهن أسلافي الزيريون عن صرامة مثالية ضدّ شاربي الخمرة: ولم يكن المرتكبون ينجون من عقوبة الموت ما لم يدفعوا غرامة باهظة. وقد حظّر محمّد الخامس بأمرٍ عالٍ شهير نزوع أبنائي نحو شرب الخمرة حتى السكر، ووجّه نداءً لسكّان مملكتي كي يُبلغوا عن أماكن بيع للمشروبات.

صحيح أنّ اللعنات على أصحاب الحانات والسكارى الذين كانوا يهيمون على وجوههم في الأسواق لم تنقطع، لكنّ الحانات والسكارى الذين يهيمون على وجوههم في الأسواق لم ينقطعوا

(*) لم أعثر على اللفظ العربي لهذه البلدة Triana.

أيضاً. وحافظ خمر مالقة على مكانته جيلاً بعد جيل، وكذلك حافظت كرمة مملكتي بعنبها الخالي من البذور الذي كان يُستخرج عصيره اللذيذ، على مكانتها شهيرة ومباركة جيلاً بعد جيل.

هناك نكتة تلقي الضوء على موقف وسلوك أبنائي تجاه المسألة. سرق بعض اللاهين من الطبيب الغرناطي محمّد الجزرجي إبريق خمر عزيز عليه جدّاً. ولكي يعرف اللصوصَ أشاع أنّ الخمر الجيّد لم يُسرق ووضع إبريقاً منه خفيفاً متبلاً ببعض الأعشاب الطبية المسهلة. وذهب اللاهون في الليلة التالية في طلب الإبريق الثاني، وحصدوا النتيجة. وحين هرعوا إلى الطبيب يريدون علاجاً لم يفعل ذلك إلّا بعد أن جعلهم يدفعون ثمن الخمرة المعتقة مضاعفاً.

من الضروري الاعتراف أنّه إلى جانب رذيلة الشراب ثمّة رذيلة أخرى لاقت رواجاً كبيراً بين أهل غرناطة: الحشيش. وكان مخدّراً مستخلصاً من القنب الهندي، ويُدخّن لتنبيه الحواسّ. وقد لاحظ ابن سعيد خلال زيارته لمصر كثرة مدخنيها. أدمن الغرناطيون على الحشيش منذ القرن الثالث عشر خاصّة أبناء الطبقات العليا. وقد نظم ابن خميس بعض الأبيات، يقارن فيها بينها وبين الخمر.

الخمر والحشيش عكّازاي اللذان أستند عليهما، فشكراً لهما
عكاز الخمر يُكبّل ساقيّ وعكاز الحشيش يمنحني أجنحة(•)

(•) لم أعثر على هذين البيتين، لكنّني عثرتُ على:

دعِ الخمرَ من مدامة حيدر ... معتّقة خضراء لون الزبرجد
هي البكرُ لم تُنكَح بماءِ سحابة ... ولا عُصِرت بالرجل يوماً ولا اليد
ولا عبثَ القسيسُ يوماً بكاسها ... ولا قرّبوا من دنّها نفس ملحد
ولا قول تحريمها عند مالك ... ولا حد عند الشافعي وأحمد
ولا أثبت النعمان تنجيس عينها ... فخذها بحدّ كسرفي مهند
وفيها معانٍ ليس للخمر مثلها ... فلا تسمع فيها كلام مفند

محمد مختار العبادي: لسان الدين بن الخطيب وكتاباته التاريخية، عالم الفكر، المجلّد الرابع عشر، العدد الثاني: يوليوس - أغسطس، سبتمبر 1985. الإعلام - الكويت. م.

نكتة أخرى أوردها ابن الخطيب جرت بين الملك الأحمر وصاحب المدينة أو رئيس الشرطة، تمثل الحالة. ورئيس الشرطة هو الذي يرويها:

«أطريته باجتناب الناس الخمر في أيّامه، وتحت استداده وطهارة بلده من قاذوراتها، فقال لي في الملأ المشهود: والحشيشُ كيف حالها؟ قلت: ما عثرتُ على شيء منه، فقال: هيهات، انزل إلى بيت فلان وفلان وعد كثيراً من الساسة والأوغاد والصفاعين، رسم مكامنهم، وينسبهم نسبة الأصمعيّ أفخاذ العرب وبطونها، ويصف الناصح والغاشّ منهم بصفة، وربّما دعا بعض مشيختهم بالعمومة. قال: وانصرفتُ إلى ما ذكر، فوالله ما أخطأتُ شيئاً عمّا رسمه، ولا فقدتُ شيئاً مما ذكره لغشيانه بيوتهم، وانخراطه في جملة منتابيهم. يقول فهو والله أستاذي في الشرطة»(*).

كثير من المؤرّخين تحدّثوا مدفوعين بكراهيتهم لما هو إسلامي عن فسوق العادات في مملكتي. أظنّ أنّهم كانوا على وفاق مع أكثر عذّالي تزمّتاً. فقهاءِ عصري، أو مع بعض المؤرخين السابقين المأجورين للمرابطين، أو الموحّدين الذين جاؤوا معهم على الأقل بالكلام المتشدّد في العادات والتزمت الأخلاقي، الذين كان يناسبهم أن يعلن عن فساد أخلاق سابقيهم. في الحقيقة أشكّ أن يكون هناك عصر خليع بشكل خاص. ربّما كان تقسيم شبه الجزيرة إلى إمارات صغيرة الأصل في كسر مبدأ السلطة وروح التساهل والعصيان، كلّ ذلك سهّل فساد الأخلاق في عصر الطوائف. لكنّ لواطية الأولاد والذكور التي تُعزى إلينا بحقد كانت موجودة في كلّ الثقافات وفي كلّ عصور الانحطاط على وجه الخصوص.

في بداية القرن الحادي عشر وبعد أزمات أحدثت فترات قاسية

(*) أحمد مختار العبداوي : لسان الدين بن الخطيب وكتاباته التاريخية، عالم الفكر، المجلّد السادس عشر، العدد الثاني، يوليو ـ أغسطس ـ سبتمبر 1985، وزارة الإعلام في الكويت. م.

من الغلاء كان الفُسّاق يقومون بعرض خسّتهم، وكان لوطيو درب ابن زيدون أكثر وقاحة وعدداً ممّا في أيّة مدينة أندلسية أخرى، لكن لا يمكن التأكيد على أنّهم كانوا مسلمين فقط. فقد كان يكثر بينهم اليهود والنصارى. في هذه الحالة كما في مسألة الخمر تجاوزت الرذيلة كلّ مبادئ القرآن والسنّة والحديث. كانت رسائل الحسبة تدين سلوك المُغنّين والساقين المخنّثين، الذين كانوا يتحركون في أجواء وأوساطٍ من الصعب وصفها بأنّها مرذولة، ذلك لأنّهم كانوا واضحين تماماً. وقد تسرّب اللواط إلى جميع الطبقات الاجتماعية أو ازداد معها. إلى حدّ أن ابن الخطيب حين صوّر محمّد السادس الأحمر في الوقت الذي صوّر فيه أفعاله الخسيسة أشار إلى أنّ الملك مارس اللواط مع الصبية. ليس من المستغرب أنّهم تحدّثوا عن حريم ذكوري في قصور الحمراء، ولا أنهم اكتشفوا من أوّل نظرة إلى الشِعر الإسباني الإسلامي الإشارة المستمرة إلى جمال وحبّ الصبية.

أمّا بالنسبة إلى الدعارة النسائية فقد كانت تُمارس في أماكن مُحدّدة من المدن وضواحيها ـ كانت موجودة عندي في ربضٍ مُخصّصٍ للنساء العموميات وسُمّي القُصَيْفَة ـ وإن كانت البغايا يُحدّدن عادةً أماكن سكنهنّ ويمارسن مهنتهنّ في الفنادق في غرف ـ خم ـ لا يمكنهنّ الخروج منها إلا مغطيات الرأس. كنّ يدفعن ضريبة ـ خراجاً ـ إلى الجابي؛ من هناك كان أنّ بيوت الدعارة تُسمى دار الخراج والمومسات خرايجة، أي مجبرات على دفع الضريبة.

في كلّ عصر مضطرب تحدث ثورةٌ في العادات، وبعضُ الهجرة الاجتماعية وتمردٌ خفيّ يسبب، كردّ فعلٍ، شكلاً من أشكال التمرد والاندفاع في الحياة. من سمّوا فيما بعد بالشطّار كانوا يطوفون في تلك الأيام في شوارعي ويجلسون في ساحاتي، ويلقون الشعر في زواياي، يسرقون أو يغشون أبناء مدينتهم، ولا يعتبرون أنفسهم أبناء مدينة مع أحد. كان المغامرون يكثرون في اللحظات العصيبة والتحول والتهديد، ولم يكن لهم مركز؛ يرفضون أن يكسبوا حياتهم،

التي لم يطلبوا هم أن يحيوها، ويُحاصرون الأضعف، يعيشون على حساب الأقوياء، يلتحقون بالراقصات، ونساء بيوت الدعارة، والأرامل الوحيدات، وينتهون إلى أن يُشكّلوا أخويّة الغشّ. صورة جذّابة ومشخصة لهذا الكبرياء عند المحتالين هو أحد المجازين في بلش مالقة، ابن مراب الأزبي، الذي كان مظهره المهزوم يخفي حكمةً عظيمةً ومهاراتٍ أدبية ناعمة. وكان هناك فقيه فريد شبيهاً به، هو عمر المالقي الذي كان يعيش بين الشحاذين المزيّفين، فخوراً بشبقه وحيله من أجل العيش. وقد أثّر تأثيراً كبيرا في أوساطه، حيث أسّس أخويّة للمتسولين، الطريقة الساسانية، التي كانت تقدم صورة قبيحة عن أخلاق أبنائي. ومع ذلك فالتعميم خطأ.

الحياة الدينية

الجانب المناقض لما سبق وقلناه يشكله الحماس والتقوى اللذان ميّزا الغالبية العظمى من مسلميّ. فالدين مزج بين كلّ الطبقات الاجتماعية، سواء منهم الأقلية العربية أو المسلمين الجدد، الذين نقلوا من جيلٍ إلى جيل طريقتهم في الحياة والعبادة، وحرصهم على تطبيقها. الإسلام ليس ديناً يفصل بين الخاصّ والعام، بل دين يبسط وتشمل تأثيراته وتعاليمه المجتمع كلّه والمؤمن، الذي يشكل جزءاً منه. كان الأندلس حصن المذهب المالكيّ المستقيم، وقد استطاع احترامه الصارم أن يخنق منذ البداية المحاولات القليلة التي قامت لزرع الإلحاد في أرض الأندلس. فالقرآن والسنّة (أحاديث الرسول وطريقته في الحياة) شكّلا المصدر الأساسيّ للإيمان والحقوق والتقوى والحياة العملية. اتبع المالكيون تعاليم أنس بن مالِك، أحد أصحاب أقدم مجموعة فقهية إسلامية. ومع ذلك كان تشدّده يسمح بأنّ الأحاديث يمكن أن تُعدّل إذا ما تعارضت مع الصالح العام. ربّما كان المذهب المالكي هو الوحيد بين كلّ المذاهب الذي عانى من

نتائج إغلاقه باب الاجتهاد الشخصي للحصول على القانون من المصادر الأربعة: القرآن، السنّة، إجماع الفقهاء والقياس؛ من هنا كان أنّه وعلى المدى الطويل صار المسؤول عن التشدّد في العلوم الدينية.

ومع ذلك لم يكن المذهبُ المالكيّ قويّاً ولم يلقَ إجماعاً، كما أكّد الكتاب النصريون. كان هناك استمرار من نوع ما للمدرسة الظاهرية، التي كانت تُفسّر القرآنَ والسنّة من وجهة نظر حرفية وظاهرية تماماً، وقصرت الإجماعَ على صحابة النبيّ، ورفضت القبول السلبي بمعيار الأهلية، كما بالطرق العقليةِ للرأي الذاتي والاستنتاجات القياسية، والتفضيل الشخصي، الذي يأخذ بالاعتبار الخيرَ والقسط والفائدة العامة. كذلك ظهر بعض الشيعة، الذين هم شيعة عليّ وذريته من فاطمة، ابنة الرسول، الذين رفضوا الاعتراف بشرعية الخلفاء الأمويين والعباسيين وطالبوا بالسلطة للأئمّة العلويين، كما يختلفون أيضاً عن المسلمين المتشددين، ليس فقط من ناحية المرجعية العليا للأمّة، بل ومن ناحية امتيازات السلطة، ومصادر القانون، والتفسير المجازي للقرآن والشحنة المخلّصة للشيعة.

ومع ذلك فالمالكية كانت مذهباً منتصراً، حسب ما تبرهن قائمة المعلمين واختيار المواد المدرَّسة. ما يحدث هو أنّ تلك الحقبة كانت مأساوية جدّاً بحيث لا يمكنها أن تنافس المذهب المحافظ المتشدّد وعدم التسامح. كان على المذهب أن يتكيّف مع ظروف الضعف العسكري أمام القشتاليين، قابلاً بعض التسويات، التي يرفضها في أوقات أخرى. هذا ما يُستخلَصُ مثلاً من الردّ على المشورة المدجنة حول ما إذا كان شراء الأملاك التي غنمها النصارى في الحرب مسموحاً أو غير مسموح. هذا الجواب، الذي يعكس الضيقَ من الأحداث السياسية يذعن أمام الحاجة العامّة المعبرة عن القوّة القاهرة. أي أنّ المذهب المالكي استمرّ بالوجود من خلال عددٍ من البراهين العملية بفضل مرونته وقدرته على التكيّف.

ورغم ذلك من المحال عليّ أن اختم هذه المداخلة دون أن أُشير إلى أهمية الصوفية. فالصوفية هي الامتداد الباطني للإسلام. باطنيته، روحانيته التي مارسها المتصوِّفة، الذين جاءت تسميتهم من رداء الصوف الذي كانوا يرتدونه. الدين الإسلامي العادي، كما كانت تُمارسه الغالبية العُظمى من المسلمين، كان يبدو للمتصوّفين دينَ مظاهر خالصة أدنى من دين القلب؛ من هنا كانوا يَصْبون إلى قاعدة للحياة أكثر كمالاً، وإلى خطٍ من التبطين والغوص عميقاً في روح رسالة النبي. فضيلتها المميزة عنصر طقسيّ جديد، الذكر: نكرى اسم الله وذكره واستحضاره. بينما الصلوات الروتينية لها أوقاتها المحدَّدة وحدودها المقرّرة مسبقاً. والحرية التي كان باستطاعة الصوفيين أن يتمتعوا بها في استخدام الذكر هو إحدى ميزاتهم الضرورية بل وأعلى من الصلاة الطقسية، فهم يصلون من خلاله إلى التجربة السكونية، التي يعيشون من خلالها وحدة الوجود والمعنى الحقيقيّ لعلاقة الحب مع الخالق. من هنا يفهم أنّ موقف الأصولية المتشدّد من الصوفية كان يتعزّز على امتداد العصور، إلى هذا الحدّ من القوّة أو الضعف.

سرعان ما قامت بعض روابط صوفية في البيازين. أتذكّر واحدة منها، أسّستها مجموعة عائلية من بني بيد بونة، كانوا قد هربوا من الشرق الأندلسي، وتفرّغوا للدعوة لأفكارهم الدينية وأصابوا تأثيراً أخلاقياً متنامياً. كان أعضاء هذه الجمعية يجتمعون كلّ ليلة، ويرتلون آيات من القرآن تتبعها سلسلة من الابتهالات، ثم ينشدون معاً القصائد الباطنية لشهيد الإسلام المشرقي الحلاج. لم يكن الأعضاء المجتمعون يتأخرون في الغيبوبة الصوفيّة حتى ينبري بينهم منشدون ينشدون أشعاراً ملهمة؛ نوعاً من الاحتدام المقدس الجماعي كان يسيطر على الحضور، الذين كانوا يتخلصون من ثيابهم المرقعة، حتى يكادوا يصبحون عراة تماماً، ويبدؤون رقصة بلا إيقاع ولا وزن، تمتدّ حتى الضنى. وكان بعض سلاطين بني نصر يستدعون الرابطة الصوفية إلى قصورهم في

تصوير من قبة قاعة الملوك
يمثل شخصيات نَصَرية،
إلى جانب سيدات وفرسان
نصرانيين.

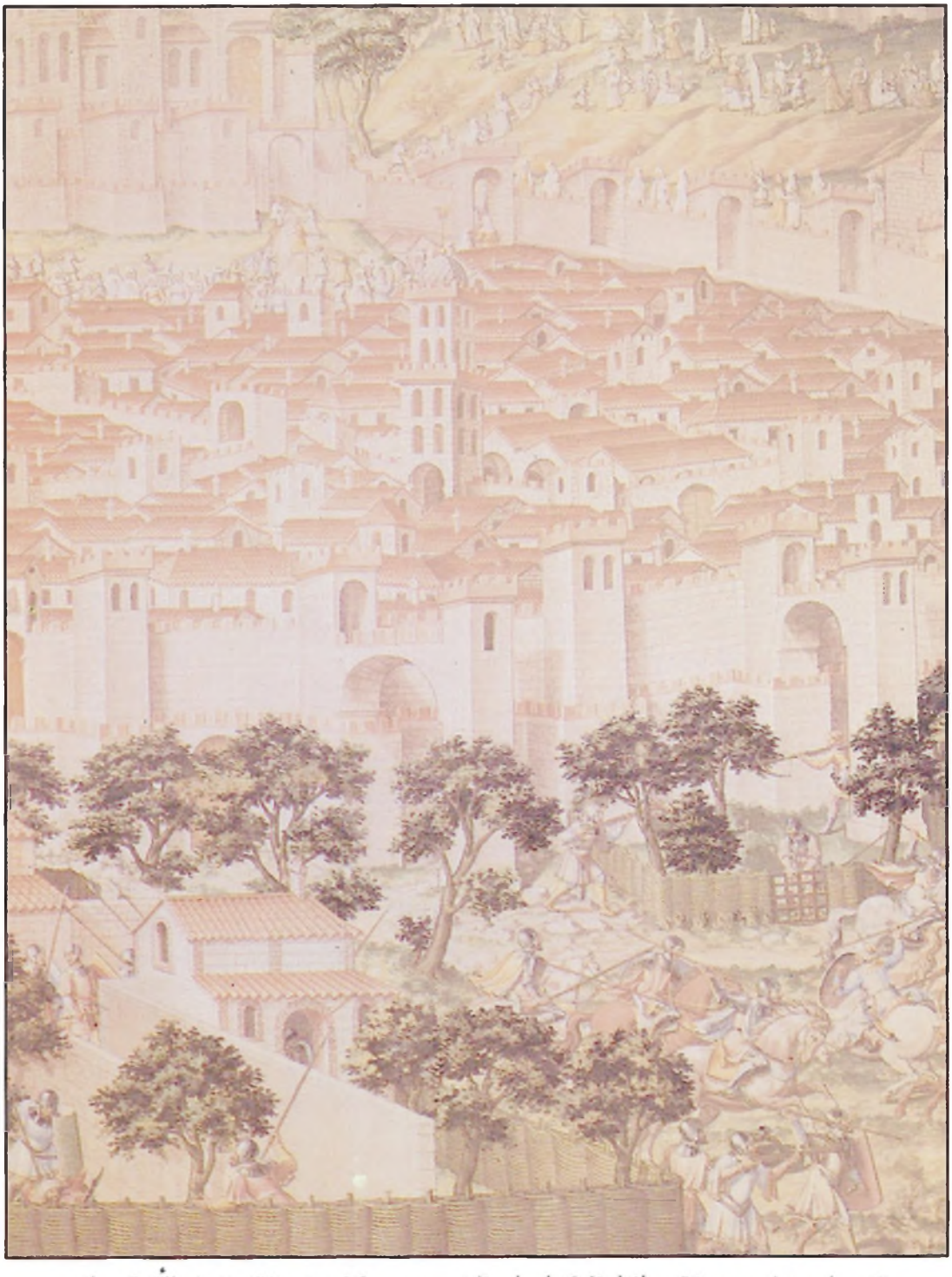

تفصيل من نهب مدينة «سانتا في» كما جاء في تصوير معركة هيفرويلة، متحف الأسكوريال.

الحمراء، كي يُشارِكوا في هذا الجوّ الخارق للطبيعة، وإشراقة الهذيان.

كان هؤلاء الصوفيون يمارسون في العادة مهناً متواضعة وينتمون، مثل صحابة النبيّ الأوائل الفقراء، الذين كانوا يُصرّون على الحفاظ على الإسلام في الفقر والغيرية، إلى أكثر الطبقات الاجتماعية تواضعاً؛ كانوا بستانيين، حائكين، عمالاً مياومين، بل ومشردين أيضاً. انضمّت إليهم مجموعة من الفقراء القادمين من إيران والهند، الذين سحرهم جمالي فأقاموا بين أبنائي وانهمكوا في التجارة الصغيرة. نزل الرحالة ابن بطوطة حين زارني في بيت أسرة مشهورة جداً هم بنو المحروق، كان العم والحفيد فقيهين مرموقين، انسحب كلّ منهما بإلهام من الله إلى صومعةٍ من تلك الصوامع الكثيرة التي كان ينتقل إليها مُسلِمِيّ بمناسبة الأعياد الدينية وكانت تؤوي المسافرين دون تمييز.

أدركت الحياةُ الصوفية أوجها في النصف الثاني من القرن الرابع عشر، حتى أنّها أحرجت المتزمتين المالكيين، حراس الاستقامة. وبالفعل اضطروا إلى أن يُظهروا رحمة تجاه من كانوا يعتبرونهم منحرفين، نظراً لحسن ضيافة هؤلاء للمسافرين وللمكانة التي حقّقوها في بعض الأوساط الاجتماعية. ظهر في الربع الأخير من هذا القرن بعضُ الشقاق في الصوفية: بالنسبة للبعض، الأكثر استقلالية، كان يكفي الإطلاع على أولوياتها من خلال القراءة الشخصية للأعمال المنصوح بها، بينما لا أحد يستطيع بالنسبة للبعض الآخر أن يعفو نفسه من التعلم الشفوي من معلم. اتبعت الصوفيةُ طريقَ كلّ المذاهب، حين راحت تفقد نقاءها وحريتها الفردية واستخفافها بدراسة الكتب التعليمية أمام معارضة المعلمين المدافعين عن النظام، والوحدة وأستاذيتهم. ومع ذلك استمرّت الروابط الصوفية فيّ ليس فقط حتى نهاية مملكتي بل إلى ما بعد ذلك بكثير. كان فيّ وقتذاك أكثر من ست وثلاثين رابطة، وكان

آخر سلاطيني قد سلّم مفاتيحَ المدينة الرمزية للملكين الكاثوليكيين أمام إحدى هذه الزوايا، تلك التي خصّصها النصارى فيما بعد لسان سِباستيان.

الفن والزخرفة والمهن اليدوية

إذا ما تكلّمنا عن الفن الذي تطوّر فيَّ وزيَّنني على امتداد القرنين والنصف اللذين حكمتني فيهما السلالة، فلا بدَّ لنا أن نشير في المكان الأوّل إلى العمارة؛ مع معرفتنا بعدم جدوى هذه الإشارة، لأنَ من المحال تصوُّر كيف كانت القصور والمساكن التي طالما سحرتني في أيّام ازدهارها. كادت العمارة تقتصر على الزخرفة، كما لو أنَّ الأبنية لم تُبْنَ كي تدوم أكثر من بانييها. بعضها هدمَه النصارى، وبعضها الآخر حوّل إلى شيءٍ مُختلِفٍ، مُكيّف بحسب حاجاتهم وأذواقهم، وبعض منها هُجر وتُرك لإهمال وجذام الزمن. أشهر وأهم أبنيتي التي ما تزال إلى اليوم هي الحمراء وجنَّة العريف. لكنَّ جنَّة العريف مصنوعة من ماءٍ وظل فقط؛ والحمراء أكثرُ أبنيتها كمالاً ليس اليوم إلّا غرفاً مقشورة. لا تكاد تحتفظ بمصاريع أبوابها ونوافِذها الخشبية؛ لا بلور، ولا بقايا ألوان في زخارفها ولا أرضيتها المذهبة، ماذا حلَّ بأثاثها الفاخر، وفضاءات جنانها، التي لا شيء غير الحدث يشهد عليها؟ وحده الماء، السريع الزوال، ما زال موجوداً رغم تعديل تأثيرات تناغمه، تألقه وانعكاساته.

عندما قالوا في العصر الراهن إنَّ هذه الأبنية كانت تبدو أكشاكَ مرطبات، ربّما لم يُجافوا الحقيقة، نظراً لكثرة ما قُلّدت بشكلٍ سيّء ومحزن على امتداد وجه الأرض. أيضاً كانوا على حقٍّ حين قالوا إنّها أبنية قائمة على أربع عصيّ؛ ما يبدو محالاً هو أنَّ هذه القصور، المشادة في منطقة تكثر فيها الهزات الأرضية وبمواد

سريعة التلف، هشاشتها بادية للعيان وخضعت إلى هجوم الحروب ونهب الزائرين لها وانتقلت من يدٍ إلى يدٍ ـ من السلاطين إلى النبلاء النصارى، ثمّ إلى الملوك المتفرنسين، ثمّ إلى المحاربين، فالمهربين فالغجر، فسلطة علم الآثار الباردة ـ استطاعت أن تصمد مثل فقاعة لألاء ومثيرة. من يتساءل، وقد بدأت أعمال الترميم، كم سيستغرق تجديد الحمراء كاملة، فليتساءل أيضاً عما إذا لم تكن هي ذاتها الورود وذاتها البلابلُ وما إذا لم يكن هو ذاته الأمل واليأس. ما يدوم في الجزء الأصغر مما كان موجوداً. في عينَيْ من يصل للتو تبدو المدينة من الأعلى هي كما تُرى محصورة وباردة. ليس صحيحاً: فالجدران لم تكن ملطخةً، ولم يكن فيها تشققات، كما لم تكن الرطوبة والزمن قد دُعِيا إلى هذا المهرجان من الاهتزازات والأنوار والانعكاسات، إلى احتفال الأصوات والأصداء المختلطة مع الأصوات التي كانت تقوم عليها الحمراء وجنّة العريف. لم تكن القاعات عارية ولا أثاثها منزوع، لم تكن أماكن يزورها الفضولُ، بل أماكن مُشادة ليعاش فيها في الثراء والرفاه. القسم الصغير جداً من مدينة الحمراء، التي يمكن لمن يزورها اليوم أن يرى وبالنسبة لمن عرفها فقط يمكن أن تثير البكاء، وبالنسبة لمن لم يعرفها لا يمكن أن توحي إليه بروعة صندوق الدنيا الذي كانت تمثّله حرارةً وحركةً. كانت الحمراء لدنة وملونة مثل جسدٍ فتيٍّ. ولها، مثله، موسيقاها وعبقها اللذان يشتعلان وينطفئان حسب الساعات والفصول. كان فيها النبض الدائم الذي هو علامة الحياة. وفيها النور والماءُ يلاحق بعضه بعضاً في القناءات والحدائق، بطرف العين الذي يُلاحَقُ به زوجٌ من الفراشات. ضمن الجدران شبكة المياه التي لا تنقطع، كالعروق الصلصالية توزّع دمها الصاخب، والسواقي شرايين هذه الدورة. في السكون الظاهر كان كلّ شيءٍ لوناً، كلّ شيء حركةً. الماء يضجّ في الأصدافِ أو ينساب فوق المرمرِ، يعزف نشيدَه الذي يُوَقِّعُ له الخريرُ المرئيّ البلوري. والجدران التي لم تسكت حتى يومنا هذا تردّدُ أشعار الحمدِ لله

ومديح السلاطين. الستوق والزخارفُ المفعمة بالألوان كي توحي بالحركة تصيب بعدوى اهتزازاتها الزخارفَ وأسقفَ العاج والأَرْزِ... باحة الأسود، التوريق المضاعف والفضاء في الوسط، حيث تختارُ العصافير إقامة أعشاشها، كانت تضجّ بالحياة: كان المرمر أكثر وداعةً وأكثر حساسيةً من الجسدِ، من خلاله كان يُسمع دويّ الماءِ، كما لو في قلب المحار. كل ما كان هناك وفي بقية القصور التي ما عادت موجودة، كان شبهَ شفاف، دقيقاً وبليغاً في المعنى مثل الوشم البدويّ. كلّ شيء استسلم للعيشِ في تأمّل وراحة الحواس التامّة: البصر يرتاح أو يضطرب في الألوان، السمع في صخبِ المدينة في الأسفل، وفي الأصواتِ فائقةِ الوصف؛ الذوق والشمّ في الفواكهِ وفي الروائح الناعمة؛ واللمسُ في رطوبةِ الجوّ، في النورية الخارقة التي تحضر فيها الطبيعة كلّها...

من يستطيع أن يقول اليوم، بعد رؤيتها، إنّه عرف الحمراء؟ وحدها أقبيتها المجهولة بلغت من الحجم ما جعل جرمانياً في النصف الثاني من القرن التاسع عشر يسيرُ منهكاً، ضائعاً ثمانيةَ أيام حتى عثر عليه الناظرُ. تُرى ألم يكن على اليد أن تكون قد هبطت من قوس باب العدالة وأمسكت بالمفتاح المنحوت على القوس الثاني، حسب ما تريد أسطورة خراب الحمراء؟ أليست مهدّمة حقاً؟ الذين عاشوا في الحمراء تنبّؤوا أنّها (اليد) توقفت: ما من شيء كان له علاج، وكان الجميع يعرفون ذلك. كانت مسألة وقت... طموح كلّ ملك حين كان يدشن العرشَ هو أن يعيش في قصر يبنيه بنفسه، على عجل، كي يستمتع به بأسرع وقت ممكن. وقصرُ الملك السابق يُهجَر أو يُهدم أو يُخصَّص للنساء. الأحياء لا يواصلون أعمال أسلافهم. الدم الجديد لا يتابع عملَ الدم القديم؛ كثيراً ما كان يمحوه. يسطّر التاريخُ جمالَه فوق جمالٍ آخر سابق عليه. ما من شيء كان له علاج وكان الجميع يعرفون ذلك: إنّها مسألة وقت...

وعدٌ من ذهب يطلع خلف التلال الجليلة

والحلم يؤخرك في شرفات السهام

بجانب المجد الأحمر المسوّر،

ستأتي شمسٌ وتمحو

النجومَ المشوّشة

التي تكتبُ على السقوفِ قدرَ الخاسِر المحزنَ.

لكنّ هذا النور، بنورياته التي ما زالت شاحبة، لن يشيخ:

في الحديقة تخلد.

سرب من طيور يطلق

زعيقه المحموم.

سيجيء الغناءُ مذعناً للنور.

ها هو تعايش اللذة والأمل

لأنّ عطاءه لا ينقطع أبداً.

يعود ليلَ الشُّعر البطيء إلى جحره،

كاشفاً عن عُري الفجر.

على عريك الظلّ.

الغبش يتحدّد ويفرّ.

سَيَرِدُ هذا السريرَ النهارُ:

لا ظلَّ فيه غير ظلّ أهدابك.

تحت قوسها الخفيّ

يجري الربيعُ وديعاً

في كمّاشة الوقت الدقيقة...

بينما كيمياءُ الضوء تسقي الأرض.

الذين سكنوا الحمراء تنبّؤوا بأنّها توقّفت. لذلك اختاروا ألاّ يختاروا بين الحقيقة والوهم. فتائل الليل وبهاء الصباح الساطع تلقي ظلالاً مضطربةً تُثير القصور كلّها. ألوان البلور حين تسقط على

ألوان الجدران تزيدها اضطراباً. في الأسفل تنبض الأسوارُ ـ ما تلك القلاعُ: عالية وتتلألأ ـ يرشح عبر فجواتها ألق متذبذب وشاحب. وإذا ما بدا هذا قليلاً فإنَّه حين كان يرتسم على ارتعاش الماء كان يمنح للحلم حياة أكثر مما يمنحها لليقظة. العقود الكبيرة والمتنوعة المنعكسة في الماء تُرى كما يجب أن تُرى، من الأعلى إلى الأسفل وليس العكس. هنا يكمن سرُّ جسد المدينة المغمور بالماء، المدعو منذ البداية ليختفي تماماً مثل الحبّ. صندوق الدنيا المتلاشي، بلد المروحة التي تنفتح وتُغلَق، شيء رقيق وفرور، حيث لا يستطيع أن يعرف المرءُ ما يختار: المادة الهشة أم تقليدها. أيّها هو البرج الحقيقي: البرج الذي بناه الإنسان أم الذي يغوص في البركة؟ المادة، أم صورتها، أيّهما يدوم أكثر؟ ما الذي يبقي علينا، الحبّ أم نكراه؟ لأنّ الواقعي يبقى دائماً أبعد من انعكاسه. الحياة والحبّ هما الماء الذي يتلألأ؛ وفيهما المزعزع به هو الأقرب. الظهيرة لم تدم إلا لحظة...

بعيدٌ الغروب

فلا تبدو لنا نبوءة البارحة،

وشبكة الوقوع.

ديك الريح

لا يُقلِع ظهراً بطيرانه القصر أبداً.

ما زال الوقتُ باكراً على الشتاء:

خليةُ النور الشفاف

تمتصُّ النور وتتجوّل في هذه الحديقة.

لماذا لا تكون سعيدة قبل حلول الليل؟

نحن لا ننتظر حبّاً آخر،

جمالاً آخر، ولا حميّا مختلفة.

هنا أتأمّل تأجّج الحياة في عينيك.

هذه مملكتك: لا يسكنها الخداع.

خلفك، على الرخام الجاسئ المتلألئ

تجرجر الجلالةُ أرجوانَها المنيع.

في حجراتها الحميمة تغفو الرغبة،

توقظها حمّاك المتجدّدة.

والأرضُ المبهورة بالنور

تتلقى القبلةَ الخصيبة.

ربّما فضّلتُ من الحمراء، التي ما زالت باقية إلى اليوم، صحنَ الريحان. وقاره القدريّ وتناغمه. قاعة قمارِش تشبه خيمة قافلة، يمكن أن تنصبها وتتابع رحلتها: في الخارج الواحة مع خضرة البركة العميقة تحت بطانة سقف السماوات السبع، فوق البرج نجمة القطب التي تجمع كلَّ التناسق؛ حولها السورة التي لا تنتهي مثلها مثل الصحراء اللامتناهية. تحت الأسقف العالية العميقة والموغلة في الليل كثيراً ما سمعتُ اسم المجرات. رأيتها تتردّد، ترتعش، تتلألأ في الأعلى حين يتسلّق النورُ منزلقاً على الزخارف العربية حتى أعلاها، ويلعقها ويجعلها تستمتع برهة... في الحمراء كان اللهُ نوراً وربّما النور الله.

ضدّ اللهب، وحدَه اللهبُ.

ضدّ الماءِ، زهرةُ الريحان.

تحت السقوف المنجّمة

نطقتِ باسمي.

ردّديه. «كلّ شيء سيء» ردّديه.

ضدّ اللهب، وحدَه لهبُك.

يرتعش الحبّ، يُقرقِر، يتفتّق، يتملّص،

يعضّ، ينكمش

مثل جروٍ،

لا نعرف ما إذا كان يلعبُ أم أنّه يلتهمنا.

صوتك يمنحني القوّة ضدَّ القوّة،

سمّيني وسنحيا.

ضروريٌّ الموتُ؛

ضرورية الآلهةُ المزدراة.

لكن لو سمّيتني...

آهٍ لو سمّيتني...

لا، ما من شيء كان له علاج والجميع كانوا يعرفون ذلك؛ فالمسألة مسألة وقت. كان الألم يقرع بيده الحجرية على باب الخمر؛ في باب العدالة يدُ الألم تهبط بالمفتاح لتفتح قصوري شيئاً فشيئاً. كانت نجمة بني نصر ستغرب؛ وستمحوك شمسٌ أيّتها النجوم الكسولة التي تكتبين قدرَ الخاسر المحزن... ملكات جديدات سينحنين بجذوعهنَّ في هذه الشرفة. أقدام جديدة ستطأ هذه القاعات. أسماع تربّت على صوت المدفعية ستسمع مذهولة أغاني هذه النوافير. لمن سيكبر الآسُ والكنكر؟ الأقوياء لا يحتاجون إلى كلّ هذه الرقّة... سنابك خيولهم ستدوس هذه الحدائق دون أن تنظر إليها. بجانب برج أبي الحجّاج سيضعون ممشطاً لملكة لن يكون اسمها عائشة، التي تعني المحتشمة، ولا ثريّا، أي نجمة الصبح. فوق شعار بني الأحمر «لا غالب إلّا الله» سيكتبون شعارهم، الماوراء بين الفاء والياء. وعلى متاهة زُليْجِنا المتسق سيفرضون نيرهم وحزمة سهامهم... الأقوياء لا يحتاجون إلى كلّ هذا الجمال: تكفيهم القوّة... ومن كوّات مباخرنا وخوابينا سيعملون محاريب لقدّيسيهم. وفي قصر الشورى سيبنون مصلاهم. وفي أجرانِ الميضأة سيضعون ماءً مقدّساً. في الحمامات حيث ارتخت أجملُ الأجساد، وحيث كان يتلوى البخار مثل مآزر الشفّ، حيث تُطلّ الشمس دون أن تجرؤ على الدخول، سيقيمون مخازن بارودهم

وقمحهم. وحيث كنّا سعداء ونغنّي، لن يكونوا هم إلّا أقوياء؛ وحيث كنّا أقوياء ولطفاء سيضعون هم حجارتهم. والكتب التي تعلّمنا منها علوم وتاريخ البشرية سيُضرِمون فيها النار. في الأماكن التي أحببنا فيها الحياةَ هم سيستاؤون... سيأتون بأزهار مختلفة، أو لن يأتوا بأي منها، سيأتون بلغة أخرى، عيون أخرى، طريقة غريبة لتبادل الحبّ. سينسون القاعة التي تعطّرت فيها الأجساد الملكية، وفي الأماكن التي يرتاح فيها أسلافنا سينمو عشبٌ باردٌ، وسيدنّس القرّاصُ مربعات المرمر التي لم تقبّلها غير الشمس وغير المطر... وستشهد شلالات الستوق مندهشة مشاهد لم ترها من قبل، ونحن لن نُشارِك فيها. لا غالب إلّا الله. والعالم سيكون قد بدّل أصحابه إلى الأبد...

صيحي باسمي حين أموت

لا مكان هنا للنحيب:

لم يُصبح لفمي طعمُ الرماد بعد.

متطاول النورُ

يتأخّر فوق الحديقة.

تعباً يعودُ لا ذابلاً،

إلى المجرّات التي يهبط منها؛

عبثاً تهبط العتمة علينا،

لأنّ الشمسَ مترصدّة

في مأواها، تعدّ للانتقام.

منفيين من الظهيرة

سرعان ما سيرتشفنا تجويفُ المساء،

كما يُرتشف عصير ليمونة.

نجومٌ خارجة من مسارتها ترقبنا.

منفتحين على مصاريعنا لليل:

الأرقُ سلاحنا الوحيد،

والريحانُ من حولنا ينشر عطره.

يُنزل الغسقَ من الثلج

خضرتَه المنهكة وصرته...

من سيُغمِضُ هاتين العينين، سيطبق هذا الفم، هذا الجسد؟

لا خلاصَ لأحد من اليوم الأخير، من الحِداد.

يبتعد النور، يصبح باسمي.

ها أنتما أنت واسمي

بمنجاة في الحديقة:

خارج الزمن، لن يُعكّرَ سحرُهُ عليكما صفوكما.

في زخرفة صروحي هذه، التي تكاد تكون محض زخارف، استخدم فنُ بني نصر أكثر المواد تنوّعاً: المرمر للأعمدة والتيجان وبعض المجموعات الرشيقة والبحيرات، وكذلك الجصّ المشغول والخشب والفخّار المزجَّج. في أفاريز الزليج يلمع هذا؛ المنطقة المتوسطة من الجدران كانت مكسوة بالتوريق، والمقرنصات تشكّل قباءً متتاليةً معقّدة، ومختلفة وتُغطيّ بظلّها التيجان. هناك تنوّع كبير في الأقواس، نصف دائرية ومسنّنة ومحدبة أو مشوّهة، أقواس مقرنصة. لزخارف الجصّ تاريخ طويلٌ في شبه الجزيرة، لكنَّ ألمع الإبداعات يجب البحث عنها فيَّ. العناصر الأفقية للزخرفة هي هندسية وزهرية أو كتابية. في الصناعات اليدوية كانت المضلعات المتناثرة تلتقي فيما بينها في فيضٍ من الأربطة، وكثيراً ما تظهر مصوَّرةً، وكانت السقوف تقترن بالأبواب الرائعة ذات المصاريع، التي تُغطّي الفتحات الكبيرة. كان التوريق يُقدَّم بالإضافة إلى الشبكات الهندسية، موضوعات نباتية؛ كان أسلوب الزخرفة الزهرية

في المرحلة الأخيرة أكثر طبيعية من سابقاته وتعقّدت الزخارف الهندسية والكتابية حتى أنّه لم يبقَ أحياناً مكان في الجدار دون زخرفة، مموّهةً البناء تماماً. كنّا نحضّر في الفترة الأخيرة فنّاً ناعماً وهفهافاً لا يمكنه أن يدوم. كان الفن العربي الإسباني ينطق بأروع وداعٍ له؛ فمنذ تلك اللحظة لم يعُد المسلم يُنتِجُ شيئاً: لقد اقتصر على تكرار الأشكال النصرية. زخارف الحمراء، والمسجد الكبير، والمدرسة كانت الأكثر أهمية بالنسبة إلى المبدعين النادرين، وكذلك بالنسبة إلى الحرفيين اليدويين بل وحتى بالنسبة إلى الشعراء، الذين وضعوا أنفسهم في خدمته. الأهمية الممنوحة للخزف وخاصّة الزُلَيج والكمال المحقّق في الخزف ذي الخطّ البسيط ـ الذي يحيط الزخرفة بخطّ أسودَ استُخْدِم في تركيبه نوعٌ من البرنيش ـ استطاع أن يرتقي ببراعة الخزّافين الغرناطيين إلى الأوج.

استخدم الصاغةُ التخريمَ والنظمَ في السلك ليشكلوا التخاريم التي يُغطّونها بالزجاج والحجارة الكريمة، وقد برزت الصياغة النصرية أيضاً في صناعة السيوف الغرناطية الشهيرة والمحسودة. وقد أسرفوا في استخدام العاج في علب المجوهرات وأقواس الفولاذ والمرصعات وكلّ أنواع الأواني المقدسة، والمنزلية. كان منبر الجامع الكبير في الحمراء من الأبنوس المرصّع بالعاج. وكانت مقرنصات العاج تلعب في أبواب القصور. في الخوخة والصناديق، في الدعامات كما في المجوهرات، وضع التطعيم لمسته الرقيقة في كلّ مكان منها. بصعوبة يُحتفظ حتى الآن بكرسيّ من أيّام محمّد السابع: خشبها مزخرف بالمثمنات والصلبان، ذات الأطراف المحدبة، التي طُعّمت بأزهار العاج ذات التويجات المثمنة، وفي فراغات هذه نُزّلت أزهار أخرى دقيقة من مثلثات دقيقة الرأس؛ لون الخشب اللامع يتناغم مع العاج، ومع تدرجات لون المعدن الأصفر المنقّط... كان كرسيّاً غير ذي قيمة، لكن ما يزال يتربّع التناسق فيها.

منذ أن ألغى الملوكُ الموحِّدون الطِرازَ (الذي كان واحداً من الخصائص التي صانوها بحذرٍ من سلطتهم، وكانت نوعاً من التطريز الذي يتضمّنُ الاسم والألقابَ منسوجةً بخيوط من ذهب أو ملونة على الحرير أو الإستبرق)، مُذاك فُتح المجال أمام الرسوم الهندسية المضفورة بخطوط مستقيمة، ومنحنية ومضلعات ذات أشكال نجمية ومعينات. ألفونسو الحادي عشر أهدى مُحمَّداً الرابعَ أنسجةً من ذهبٍ وحريرٍ مصنوعة فيّ، وكان القشتاليون يعبدونها. في معامل حريريّ سادت زخارفُ ذات قطاعات متوازية وألوان زاهية، تُعطّر الجوَّ حين يتحرّكون بها كما لو أنّها أزهارَ ربيع. ومَنْ غيرُ أبنائي كان يشتغل الصوفَ لأقمشتهم وسجّادهم، والجلودَ لِدَرقِهم وكراسيهم، والرسوم والألوان التي يزخرفون بها نسخ قرآنهم؟ نعم لقد كان الفنّ كلّه في خدمة الجمال، لكنَّ الجمالَ كان في جميع الأحوال في خدمة الحياة.

اللغة وتجلياتها

كما لو أنّني أريد أن أجيب على ما لفتت إليه الحياةُ والتاريخُ الانتباهَ، هكذا حدث لي مع اللغة التي كان يتكلّمها أبنائي. طبعاً كانت اللغة العربية، لكن، كما ظهرت في القرون السابقة ازدواجيةٌ ونوع من ثنائية لغوية بين المسلمين، نظراً لاستمرار العلاقات مع القشتاليين، كذلك حدث منذ أواسط القرن الثالث عشر تبدّل لغوي. بنو نصر المسؤولون عن كونهم آخر حصن للإسلام في إسبانيا، صبّوا اهتمامَهم الأكبرَ في الحفاظ بعنايةٍ على أعظم إرث لهم: اللغة، اللغة التي هي رابطة ثقافتهم كلّها. أدباء إمارتي، وكما كرّرتُ، معلمو العربية الماهرين، كانوا يستخدمونها بنقائها، بينما اللغة الرومانسية تبدو مُهدَّدةً وثانوية لا يتعدّى استخدامها متطلبات اللحظة العملية.

يؤكّد ابن الخطيب بشكل قاطع أنّ أبنائي كانوا يعبّرون بعربية خالصة. أعلم أنّ الأمر لم يكن كذلك، إلا من خلال القواعد والنصوص. فالصوت المُسمّى إمالة (تلك النزعة نحو المدّ في الألف الذي كان يُلفظ مثل ياء طويلة: فباب كان عندي بيب)، كان معتاداً. تمّت المحافظة على نقاء اللغة العربية بين أبنائي من الخاصّة الأرستقراطية وبين الأعيان والوجهاء، لكن الطبقات الوسطى والعامّة من السكان كانت تستخدم العربية العامية، التي تتخلّلها بعض الكلمات الرومانية، التي كانت في ازدياد مطرد، كما لو أنّهم راحوا يتدرّبون على الكلام باللغة الجديدة، التي ستنتهي بالحلول محلّ لغتهم، ويخطون الخطوة الأولى على طريق تغيير قوانينهم، وعاداتهم، ودينهم، وثقافتهم. الخصائص الأساسية لهذه اللغة العربية الإسبانية كانت قليلة، لكنّ تشويهات متواصلة راحت تقرّبها من القشتالية، ليس بفرح ابن قزمان غير المسؤول حين كان يخلط في زجله اللغة الرومانسية(*) بالعربية واثقاً من أنّ تعبيره كان أقل أهمية من أناقة إلهامه، بل بخوف وحزن من أنّ تلك العدوى ـ الملحوظة في محاضر وأعمال تقنية ورسائل ودّية ـ سرعان ما ستتطلّبها الحياة.

الشعر

لا يبقى من الحضارات التي تنهار إلّا تحجّراتها، يختلط اليومئ منها باليومي من الحضارات التي تحلّ محلّها. تبقى، نعم تبقى المعابدُ والقصورُ والحصون، وليس البيوت الصغيرة التي كانت تقطنها العامّةُ، التي أعالت الكهنةَ والمحاربين والملوك. ربّما بقي الشعرُ والعلمُ، لكن ليس اللغة التي كان يُباع ويُشرى بها الغذاءُ

(*) بمعنى اللغة اللاتينية الجديدة (أو اللاتينية العامّية). م.

اليومي، والأشياءُ الصغيرة التي كانت تُشبع الحاجات الدنيا للناس أو تخفّف منها. بالضبط لأنّ هذه اللغة تتطوّر أمام أدنى متطلبات الحياة، تموت حين تتبدّل الأخيرةُ. الشعرُ، الذي يكون قد تحجَّرَ يصبح، مهما كان شخصياً، أكثر ديمومة. جمْعِ فَي مملكتي، حين أصبحت ملاذاً، ميراثُ الأندلس كلّها. تمّت المحافظة على جوّه بكلّ ثمن، حتى بالعودة إلى الماضي. حمى أمرائي الفنونَ والآدابَ، لكن وكما حدثت الهزّة الأخيرةُ في الفنون كذلك وجد الشعرُ نفسه ملفوفاً بصور بلاغية، كانت مثل القماش الذي يكفّنُ جثّة. الأصالة التي لم تكن أبداً خاصّة من خصائص الشعر العربي(*)، كانت قد اختفت تماماً. سؤال عنترة ابن شدّاد قبل الإسلام:

هل غادر الشعراء من متردم؟

ردَّ عليه ابن زمرك، ثالث شعراء الحمراء بدقّة جليّة:

ودعوتُ أربابَ البيان أُريهمُ

كم غادر الشعراء من متردّمِ.

جميع الموضوعات المطروقة في الشعر العربي الأندلسي كُتبت على الورق وعلى جدران القصور. وحين أقولُ الشعر، أقول كلَّ شيء، لأنَّ جميع العلماء والأدباء في مملكتي مارسوه: لم يكن التخصّص في هذا الميدان أو ذاك موجوداً، بل عقلية موسوعية تحيط بمختلف فروع الأدب. بل وأكثر من ذلك، فقد كان للشعر بين أبنائي من المكانة والاعتبار الاجتماعيين ما جعل ابن سعيد يكتب أنّ الشعراء «كانوا يبدون منتفجين وفخورين» نظراً لمكانتهم العظيمة. لذلك ازداد عدد الشعراء بشكلٍ كبير، لكن ليس الشعر. كان الشعراء يُشكّلون جزءاً من أمانة الدولة، ومكلّفين بالقيام بالمراسلات، كما بكتابة القصائد التي تحتفل بالأحداث الكبيرة أو بمدح السلطان في احتفالات البلاط. شعراء الحمراء الثلاثة، ابن الجيّاب، وابن الخطيب وابن زمرك، كتبوا على جدرانه شاهدة موته.

(*) نلاحظ كم هذا الرأي متأثّر بالاستشراق الاستعلائي. م.

هل يمكن أن نُسمّي القصائد الغنائية التي لا نهاية لها شعراً؟ هل نطلق اسم الشعر على رسائل أبي البقاء الرندي حول فنّ نظم الشعر، والإلهام والعفوية فيه، حول الزخرفة البلاغية أو أسفه على مصيرِ إسلام الأندلس، التي يبدو أنّها تتطلب أيضاً الرثاءَ لجمال لغتها؟ سلف شعراء الحمراء الثلاثة، الوزير ابن الحكيم، وهو رنديّ بدوره، لم يكتب غير الحنين إلى مدينته، مسقط رأسه ومدائح للسلطان محمّد الثالث. أمّا ابن الجيّاب فلا يكاد يبقى من شعره إلا بعض قصائد المديح، أو بعض الثناء المزعج، بعض قصائد التغني بالنصر، والاستعراضات العسكرية والأعياد الدينية، بعض النصوص على جدران برج الأسيرة وفي كوى جنّة العريف، تغليف مفرط في ثرائه لنصوص متواضعة جدّاً.

ملأ ابن الخطيب عصره بمختاراته، بتجديداته الخفيفة في الموشحات والزجل وبتواريخه ورسائله. لكنّ أشعاره كُشِطت عن الجدران حين اتُهم بالخيانة. وحلّت محلّها أشعارُ ابن حدّادٍ متواضع من حدّادي البيازين هو ابن زمرك، الذي خان وخين بدوره، بالحديد قَتَلَ وبالحديد قُتِلَ، ولا يفلّ الحديدَ إلا الحديد. ويرتبط شعرُه بالتقليد الأندلسي المتعلق بقصيدة الزهر، ذات الموضوعات الوصفية والمدحية، في علم الجبر الفكري هذا الذي كان يتجاوب مع متطلبات الجمهور المتعلم في ذلك العصر. فوق أشعار ابن زمرك كتب أحدُ السلاطين، يوسف الثالث، أشعارَ صَلَفٍ ومديح، إلّا عندما استحضر أسرَه شلوبانية، أو حين بكى موت أبيه وابنه، عندئذ يُسمع نفَسُ الشاعر المضطربُ والشخصيّ.

أمّا بقية الكتّاب فيمكن التبادل بينهم، فأي واحد منهم يستطيع أن يُوقّع قصيدة الآخر. ربّما نجا الشعراء الشعبيون الذين كانوا يُغنون قصائدهم بأنفسهم، ويغنيها لهم أبناء بلدهم وكتبوا بالعربية العامية موشحاتهم وزجلهم. هؤلاء الشعراء المجهولون عَبَرت إبداعاتُهم المضيقَ ولاقت صدى مزدهراً في المغرب. لكنّني قلتُ إنّ

اللغة اليومية لا تدوم، وتنتهي حين ينتهي الكهنةُ والمحاربون والملوكُ، الذين كانوا يسكنون الأبراج التي بناها الشعبُ وهو يُغنّي. وقبل أن تُمْحَقَ هذه الأبراج مُحِقَت هذه الأغنية.

العلوم

ربّما كانت العلوم هي التي لاقت حمايةً بني نصر أكثر من الآداب، ما سمح لهم الاستقرار السياسيُ بذلك. لقد شكّلت المدرسة الكبيرة مركزاً ثقافياً، حيث استقرّت مختلف الفروع العلمية. وكثرت المكتبات والمختبرات ومراكز الرصد الفلكي لافتةً انتباه العلماء. كانت معارف هؤلاء ومهارتهم كونية. كانوا يمارسون بشكل مفضّل علومَ الرياضيات، وخاصّة الجبر وعلم المثلثات والبحوث النباتية والطبّ النباتي، وكانوا معلمين كباراً في صناعة الآلات التي استُخدمت أحياناً لأهداف عسكرية، وفي الدراسات الكيميائية. وقد تمتّع علماء الفلك بشهرة عظيمة، وإن ارتبطت نشاطاتهم عادةً بالطب: مثلاً ابن زرزر، طبيب محمّد الخامس وبِدرو الأوّل، تنبّأ قبل فترة طويلة بظهور تيمورلنك، القائد التتري العظيم. وقد ساهم الأطباءُ بعددٍ من الرسائل القيّمة في تقدّم هذا العلم، تاركين للأجيال القادمة كنزاً وفيراً جدّاً من المعارف القائمة على التجربة، وعلى دراسة القدماء الكلاسيكيين، وبفضل علمهم أدركوا في أوروبا مكانتهم الطبيعية. ساعدتهم في ذلك بحوثهم في العلوم الطبيعية، كعلوم النبات والحيوان والصيدلة والأعشاب. كان بعضهم، مثل ابن الخطيب وابن خاتمة شعراء معروفين. عملياً كتب الأوّل:

الطب والشعر والكتابة سماتُنا في بني النجابة.

كثيراً ما تحوّلت مكانةُ الطبّ الرفيعة إلى هواية وراثية: أسرة بني شقوري الشهيرة ـ لأنّ أصلهم من شقورة، المدينة الأندلسية ـ أدركت بعلمها درجةً عالية من الاحترام. كذلك كان للجراحة ممثلوها

تفصيل فسيفساء من قاعة سانتو دومينغو الملكية.

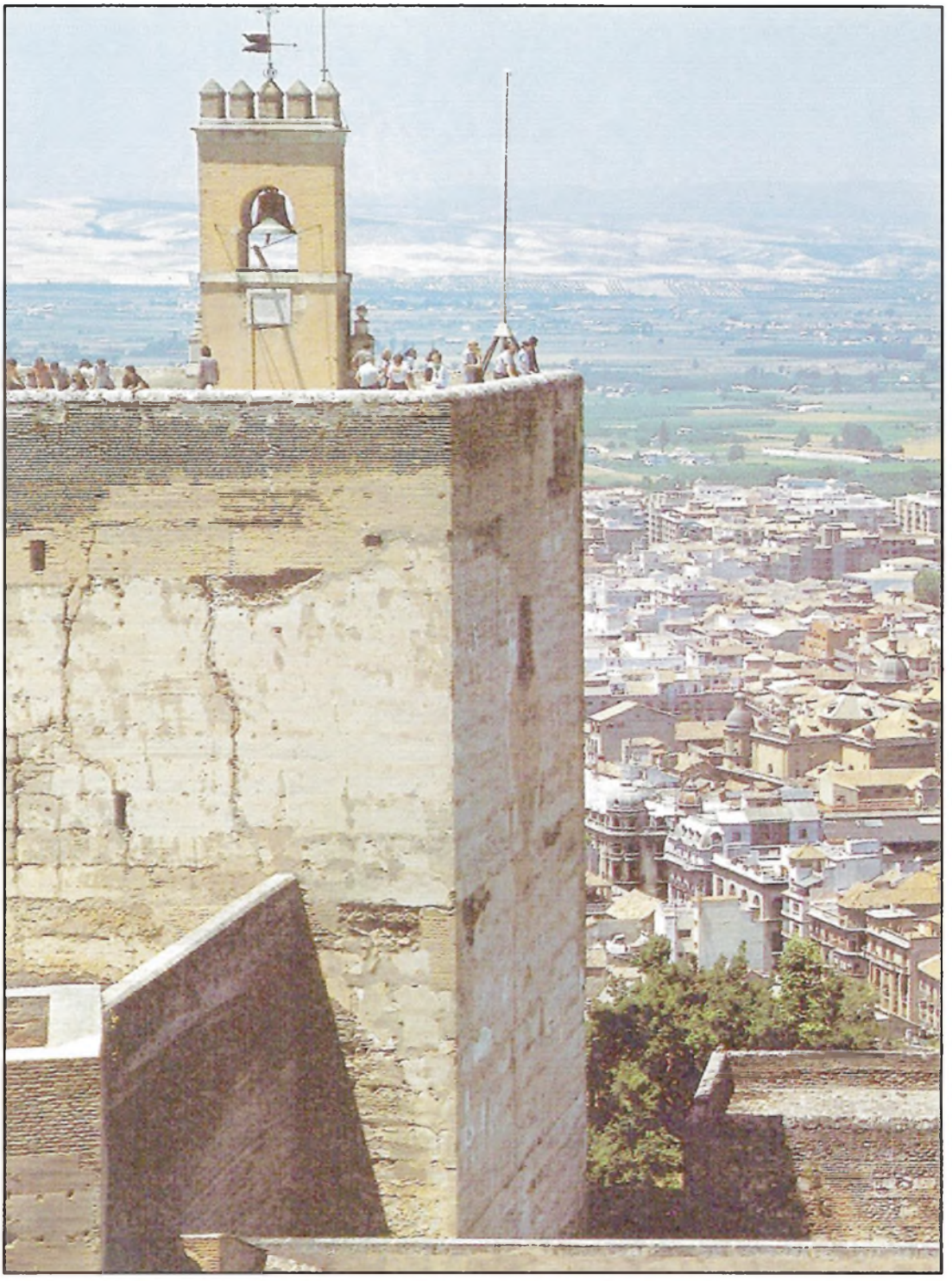

برج الشراع، وتبدو في العمق غرناطة.

الأجلاء: محمّد بن فرج القربيلياني ـ أي أنّه من قربيلين ـ وقد لقبوه شعبياً بالشفرة، أي المبضع، نظراً لمهارته في استخدام أدوات الجراحة. وقد امتلك العلماء النصريون فرصتهم للبرهان عن معارفهم في المناسبات التي أُعلن فيها عن الوباء الأسود، وعرضوا آراءهم حول السلوك الذي يجب أن يُتَّبع في أزمنة الأوبئة. وبعملية تستحق الإطراء لم يكترثوا بالرأب اللاهوتي الإسلامي الذي كان يعتبر الوباء عقاباً إلهياً، ولا بعزوِ النصارى له إلى اقتران ثلاثةٍ كواكب كانت تُسبِّب فسادَ الجوّ. وهم بعزوها لأسباب طبيعية كانوا ينصحون باتخاذ إجراءات وقائية، وهو ما سبقوا به زملاءهم الأوروبيين الغربيين، حين أشاروا مثلاً إلى أهمية الوقاية والعزل؛ وإلى الأخطار الناجمة عن العدوى باللمس والاحتكاك. وقد كتب ابنُ خاتمة وابنُ الخطيب ومحمّد الشقوري من الأسرةِ سابقةِ الذكر، رسائلَ تبدو اليوم في غاية الحداثة.

وباتباع مؤلفين مشهورين مثل هيبوقراط وجالينوس والرازي وابن سينا العربيين سجلوا تقدماً في علم العلاج، حيث كانوا يلجؤون إلى البساطة والحمية القائمة على التقليد الإسلامي، وقول الرسول الشهير: «المعدة بيت الداء والحمية رأس كلّ دواء». من الضروري أن نلفت الانتباه إلى أنّه لم يكن هناك رجال أطباء فقط، بل كان هناك بعض النساء الغرناطيات اللواتي برزن في ممارسة علم الطب، وهذا ما يجعلني أشعر بالاعتزاز.

وقد أدركت الغايات الأكثر ثقة في دراسة الأمراض، كما في وسائل محاربتها، حين استخدم الأطباءُ ماءَ الثلج ضدَّ النزيف، والكيَّ للجراح الملتهبة، الأدوية الكاوية ضدَّ النزلات الداخلية والمياه المعدنية ضدّ الروماتيزم. عالجوا الساد باستئصاله بإبر مقوَّسة أو بعمليات تحجيمه، وصنعوا النظارات والعدسات المدروسة بشكل كامل. كما نصحوا بتبديل الهواء لمعالجة الحميات المستعصية، وحدائق نهر حدرة ضد السل. درسوا البول، وعرفوا قيمة النبض وأهميته؛ أجروا بحوثاً عميقةً حول الحصَف والجذام، وأنواع الشلل الجزئي، وضيق المعدة، والالتهابات القلبية وكذلك الالتهابات

الموضعية الحادة للمَنْصِف والجدري. أدركوا الكمال في الجراحة، حتى أنّهم نشروا بحوثاً حول التخدير بالزؤان والعمليات بأدوات قاطعة، مثل استخراج السهام، والشفاء الكلّي من الجراح والفتوق، ومعالجة حصاة المثانة والكلية، وطريقة تجبير العظام المكسورة أو المخلوعة والعناية بالولادة. وآراؤهم بخصوص النظافة الجنسيةِ، ووظائف الإنجابِ والأمراض المتعلقة به، كانت حصيلة المراقبة والمهارة. لقد وصلوا إلى أبعد ما يمكن تخيّله.

وبالارتكاز إلى هذا بنى محمّد الخامِس المارستان أو مأوى المرضى، الذي برهن من جهة على تقدّم العلوم ومن جهة أخرى عن مشاعر الرأفة عند السلطان تجاه شعبه. إليه وجّه رسالة التأسيس التي قال له فيها بين أشياء أخرى: «*إنّه مستشفى كي يستوعب في كلّ وقت من بينكم المبؤوس منهم وأولئك المرضى الموجودين خارج وطنهم وبعيداً عنه. وستزورونهم بتفضيل بر الأيّام لتنظروا إليهم بعين الرأفة والتعرف على ظروفهم غير المؤاتية وحاجاتهم الظاهرة. وأوّل ما عليكم أن تحاوله هو استعادتهم لصحّتهم هم والمجانين، الكثر ينشرون بين نسائهم الخلاعة...*»(*). لم يكن المارستان بناء مفيداً ومقبولاً اجتماعياً وحسب بل وكان جميلاً أيضاً. كان يحتوي على فناء مركزيّ، فيه بركة كبيرة، ونافورتان تنبثقان من أسدين جالسين موجودين اليوم في برطل الحمراء؛ هذا الفناء الذي كانت تحيط به أروقة من طابقين، كلّها مزينة بزخارف متعدّدة الألوان البراقة وبالنباتات والأزهار وصوت الماء الذي يُبعِد الهواجِس والاكتئابَ عن النفس.

تعايش أبناء شبه الجزيرة

يُغضبني، ليس لأنّ لي مصلحة بذلك وحسب، ألا يفهم بعضهم كم كان حضورُ الإسلام في إسبانيا مهمّاً؛ وكيف أنّ ظهوره المفاجئ قد

(*) لم أتمكّن من العثور على هذا النصّ في المراجع التي بين يديّ وهي كثيرة. م.

أحدث انعطافاً مهمّاً في بنية الروح والتاريخ، لا يمكن تعديله. لأنّ التاريخَ ليس مجرّد حروب، مهما بدت لنا من بعيد أنّها مستمرّة، بل هو ـ بخاصّة ـ سلام: ما يزدهر على طاولة السلام المشتركة. فالتاريخُ ليس زواجَ بعض الملوك، ولا طموحَ عدد محدود ومعاناة آخرين، ولا بروتوكولاً، ولا احتفالاً: إنّه ببساطة الحياة. والحياة، فوق ما عداها، تقوم على شيئين: التراث والمشروع، أي الماضي الفاعل والمستقبل. وكلاهما يُشادان على مفهومين: الصداقة التي هي التعايش، الذي هو إلى هذا الحدّ أو ذاك متقطّع ومفروض، والثقافة التي هي الإبداعُ، وهذان المفهومان هما نقيض التدمير والحرب.

الصداقة كشعور بالانسجام الأقصى، ينقذ الحدودَ والأعراق والأزمان. كشعور تقوم عليه كلّ الصروح الإنسانية، أكثر التبادلات نكاء والانصهارات خلوداً. صداقة وتعايش، هذا التعايش الإسباني ـ اليهودي ـ الإسلامي، الموروثُ وقريبُ العصب، الصافي والبطيء، الذي تطوّر بتطوّرنا وبنى أعشاشه على فروع الدم الخالدة. تعايش عميق عمقَ القرون، مجبول على الصراعات والعناق، على فهم صعب ومنقّى. صداقة عنيفة بقيت في أرض الأندلس للأبد: في لغته التي تكاد تكون مزدوجة، في الآداب، في المُثُل والعواطف. صداقة تشكّل، ما أمكن، أفضلَ برهانٍ على أنّ الأندلسَ ـ هذا الأندلس الذي امتدّ إلى يومنا هذا ـ ممكن أيضاً.

والثقافة. لقد آمنتُ دائماً أنّ بهاء المعجزة الأندلسية هو حصيلة عشقٍ، كما يجب أن تكون أيّة معجزة: افتتان متبادل. لقد اعتبرَ اليهود الأندلسَ وعلى امتداد ألفي عام أرضهم الموعودة، وبقي العربُ مُحاطين لقرون بشعوب مُهَلنَسة ومرؤمَنة. لم تكن سورية وحدها من صاغهم بل معها الهند وفارس. وحين توغّلوا في الأندلس، أعادوا اكتشافَ روما: نظامها، صروحها، روحها الأم. بالمقابل استعادت الأندلسُ مع العربِ عبقَهَا الشرقيّ: ما كان لها من احتكاكها بطرسوس وفينيقيا وقرطاجة. هذا اللقاء من الدرجة

الثانية هو الذي يُثمر، ويتكوَّر ويُخصب. وهو ما سهّل ترحيب الغرب الأقصى دون مفاجأة بأبُقراط طولوميوس وجالينوس ومعرفة القديس توما الأكويني بأرسطو من خلال ابن رشد؛ والشروع بطريق العلوم الأوروبية من خلال الشرارة التي انبثقت من الاحتكاك المستمر بين المسيحية وإسلامنا؛ وارتعاش أوائل أنوار النهضة، التي لن تبلغ ذروتها إلّا بعد ذلك بقرون. هذا هو الميراث العظيم ـ والواجب الأخطر ـ لإرثنا.

إنّ الأندلس هي المهد الذي أثمر فيه الجرمان واليهود والعرب وأعطوا أفضل النتائج. كانت ثقافات مختلفة، لكنّ الثلاث نسيت ذاتها قليلاً مقابل التوق الموحّد: التثبّت بأرض كانت قد تلقت ثقافة سابقة ومتفوّقة. من هنا كان أن أعطى الإسلامُ في أوجهِ مثالاً على التسامح والصداقة ـ تخطّى الأعراق واللغات والأديان ـ حين قدّم فيضاً متألقاً لم ينقطع بعد ـ حبّذا لو أنّه كذلك ـ. هذا هو أيضاً الميراث العظيم ـ والواجب الخطير ـ لتراثنا. بالفعل يمكن أن يُقال عن الأندلس ما قيل عن اليونان عندما أصبحت مقاطعة رومانية «احتُلّت فاحتَلّت قاهريها الضواري». تترأس وتقودُ تطوّرَ العالم الأوروبي الغربيّ في تحسين جوانب مهمة من حياته المادية، وفي فرض جماليات جديدة للحياة المادية، التي كان يُسيطر عليها حتى ذلك الوقت، تحت ضغط الخوفِ مما هو مجهول، زهدٌ غامض ومتشائم.

إنَّ التأثيراتِ المتبادلة وتذبذبَ النظراتِ والمحاكاةَ مستمرة. كثيرٌ من عادات أبنائي الغرناطيين لم يكن له علاقة بالإسلام، بل كان له أصول مغرقة في القِدم. عادةُ وضعِ النقودِ والغذاء في قبور الموتى، أو وضع التعويذات الحامية للأطفال أو الاحتفال بأعيادِ الميلاد أو العام الجديد أو الاعتدالِ الربيعي، وأخرى من التقويم اليوليوسي، وكذلك الإيمان بالقيمة الدوائية لبعض الينابيع، شارك فيها الشعوب الإسبانية السابقة على الإسلام. مجموعة من الأمثال الشعبية من نهاية القرن الرابع عشر تبرهن عن الاحتكاك بين أبنائي

وجيرانهم القشتاليين. كما يبرهن على ذلك الإيمان بالتمائم أو «الصيغ السحرية»، الإيمانُ بالتنبؤات والكرامات، بالزهاد والمرابطين: كلّ ذلك يجب أن يدخل في الميراث السابق والمشترك. حتى بعض أماكن العبادة على الحدود كانت مكان التقاء بين النصارى والمسلمين: بالقرب من لورقة كانت توجدُ صومعة سان خينِس دِ لا جارا، شكّلت مكاناً مشتركاً للزيارة والعبادة(*).

وهل شكّل الاختلاف الديني عائقاً في طريق الارتباطات الزوجية، التي هناك أمثلة لا تُحصى عليها؟ منذ اللحظة الأولى من ترمّل زوجة الملك لزريق، تزوّجت إيجيلونا من ابن موسى، وعبد الرحمن الثالث كان حفيداً للأميرة دونيا إينيغا، والأمير المنصور تزوّج من ابنة الملك سانتشو الثاني ملك نافارّ (نبرة) وسمح لها أن تسمّي ابنها شنجول. معظم سلاطيني كانوا، كما سبق وقلتُ، أبناء مسيحيات، سواء بقَيْنَ على دينهنّ أو لا. (كتب تفور: «يفضّل المسلم النصرانية دون صداق على المسلمة مهما بلغ صداقها، خاصّة إذا كان مسلماً حقيقياً») ألم يتربَّ بعضُ أمرائي في قشتالة وأتى أمراء من جميع أنحاء شبه الجزيرة ليقيموا بيننا؟ ألم يدرس الرهبان البنديكتيون في قرطبة عاصمة الخلافة؟ وهل كان مُسلِمِيّ يجهلون الطراز القوطي النصراني؟ ألم يُشاركوا فيه بفعالية، كما تُبرهن على ذلك كاتدرائية طُليطلة البطريركية. ألم تحمل طابعهم في بناء قببها،

(*) نلاحظ أن غالا في أكثر من مكان يريد أن يمنح الإسلام الإسباني هذه الخصائص ويريدها أن تكون مقتصرة عليه حصراً. فهنا مثلاً يريد أن يُعطي الأندلس طابعاً مختلفاً عن بقية العرب والمسلمين. علماً أنّ كلّ ما يذكره موجود في بلاد الشام وأماكن أخرى من العالم الإسلامي. فمثلاً وضع النقود والطعام في القبور أمر نجده على امتداد العالم العربي، عند المصريين والفينيقيين قبل الإسلام، وقبر يوحنّا المعمداني في المسجد الأموي في دمشق، الذي يُبجّله المسلمون تبجيلاً لا يقلّ عن تبجيل المسيحيين له. ومار جرجس، أو الخضر في محافظة حمص الذي يحجّ إليه المسلمون والمسيحيون دون تمييز ودون أدنى حساسية. كلّها أمور ليست خاصّة إسبانية، بل عامّة وبالتالي لا تتفرّد بها إسبانيا الإسلامية، مع وجود ميزات أخرى غير هذه تميّز بها الأندلسيون لا يتسع المجال هنا لذكرها. م.

المتواضع والشامخ في آن معاً، الذي ينصهر فيه التوتر المتصاعد للعقود القوطية، مع البساطة العجيبة للعمارة الرومانية والعربية؟ كثيرون هم العلوج الذين انضووا في صفوف جيش وإدارات أمرائي، وكثير من العائلات الغرناطية كان لها النسب ذاته: مثل آل بنيغش والمفرّج، والعكس صحيح، يستوردون الغرناطيين الكثيرين الذين كانوا يذهبون إلى قشتالة لأسباب مختلفة، أو يتواصلون مع ملوكها عبر الطرق الدبلوماسية، وكانت صورهم تتذبذب بين انعدام الثقة بهم كخونة محتملين (هم وحماتهم من أمثال بِدرو الأوّل أعظم محبّي المسلمين). وصورهم التي تمثلهم محاطين بالتشريفات وحسن المعاملة كأشخاص ضروريين أكثر مما هم مفيدين.

يروي أبو بكر ابن الصيرفي من أواسط القرن الثاني عشر، في تاريخ المرابطين، أنّه حين دخل ألفونسو البطايادور، ملك أراغون وناڤار إلى الأندلس، كان على علم بجمال مملكتي: خصوبة مرجها، رقّة أهلها، حسن تربية رجالها، وجمال نسائها. قبل ذلك بقليل قال الأمير عبد الله آخر الملوك الزيريين في مملكتي في مذكراته إنّ الأمير المرابطي فضّل أن يتم اللقاء الحاسم ضدّ ألفونسو السادس في منطقة بطليوس الإسلامية، دون أن يدخل في أراضي النصرانية، «خاصّة وأنّ المرابطين الذين وصلوا للتو إلى الأندلس لم يكونوا يُميّزون بين حلفائهم وأعدائهم»: كم كنّا نشبه بعضنا بعضاً!

هذا الخلطُ بالنسبة للغريب دام القرون الثمانية التي بقيها مسلمِيّ في شبه الجزيرة. من ناحيتي أستطيع أن أقول إنّ تأثير النصارى في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، ربّما لتفوّقهم السياسي والعسكري بدا واضحاً. في نهاية القرن الثالث عشر قام جدال بين شاعري ابن مرابط والشاعر السبتي أبي الملك، كلاهما كان يتهم أبناءَ بلد الآخر بتقليد النصارى، ليس في اللباس والعادات والطعام والشراب وحسب، بل وفي بعض الآثام الخطيرة إلى هذا الحدّ أو ذاك. كلاهما كان على حقّ. المؤرّخ المشرقي صلاح الدين السفردي ـ الإسباني الأصل ـ يذكر التأثير النصراني في أسماء

وألقاب ولغة الغرناطيين، ذاكراً مثلاً عادة النحوي أبي حجّام في كتابة الأسماء الأندلسية ولفظها على الطريقة القشتالية. شاهدنا كيف أنّ ابن سعيد وابن الخطيب يشيرون إلى الملابس والأسلحة، وينكر ابن خلدون سلسلة من الشواهد: «دائماً ينتهي المهزومون بتقليد المنتصرين، مثلاً المسلمون الأندلسيون يشبهون الجليقيين في اللباس والزينة، في الاستخدام والعادات، ويصل بهم الأمر حدّ أنّهم يضعون الصور و... خارج الجدران وداخل الأبنية وفي أكثر الغرف عزلة...».

ألا يشغل الفن المدجّن في العمارة والزخرفة مكانة أساسية؟ ألم يستمر المسلمون باستخدام تراثهم وتقنياتهم في ظلّ النصارى المنتصرين؟ لقد أسّس ألفونسو الثامن دير وِلْغاس في برغش (برقش)، عاصمة قشتالة؛ والتأثير الموحّدي بادٍ في جميع البروج البرّانية، بما فيها القسم المسوّر من طليطلة. إنّ حرص الأمراء والنبلاء النصارى على طرزٍ مُسلِمِيٍّ قد ملأ المدنَ المحتلة بفيض من الأعمال الفنية. طُليطلة التي كانت مُستعرَبَة صارت مُدجّنة بعد احتلالها؛ سلسلة من الورشات الغرناطية انتقلت إليها. فكُنسها وكنائسها في أواسط القرن الثالث عشر من عمل أبنائي. إن تكافل الفنون الإسلامية والمسيحية قد بنى قصور بلد الوليد وأشاد قصور إشبيلية، الهدية التي لا تُقدَّر بثمن.

يمكن أن نقدّم براهين لا تُحصى عن هذه الصداقة وهذا التعايش المثمر. كتب محمّد الخامس رسالة إلى ملك أراغون يقول له فيها: «نأمر بأن يعمل نسختان بالعربية وبالنصرانية كي تبقى واحدة في حوزتي وأخرى في حوزتك». كثير من مفكّريَّ كان يعرفون عدداً من اللغات، من بينها القشتالية، فمحمّد بن لوب المالقي، سافر في بلاد النصارى ليناقش ويقيم حوارات دينية مع رهبانها. وكان شعرائي وعلمائي يعرفون جيّداً تاريخَ القشتاليين ويدخلون أمثالهم في أحاديثهم. وكان خصومنا في الحرب يأتون في السلم ليتعلّموا منّا، كما هو حال عبد الله بن سهل، الذي تمتّع

بسمعة عظيمة كرياضيّ، وكان أبناء طليطلة يذهبون إلى بيته في بياسة ليتلقّوا تعليمهم منه. وكان مؤسّس السلالة المالكة قد أرسل مئة فارس مسلم ليحيطوا بجثمان فِرناندو القديس في إشبيلية، وبقي يرسل في كلّ عام، في ذكرى وفاته، وفي ما تبقى من حياته، مئةَ فارس من غرناطة كي يطوفوا حول الضريح الملكي بالمشاعل المشتعلة. وعندما تُوفّي ألفونسو الحادي عشر بالوباء في معسكره، أثناء حصاره لجبل طارق أمر ملكي يوسف الأول أبناء الحدود بألاّ يزعجوا الفرسان الذين كانوا ينقلون جثمان الملك المتوفّى وبدل أن يشدّد الهجوم أوقفه وقفاً تامّاً، كي يفسح المجال للجِداد، وقد عَرَفَ ملكُ قشتالة الجديد، بِدرو الأوّل، كيف يُقابل هذا الفضلَ، بكلّ ما ينطوي عليه من قيمٍ، بمثلِهِ.

كانت حدودي والحروب التي أحاقت بي حتى النهاية أماكن ولحظات مواتية لمبارزات الفرسان، إلى حدّ أنّ الخيال قد أضاف إلى المبارزات الواقعية مبارزاتٍ مبتدعة. وكان تسليح الفرسان في ميدان المعركة معتاداً، حتى أنّ ابنَ الملكين الكاثوليكيين الوحيد سهر على سلاحه أمام عينيّ في الوقت الذي كنت على وشك أن أغمضهما، وكثيراً ما كان طرق الفروسيّة تنتشر بين أمرائي وأعياني من خلال هذا التعايش مع الأعداء، لذلك علمتُ أنّ وراء كلّ صراع عناق، لكن كان هناك لحظات في تاريخي انتصر فيها العناق على الصراع. وكثيراً ما ضمّ الشقاق الأندلسيّ إليّ بعض الأطراف: دوق مدينة شذونة ساند محاربيّ ضدّ مركيز قادش، وقدّم أميري ما قبل الأخير، أبو الحسن، ميداني للمبارزة بين دييغو فِرناندِث القرطبي، ابن كونت قبرة، وابن عمّه دون أغيلار، كلا الفارسين العدّوين كانا يثقان بحيادي أكثر من أيّ شخص آخر من أنصارهما.

لكن وهل هناك من برهان أقل جدلاً من التأثير العميق الذي مارستْهُ ثقافتي على اللغة ذاتها؟ فقد أخذت القشتالية من العربية كلّ ما كان ينقصها، كي تعبّر عن مفاهيم غير معروفة فيها: في مجال المؤسسات والحياة الخاصّة، وفي مصطلحات التنظيمات المدنية

والعسكرية (الفارس والخيّال والطليعة والساقة (مؤخّرة الجيش) وأكثر من هذا بكثير، كلّها من لغتي، وفي قاموس التحصينات (البنّاء والسياج والطوب) وفي المؤسسات الحكومية، الضرائب المسماة بالقبالة والغرامة، أو البقية، والقائد (العمدة الآن)، صاحب المدينة، صاحب الشرطة، المحتسب، الفقيه) ومصطلحات من الحياة العادية لا تُحصى. كيف يمكن أن يُسافر المرء في شبه الجزيرة الإيبيرية دون أن يلتقي باللغة العربية في كلّ خطوة من خطواته؟ كيف يمكن أن يمارسوا تقنية الزراعة أو يقيسوا الأسطح أو يزنوا بالأوزان ويكيلوا بالمكاييل أو يسقوا الحقل، مهما كانت الطريقة، أو يصطادوا في البحر، دون أن يروا أنفسهم وقد تبلّلوا بلغتي؟ أسماء الثمار والأزهار، أسماء أكثر الألوان شيوعاً، أسماء الأقمشة والملابس، أسماء التسريحات، الأحذية، المجوهرات، السجاد، أدوات الطعام والبلوريات، وكلّ أثاث البيت، ألم نقدّمها نحن في أكثر الأحيان؟ ألم يسكّ الملوك النصارى عملاتهم ويضعوا على وجهٍ أساطير وعلى آخر كتابةً؟ ألم تلبس سيدات برغش(*) وليون ويتصرفن وعيونهنّ على سيّداتي؟ ألم تؤثّر حياتي المرفهة وحياتي المدنيّة في حياة الملوك والبورجوازيين النصارى؟ ألم يكن الغريب يخلط مثله مثل المرابطين بين هؤلاء وأولئك من سكان شبه الجزيرة؟ لم يبق أمامنا إلّا أن نقبل مقولة عليّ، صهر الرسول: «خلال حياتي وجدت أن الرجال يشبهون زمانهم الذي يعيشون فيه أكثر مما يشبهون آباءهم».

ربّما أمام كل هذه العلاقة المتداخلة والتسامح والتعايش والفهم المشتركين فكّر أحدٌ أنّه لم يكن هناك ضرورة لقيام الحرب الأخيرة. وكان يكفيه انتظار أن تتمثّلني أراغون وقشتالة لتنتهيا بوضع رمانتي على ترسهما. لم يحدث ذلك: أرادوني أن أستسلم من خلال اتفاقياتٍ لم تُنفّذ قط. لم تبدأ معهما أيّة حياة جديدة بالنسبة

(*) وتلفظ وتكتب برقش أيضاً. م.

إليّ، بل لقد بدأ موتي بطريقة داخلية ومشؤومة... من ذا الذي يظنّ أنّ المدنَ لا تموت؟ إنّها مثل الكائنات البشرية لها صعودها وهبوطها؛ تنمو، تُمضي مراهقتها، وتبلغ نضجها وتغامر أحياناً بشكل منحوس، ثمّ تنهار وتموت. ويأتي يوم لا يبقى منها صوت عذراء واهن، لا آهة حبّ ولا صرخة نفساء؛ تشيخُ، وتفضّل الموت، لأنّها ما عادت تؤمن بنفسها ولا بأبنائها. أنا التي كنت أظنّ أحياناً وأنا غافية ـ جميلة ومفضلة ـ أنّني خالدة، وحلمتُ بأنّ الخلود مثل خلخالٍ في ساقي؛ أنا التي لم يكن يعني لي شيئاً برقُ نجم هاربٍ يخترقُ صدرَ الليل الأسود وينطفئ في أقل من لحظة؛ حدث لي أن عشتُ موتي. يوسف بنيغش، إمام مسجدي أدركَ ذلك حين رأى كشاهدٍ ما حلّ بمن امتلكوني وسكنوني، ومن أحبّوني بمعزل عن أيّ تعقّل. لأنّ ما رآه ليس تاريخاً آخر: إنّها النهاية المُرّة لما رويته...

«أرى أنّه ما من أحدٍ بكى بكاء أبناء غرناطة. لا تشكّ بقولي لأنّني واحد منهم وشاهد عيان، رأيت بأمّ عيني كلّ ليلة نساء وأرامل ومتزوجات مهزّآت، ورأيت أكثر من ثلاثمئة فتاة تباع بالمزاد العلنيّ، أنا فقدت ثلاثة أبناء ذكور وابنتين وزوجتي، وابنتي الوحيدة هذه التي أملكها عزاء لي كان عمرها سبعة أشهر. وأنا لا أبكي الماضي، فهو لا رجعة له، لكنّني أبكي عليك إذا ما عشت واهتممت بهذه الأرض، فإذا كنّا لا نستطيع الآن أن نقوى على الانتقال، فماذا سيحل عندما يأتي خريف العمر، وإذا كان الملك الفاتح لا يرعى عهداً، فماذا سننتظر من أخلافه. وما زلتُ أقول، يابني، إنّ انهيارنا في ازدياد مضطرد»(*).

كيف لا أتذكر منذ ذلك الوقت النقشَ الذي يبكي مذاك على شاهدة قبر سلطانيّ يوسف الأول؟ أليس هو نقش قبري أيضاً؟

«... قَطَنَ دار البليّة، ولم يفده في شيء متاع هذه الدنيا. زال

(*) لم أتمكّن من العثور على نصّ يوسف بنيغش رغم بحثي في كلّ ما بين يديّ من مصادر أندلسية. م.

عن وجه الأرض، لكنّ اسمه لن يزول. نزل ليسكن التراب لأنّ القدر شاء ذلك؛ ومع ذلك فالنجوم في منازلها العليا أدنى منه. لقد وضع القدر الجبار سهمه في قوسه فأصابت رميتُه قمّةَ المملكة العالية. كان ذائع الصيت، صريح الصداقة ونشر أعماله الصالحة... ما عاد يُنتظر سخاؤك؛ اختفى المطر، وجفّت قواه واحترقت مراعيه. ونُسِيت أريحيته، ما عاد أحد يسكن حجراته، وَجَمَ وزراؤه وأَقفرت منازله. أُغلقت مساكنه، واعتم أفقه وهدّمت مبانيه. وهو الآن يرقد مرتاحاً بين طيات القبر؛ لكنّ قلوبَ الخلقِ سَكناه...».

لذلك ومن قلبي إلى قلوبكم تحدّثتُ.

الفهرس

- القسم الأوّل: الثمرة المتوّجة 5

مدخل 7

من الأعلى 22

المسجد الكبير 26

الحمامات 32

التعليم والمعرفة 37

التجارة والأسواق 48

الأحياء والأسوار 55

المقابر 58

مدينةُ الأحياء: البيوت والشوارع والساحات 61

السكان: عددهم، أصولهم، أنسابهم، طبقاتهم الاجتماعية 69

الأقليات: النصارى، اليهود، المدجّنون. 76

طبيعة الغرناطي 82

- القسم الثاني: تاريخ السلالة المالكة 91

- القسم الثالث: الثقافة والحياة 157

مدخل 159

المرأة المسلمة 160

البيت من الداخل: توزيعه، أثاثه، طعامه. 166

المظهر الخارجي للغرناطي: لباسه، ونظافته، وزينته 171
الأعياد 175
الألعاب والتسليات 178
الموسيقى والغناء والرقص 182
الأخلاق والعادات 185
الحياة الدينية 190
الفن والزخرفة والمهن اليدوية 194
اللغة وتجلياتها 204
الشعر 205
العلوم 208
تعايش أبناء شبه الجزيرة 210

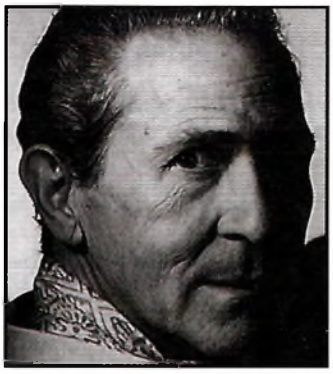

غرناطة بني نصر

أنطونيو غالا عاشق الأندلس العربية الإسلامية الأبدي، جعل من تلك الأندلس وتاريخها وازدهارها موضوعاً أساسياً للكثير من أعماله: شعراً ومسرحاً وروايةً. هكذا هو في رواية «المخطوط القرمزي» التي قدّمناها إلى القارئ العربي، وكذلك في «غرناطة بني نصر» الكتاب الذي بين أيدينا، حيث تروي المدينة تاريخها وألقها في حقبة بني نصر منذ النصف الأوّل من القرن الثالث عشر وحتى سقوطها على يد الملكين الكاثوليكيين فرناندو وإيزابيل عام 1492.

هنا تعود الحياة إلى غرناطة الإسلامية بأزهى صورها على يد هذا الكاتب الأندلسيّ الكبير. هنا في هذا الكتاب تُدخِلنا غرناطة حاراتها وبيوتها، مساجدها وقصورها، حاناتها وأسواقها، تُعرّفنا على نسائها وأعيادها، لهوها وشعرِها، علومها ودينها، على التعايش الذي قلّ نظيره في التاريخ. هنا تُعرّفنا غرناطة على تاريخ ملوكها المعقّد. كلّ ذلك تحكيه لنا المدينة بلسان أنطونيو غالا الشعري وأناقته الأدبية الرفيعة.

9 789933 900793